

مدیة الحکمة

۸۷

۱۹

برورته

الکتور عبدالسفار مکادی

رسانات فی فلسفة

○ پیار منسیدن

○ هیراقلیطس

○ سقراط

○ أفلاطون

○ أفناوطیت

○ سوشتیوس

○ پیاسکان

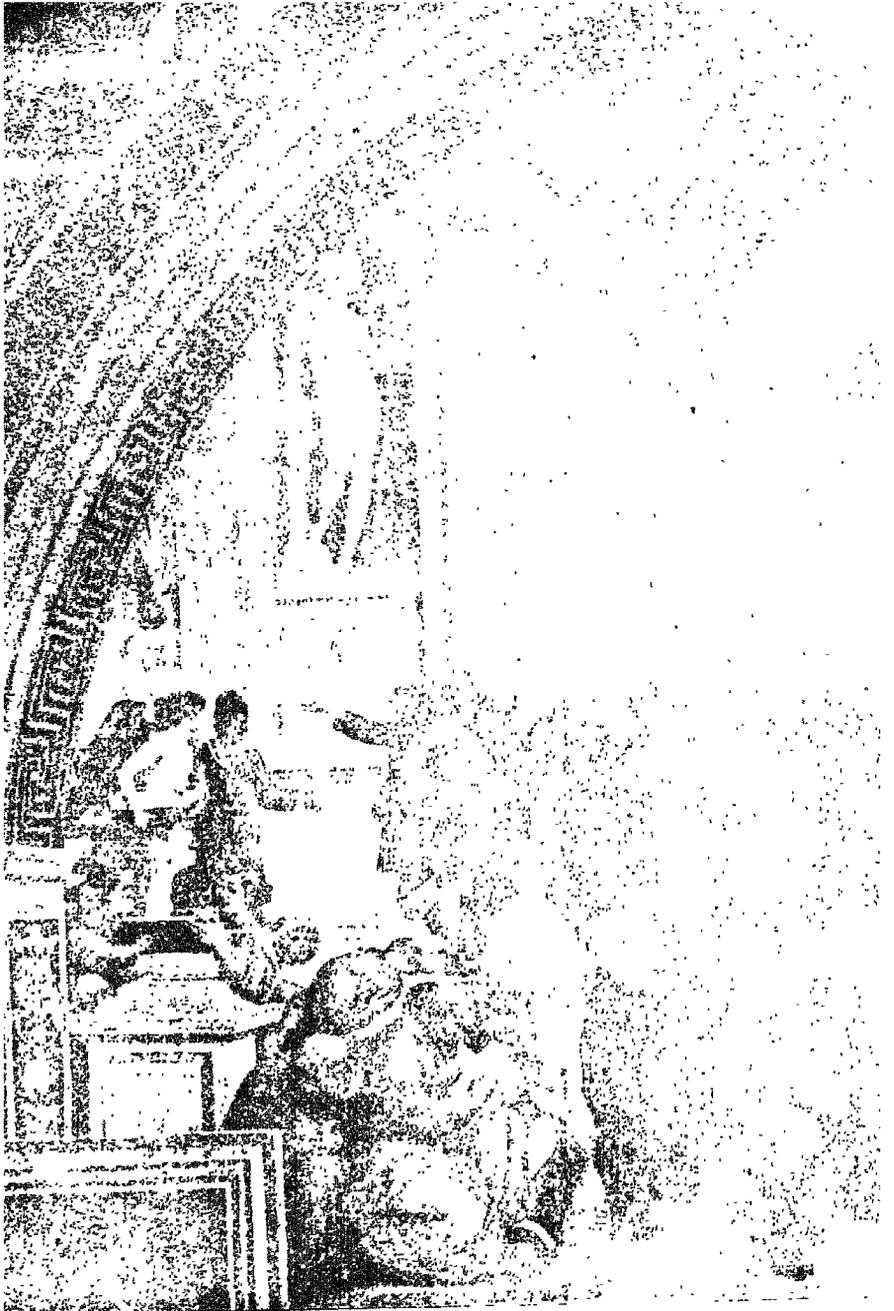
○ سنیات شنه

○ شهید جبر

○ آلیار کامی

بہنام





القوة الهائلة
للکمة المطبوعة
کتب غیرت العالم

یصف هذا المجلد ستة عشر کتابا
عظیما غیرت مجرى التاريخ . هؤلاء
الکتاب الخالدون فى الذاكرة ابتداء
من کوبرنيکوس Copernicus وهاريت
Harriet وبيتشرستو Beecher Stowe
الى داروين Darwin وفرويد Freud
واينشتين Einstein اثاروا الناس ضد
الظلم وبدأوا الحروب وقلبوا آراء
الانسان عن الدنيا وعن نفسه .

الكتب أسلحة

أبدت الكتب قوة هائلة من أجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى . هالك مناقشة فاحصة لستة عشر كتابا من أهم مؤلفات جميع العصور ، كان لها تأثير على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمى ، من عصر النهضة الى يومنا هذا .

إنها كتب بالغة القوة ، مثل : « نضالى Mein Kampf » لهتلر Hitler ، ذلك الكتاب الذى تنبأ بالموت والدمار اللذين أحدثتهما الحرب العالمية الثانية ، وكتاب هارفي Harvey الشهير عن الدورة الدموية ، الذى غير النظرية الطبية والعلاج ، ونظرية أينشتاين Einstein عن النسبية التى بدأت العصر النرى . وصفت هذه الكتب وصفا دقيقا واضحا فى هذا الكتاب المثر السهل القراءة . ومؤلفه هو الدكتور دوانز Dr. Downs الرئيس السابق للمكتبة الامريكية ورئيس مكتبة جامعة الينوى Illinois ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب وكتب أخرى ، منها عرض نيوتن Newton لاكتشاف قوانين الجاذبية التى صارت حجر الزاوية فى النظرية العلمية اليوم . وكتاب داروين Darwin « أصل الأجناس » ، الذى ظن الكثيرون من رجال الكنيسة أنه يتعارض مع تعاليم التوراة ومؤلف هاريت بيتشرستو بعنوان « كايينة العم توم » الذى يعتبر أحد الاسباب الرئيسية فى الحرب الاهلية الامريكية . وتفسير فرويد

للاطلاع ، ذلك المؤلف العظيم لرجل احدث انقلابا في افكار الرجل
العصرى عن نفسه .

وهانحن ذا نقدم هنا عرضا مثيرا لكتب من عدة عصور تبين
القوة الهائلة للكلمة المطبوعة واثرها على التقدم البشرى .

المقدمة

يقول وهم شائع على نطاق واسع أن الكتب جمادات هادئة خاملة ليس لها تأثير ، انها خاصة بالاماكن الحبيسة والهدوء النظرى للاديرة والجامعات وغيرها من اماكن الهروب من العالم المادى الشرير . وتبعاً لهذه الفكرة الغريبة الخطأ ، تزخر الكتب بالنظريات غير العملية ، وأهميتها تافهة لرجل الاعمال ذى الرأس الصلب .

حظى متوحش الغابة بفهم أكثر واقعية وهو ينحنى أمام الصفحة المطبوعة ، لقوتها الحارقة على نقل الرسائل . وتتراكم الأدلة فوق الأدلة ، طوال التاريخ ، على أن الكتب بريئة وعديمة الضرر وغير تافهة . فهي غالباً ماتكون عظيمة الحركة وافرة الحيوية قادرة على تغيير مجرى الاحداث تغييراً كلياً - للخير أحياناً وللشر أحياناً أخرى .

لدى دكتاتورى كل عصر نظرة داخلية حكيمة الى القوة الهائلة للكتب . فكلما وأينما أرادت حكومات

الطغاة وذوى السلطان ايقاف المعارضات وقتل الآراء
اتجه تفكيرها ، دون استثناء تقريبا ، الى ائتلاف كتب
الأراء المضادة ، وفي أغلب الاحيان ، الى اهلاك
مؤلفيها . غير انه ، على نقيض ذلك ، التفت هؤلاء
الطغاة الى صالحهم ، ففرضوا سيطرتهم على اولئك
الناس ، وعلى كتب بعينها ، مثل كتاب هتلر «نضالى»
وكتاب « رأس المال Das Capital » لكارل ماركس
Karl Marx والكتابات الضخمة التى كتبها لينين
Lenin وستالين Stalin . وما من أحد يدرك ،
خيرا من الطاغية نفسه ، ضخامة القوة الناسفة الكامنة
فى الكتب .

وفى بعض المناسبات ، تطبق هذه الفكرة فى الامم
الديموقراطية ، مثال ذلك ، الاحساس المنتشر واسعا
بالصدمة وعدم التصديق بين افراد الشعب الامريكى
واصدقائهم فى الخارج منذ بضع سنوات خلت بأن
ادارة حكومة الولايات المتحدة شغلت فى مكثبات
الاستعلامات بالخارج ، فى برنامج ضخم للرقابة على
الكتب ، وفى عدة اماكن أخرى باحراق فعلى للكتب .
فكان رد الفعل عنيفا لدرجة أن الرئيس ايزنهاور
Eisenhower نفسه تدخل فى الأمر محاولا تبرئة
سمعة الحكومة الامريكية ، فلقى خطابه المشهور
«لاتنضم الى حرقى الكتب » . رأى الناس بغريزتهم
فى كل مكان ، أن الكتب ضرورية وأساسية للثقافة
والحضارة الحديثتين ، كما كانت فى القرون الماضية .
الفرض من هذا المؤلف هو توضيح القوة العاتية
للكتب ، عن طريق مناقشة أمثلة معينة . فأولا ، يجب

التركيز على أنه ليس في نيتنا تقديم قائمة «بأحسن الكتب» أو «أعظم الكتب» ، فان عمل مثل هذه القوائم هوية محبوبة لتمضية الوقت لنقاد الادب والمؤلفين والناشرين ورجال التعليم وأمناء المكتبات ، الذين تنحصر توصياتهم في العلوم الادبية . أما الهدف منه فهو اكتشاف الكتب التي كان لها اعظم اثر عميق على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمى منذ عصر النهضة ، تقريبا ، الى منتصف القرن العشرين .

المشكلة في مثل هذا الامر ، هي بالطبع في الاختيار تأتي الى الذاكرة تلقائيا حفنة من العناوين ، فيتنبوع الاختيار منها تنوعا كبيرا ، ويحذف معظمها عند استعمال العدد الواقع في الصف الاول ، اذ لا بد أن يكون هذا الكتاب ذا وقع عظيم مستمر على الفكر والعمل البشريين ، ليس لامة واحدة فحسب ، وانما لاعظم جزء من العالم . وعندما يتعرض المرء لهذا الاختبار القاسى ، يأخذ في حذف عنوان بعد آخر .

لأسباب عملية تقرر عرفيا حصر النقاش في كتب العلوم والمواد الاجتماعية ، وحذف تلك المجالات الواسعة كالدين والفلسفة والادب . وقد يحدث أن يكون تأثير الروائع الدينية والادبية اقوى بكثير من تأثير بقية الانواع مجتمعة . ولكن ، كيف يتسنى للمرء أن يعرف تأثير كتاب مثل ترجمة الملك جيمس James للتوراة ؟ أن استخدام أى هدف على مستوى غير مودنوعى لايتفق ومثل هذا المؤلف العجيب ، أو ادب شكسبير Shakespeare وملتون

Milton الذى يخلق عقبات كأداء ، فوَقَمَهَا على المجتمع شامل تماما : على اللغة والأدب والفلسفة وطرق التفكير والاخلاق، وكل وجه من وجوه الحياة ، لتكون بالغة الاتساع .

رغم هذا ، هب أننا نضمن كتابنا : الدين والفلسفة قديهما وحديثهما ، أذن لصار لدينا عدد ضخم من الكتب : التوراة (ترجمة الملك جيمس ودواى Douay) والتلمود والقرآن والبوذية المقدسة والكتابات الهندوكية ، وكونفشيوس Cofucius والفلاسفة الاغريق والقديس أوغسطين St. Augustine والقديس ثوماس أكوينوس St. Thomas Aquinus ومارتين لوثر Martin Luther وعمانوئيل كانت Immanuel Kant وكثير جدا غير هذه الكتب . وإذا نظرنا الى الكتب من ناحية تأثيرها وجدنا هناك مؤلفين أمريكيين هما : «العلم والصحة» تأليف ماري بيكر ادى Mary Baker Eddy وكتاب «المورمون Mormno» لجوزيف سميث Joseph Smith (1) .

وربما كان الاصعب من هذا هو اختيار اعظم مافى التراث الادبى : الخيال والدراما والشعر والنثر، الذى حرك مشاعر العالم وايحاءه . تخطر على البال مباشرة مثل هذه الاسماء لكتاب الاغريق والرومان الكلاسيكيين ، ودانتى Dante وتشوسر

(١) المورمون مذهب نشأ فى ولاية اوتاه بالولايات المتحدة الامريكية ، ينادى بتعدد الزوجات

وسيرفانت	Rabelais	ورابليه	Chaucer
وشكسبير	Molière	ومولير	Cervantes
وجوته	Milton	وميلتون	Shakespeare
ودستوفسكى	Heine	وهين	Goethe
، وعشرات غير هؤلاء ممن ربما كانوا			Dostoevsky
			اذل مرتبة .

ومن الكتب ذات التأثير البالغ ، كتب الرحلات ،
التي وسعت أفق الانسان منذ عصر ماركو بولو
Marko Polo وعملت على رحابة عالمه . فتح
رحالة العصور الوسطى المنقطع النظير ، ماركو بولو ،
في القرن الثالث عشر بلاد الشرق التي لم تكن أوروبا
تعرف عنها شيئاً ، وترك سجلاً مشيراً من مغامراته
واكتشافاته . كذلك خطاب كريستوفر كولومبوس
Christopher Columbus لسنة ١٤٩٣ الذي يصف
فيه أولى رحلاته الى أمريكا والذي ترجم في
الحال الى عدة لغات مختلفة ، وطبع في شتى دول
أوروبا . وبطبيعة الحال خلق اثاراً ومتمعة بالفتن .
وتلا هذين بفترة قصيرة خطابات أمريجو فيسبوتشي
Amerigo Vespucci التي أوجبت تساؤلاً أكثر، وطبع
في سنة ١٥٠٧ بمعرفة مارتين والسيمونر
Martin Waldseemüller في مؤلفه Cosmographiae Introductis
(مقدمة انظمة الكون) . قأدى هذا المؤلف الى تسمية
المنيا الجديدة باسم « أمريكا » . وكان القرن الذي
تلا ذلك اشهر حقبة للرحلات والاكتشافات في التاريخ
المسجل ، رأت فيضاً من ادب الرحلات المطبوع جمع

معظمه ريتشارد هاكليت Richard Hakluyt في أواخر
القرن السادس عشر في مؤلفه الشهير Principal
Navigations, Traffics and Discoveries of the English
Nation

كما جمع بعضه صموئيل بوركاس Samuel Purchas
في مؤلفه Pilgrims

وفي مجال الترحال ، يجب ألا نغفل الكتب
الخيالية البحتة ، مثل كتاب «حول العالم في ثمانين
يوما» تأليف جول فيرن Jules Verne (١٨٧٢) ،
ذلك الكتاب الذي أثار المخيلة بما لم يشهها مثله أي
كتاب غير خيالي . وحديثا جدا (١٩٤٣) ألف ونلد
ويلكي Wendell Willkie كتاب «عالم واحد»
فأسهم كثيرا في منح مواطنيه نظرة خارجية دولية ،
وأعب دوزا في فكرة تنظيم «الأمم المتحدة» .

من الممتع أن نلاحظ ونقارن بين المحاولات السابقة
أحصر أسماء الكتب التي لها أعظم تأثير . وقد أعد
ادوارد وينكس Edward Weeks وجوهين
ديوى John Dewey وتشسنازلز أ . بيرد
Charles A. Beard في عام ١٩٣٥ لمجلة الناشرين
Publisher's Weekly . فاختار كل من هؤلاء ٢٥
كتبا صدرت منذ عام ١٨٨٥ كان لها في رأيه أعظم
تأثير . تضم القائمة الأخيرة المختارة من هذه خمسين
عنوانا ، كان أربعة منها فقط («رأس المال» لماركس ،
و «نظرة إلى الوراء» تأليف بيلاني Bellany ،
و «الفنن النذهين» تأليف فريزر Frazer ،
و «تدهور الغرب» تأليف سبنجل Spengel)

اختيرت بالاجماع ، بينما نال ٢٩ عنوانا صوتا واحدا فحسب . ومن بين الكتب التى نناقشها فى هذا المؤلف للمدة التى اختاروها ، ماكندر Mackinder ، لم يذكره كل من ويكس وديوى وبيرد ، بينما لم يختر كتاب هتلر سوى بيرد ، وكتاب ماركس وحده هو الذى اختاره الجميع . ولاشك فى أنه فى فترة عشرين سنة ، تقوم هيئة ممتازة من الحكام باحداث تغييرات كبيرة ، اذا استطاعت ، اليوم ، أن تراجع ، ماسبق أن اختارته .

بعد ذلك ببضع سنين (١٩٣٩) قام مالكولم كاوى Malcolm Cowley وبنارد سميث Bernard Smith بمحاولة تشبه هذه ، لاختيار الكتب التى غيرت عقولنا ، وبمعاونة فئة مختارة من رجال التعليم والمؤرخين والنقاد والمحاضرين ورجال الاعلان الامريكيين ، جاء ١٢ عنوانا فى رأس القائمة على أنها ، فى حكم هذه الفئة ، أهمها فى تشكيل العقل الامريكى المعاصر ، ولكنهم أوصوا ب ١٣٤ كتابا أخرى ، فكان الاختيار النهائى :

فرويد : « تفسير الأحلام »

آدمز : « تعليم هنرى آدمز » .

تيرنر : « الطليعة فى التاريخ الامريكى »

سمنر Sumner « طرق الشعب Folkways »

فيلين Veblen : « مشروع العمل » .

ديوى Dewey : « دراسة فى النظرية

المنطقية » .

- بواس Boas : «عقل الرجل البدائي» .
- بيرد : « التفسير الاقتصادي للدستور » .
- ريتشارز : « مبادئ النقد الادبي » .
- بارنجتون Parrington : « التيارات
الرئيسية في الفكر الامريكى » .
- لينين Lenin : «الدولة والثورة» .
- سينجار : «تدهور الغرب» .

ومن هذه الاثنى عشر كتابا رأى ويكس وديوى
وبيرد اختيار مؤلفات فرويد وادم وتيرنر وسينجار .
وقام الكاتب الانجليزى هوراس شيب
Horace Shipp بمحاولة اخرى لاختيار اعظم
الكتب تأثيرا ليستعملها فى كتابه « كتب حركت
العالم » (١٩٤٥) دون تحديد للزمان أو المكان أو
الموضوعات . فاستقر رأى شيب على اختيار عشرة
كتب هى :

التوراة

- افلاطون Plato : «الجمهورية»
- القديس اوجستين : «مدينة الله» .
- « القرآن » .
- دانتي : «الكوميديا الالهية» .
- « مسرحيات شكسبير » .
- بنيان Bunyan : « تقدم الحج » .
- ميلتون : « عضوية محكمة جنابات اثينا » .

ماركس : « رأس المال » .

وبالنسبة للتحديد المفروض في دراستنا هذه تحذف كل هذه الكتب ماعدا الثلاثة الاخيرة من هذه العشرة ، وفعلا ، لم يضم مؤلفنا غير الكتابين الاخرين .

يتضح مما سبق انه من الصعب جدا الاجماع على كتاب بعينه . والاختيار امر شخصي الى درجة كبيرة وموضوعي جدا . والاتفاق التام على معظم الكتب المختارة غير محتمل ، ومع ذلك نأمل في أن تكون قد وفينا كل كتاب حقه من الدراسة والتمحيص الدقيقين . وكذلك فعلنا في مؤلفيها . ويجدر بنا أن نذكر بعض المؤلفات التي درست بعناية ودقة ، ثم حذفنا لسبب ما أو غيره .

فمثلا ، يوجد بين الكتب الكلاسيكية للعلوم كتاب « مصنع جسم الانسان De Corporis Humani Fabrica (١٥٤٣) للمؤلف اندرياس فياليوس Andreas Vesalius ، جدير بمكان في تاريخ الطب ، على قدم المساواة مع مؤلف هارفي « De Motu Cordis » وتقف مؤلفات ليبنز Leibniz في الرياضيات والطبيعة في صف واحد مع « مبادئ الرياضيات Principia Mathematica » لاسحق نيوتن . وفي العلوم الاجتماعية : كتاب « الطبيعة في التاريخ الامريكى » تأليف فردريك جاكسون تيريز .

Frederick Jackson Turner وهو مؤلف لامع
 مستحدث يحظى ، في العالم ، بأهمية أقل ، في
 مجاله ، من «المحور الجغرافي للتاريخ» تأليف ماكندر
 Mackinder وكان كتاب « الشيوعى البين »
 تأليف ماركس وانجلز Marx and Engels
 قوة محرّكة للتغير الاجتماعى لمدة تزيد على القرن ،
 ولكنه أقل نضجا وأقل عناية في مستنداته ، وربما
 كان أقل نفوذا في تلك المدة الطويلة من كتاب « رأس
 المال » لماركس . ويفضل بعض النقاد كتاب « جماعة
 الوالدين Walden (1) » تأليف ثورو Thoreau
 على كتاب « العصيان المدني » ومع
 ذلك ، فالاول أقل قوة في تأثيره . ومن الكتب
 المؤثرة الأخرى : « حياة واشنطن » (1800) تأليف
 بارسون ماسون لوك ويمس Parson Mason
 Locke Weems الذى ظل مدة ستة أجيال
 يساعد في توجيه الفكر والتراث الأمريكيين (ولا سيما
 في حالة أبراهام لنكولن Abraham Lincoln)
 وكتاب « سنتان أمام الصارى » (1840) تأليف
 ريتشارد هنرى دانا ، وهو منظوم شعرا قعل الكثير
 في تحسين أحوال البحارة الأمريكيين في البحر ،
 وكتاب « الإذغال » (1906) تأليف أبتون سنكلير
 Upton Sinclair الذى كشف أمورا مؤسفة
 في بورصة العقود بمدينة شيكاغو Chicago
 وأدى الى أحداث اصلاح جذرى . بيد أن هذه

(1) جماعة مسيحية شديدة التمسك بمعاليم الإنجيل .

الكتب الثلاثة الأخيرة حكم عليها بأن نطاق تأثيرها محدود فلا يصح أن تشملها دراستنا .

أشار علينا البعض ، وربما كان ذلك عن سوء قصد رغم أن الكتب ذات أهمية تستحق الدرس ، أشاروا علينا بأن نضمن مؤلفنا « كتاب الطهو لمدرسة الطهو بمدينة بوسطن Boston » « تأليف فاني فارمر Fanni Farmer وكتاب « الاثيكيت » تأليف اميلي بوست Emily Post ، وكتاب « السلوك الجنسي لكل من الذكر والانثى من البشر » تأليف الدكتور الفريد كنسي Alfred Kinsey

من بين الستة عشر كتابا التي تضمنها القائمة النهائية ستة مؤلفات تدخل في باب العلوم ابان المدة من ١٥٤٣ الى ١٩١٥ ، وعشرة كتب في المواد الاجتماعية في المدة من ١٥٢٣ - ١٩٢٧ . ولا شك في أن هذا التصنيف عن غير قصد اذ كان الوقع الاجتماعي للمؤلفات العلمية تاما وعميقا كالمؤلفات المذكورة في كتب المواد الاجتماعية نفسها . وكتاب « كابينة العم توم » لسز ستو ، رغم صورته الخيالية ، جدير في كل ناحية بأن يكون حجة اجتماعية .

عندما يستعرض المرء هذه الستة عشر كتابا ، المحملة بالحركة ، يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل عملت العصور الكتاب أم ان العكس صحيح ؟ أي هل كان كتاب معين ذا نفوذ بسبب أن الزمن كان مستعدا له ؟ هل يمكن أن تكون لهذا الكتاب نفس الأهمية في عصر آخر ، أو هل يمكن أن يكتب في أي تاريخ آخر ؟ وانه ليتعذر الهروب من استنتاج أن

الازمنة انجبت الكتاب ، في كل ناحية تقريبا الا انه
ما كان بالامكان ان يؤلف هذا الكتاب في اى عصر
تاريخى آخر ، او انه اذا ظهر فما كان ليحظى بمثل
هذا الاهتمام .

بين ايدينا كثير من الامثلة : فقد وضع
ماكياڤيلى Machiavelli كتاب « الامير »
لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الاجنبى .
كانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها
التجارى والصناعى الى اقصى حدود تستطيعها ،
عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب « ثروات الامم » .
كما ان كتاب « الادراك العام » مؤلفه توماس بين ،
قد اشعل نار الثورة الامريكية التى كانت ناضجة
للالفجار في اى وقت . كذلك فعل كتاب « كابينة
العم نوم . » تأليف هاريت بيتشرستو ، للحرب
الاهلية . ولولا الاحوال القاسية السائدة في الصناعة
لاوربية ولاسيما نظام المصانع الانجليزية في منتصف
القرن التاسع عشر ، لنقصت ذخيرة كارل ماركس
لتأليف كتابه « رأس المال » .

أوحى كتاب « اثر القوة البحرية على التاريخ »
تأليف - أمير البحر ماهان Mahan بتكوين
تجانس بحرى بين القوى العالمية بعد عام ١٨٩٠ .
غير ان ضغط مغامرة التوسع والاستعمار ، كان
موجودا من قبل . ولولا الفوضى التى سادت المانيا
في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، لبقى هتلر مبيض
بيوت نمساوى غير معروف .

ومن ناحية أخرى ، وكما هي الحال في الكبسولات البطيئة المفعول ، هناك كتب لم تحدث تأثيرها الكامل إلا بعد سنوات من نشرها . فمثلا كان آدم سميث و كارل ماركس في عداد الاموات عندما ادرك العالم أهمية كتابيهما . ومضى نصف قرن على موت ثورو عندما طبق المهاتما غاندى في الهند وجنوب أفريقيا ، مذهبه الداعى الى العصيان المدنى . ولولا قيام المدرسة الالمانية لسياسة التوسع الجغرافى ، ما لقيت نظريات ماكسندر التى صاغها قبل ذلك بعشرات السنين ، ما لقيت الاهتمام الذى تستحقه . وهذه أسماء بعض رواد المفكرين الذين عرفوا الفشل فى أوائل مؤلفاتهم ، وقيام تلك المؤلفات باستجداء القراء .

يتردد فى القطاع الخلفى من الذهن سؤال عندما يتأمل المرء قائمة الكتب المختارة ، ألا وهو : كيف يمكن قياس التأثير ؟ وكما سبق أن قلنا ، كان الهدف هو اختيار الكتب التى يمكن الحكم على آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة أو الافعال . أى أنها يجب أن تكون قد مارست علاقة مباشرة بتغيرات إحداث معينة . وكثيرا ما حاول كتاب ما ايجاد حل لبعض المشاكل فى مجال محدد فى فترة معينة . ولما كانت أمثال هذه الكتب تتناول أمورا زمنية وموضوعية ، فأنها تميل الى أن يجرى عليها القلم بسرعة أكثر مما يجرى على الكتب الدينية أو كتب الفلسفة أو الأدب .

والمقياس القريب الصحيح لمدى التأثير هو قوة

العاطفة المعاصرة الميالة الى تلك الكتب او المعارضة لها . فاذا اثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا مماثلا من التأييد لوجهة نظره ، فالاحتمالات انه قد أثر تأثيرا عميقا على تفكير الناس . كما أن الرقابة الرسمية والجهود الأخرى المناوئة ، ايجابية في مفهومها . والنظرة الداخلية الى مثل هذه الانفعالات تمدنا بها بعض المصادر مثل الصحف المعاصرة ونشرات الأدب الجدلي ومذكرات المؤرخين والدراسات البيوجرافية . والاختبار القاسى هو ما اذا كانت النظريات او البرامج او الافكار والمدافعون عنها ، تحظى بالقبول نهائيا او لا تحظى به ، وهل تعبر الحدود الدولية وتترجم الى اللغات الأخرى وتعمل على خلق التلاميذ والأنصار والمحاكين والمناقسين ، وتندمج تدريجيا في حياة الناس والأمم وفي افكارهم .

من مظاهر الشهرة الغريبة تكرين صفات ومصادر صناعية من الأعلام لوصف فكرة معينة او نموذج معين او رأى بعينه وهكذا تضاف هذه الكلمات والمصطلحات الى مجموعة الألفاظ اليومية ، مثل : الماكيافيلية Machiavillian والكوبرنيكية Copernician والمالثوزية Malthusian ولينوتونية Newtonian والفرويدية Freudian والداروينية Darwinian والماركسية Marxism والهتلرية Hitlerism . ليدل كل منها على مجموعة معينة من الافكار ويقرر شهرة بعض الفضائح في نموذجها الاصلى ، وهذا يتوقف على وجهة النظر . وبالنظر الى الصعوبة القصوى في امكان قراءة

معظم عناوين قائمة الاختيار يمكن السؤال عن هذا الأمر بطريقة معقولة منطقية : كيف يمكن لهذه المؤلفات أن تحدث تأثيراً على أى فرد عدا عددا محدودا من الاخصائيين ؟ وبالطبع ، يستطيع نفر قليل من العوام أن يفهم ويتابع بسهولة أصول النصوص اللاتينية لمؤلف كوبرنيكوس أو هارفي أو نيوتن ، أو نظريات أينشتين بأية لغة . بينما لا أحد غير العالم الاجتماعى المدرب ، يستطيع ان يستوعب تماما البراهين اللتوية ، فى أغلب الأحوال ، لمؤلفات آدم سميث أو مالثوس أو ماركس . أما علم الأحياء فىقوى فهم مؤلف لهابي أو داروين أو فرويد . ونجيب على ذلك السؤال بقولنا ان سواد الناس يحصلون على أفكار سبق هضمها بواسطة عملية تمحيص عن طريق وسيلة ما مثل الثقافة الشعبية فى صورة كتب أو مجلات أو صحف أو دروس مدرسية ومحاضرات عامة ، وحديثا عن طريق الراديو والتلفزيون والسينما . ولولا الإدراك العام ما لقي أى كتاب من الستة عشر كتابا المختارة اقبالا فى عصره اكثر من « كابينة العم توم » و « نضالى » . وبناء على ذلك نتج تأثيرها من تفسير الخبراء . وكثيرا ما يحدث التطبيق العملى فى الحياة اليومية دون معرفة واعية من الناس عموما ، مثال ذلك ، اكتشافات نيوتن الميكانيكية ، أو نظريات اينشتين ، فيما يختص بتفتيت الذرة والطاقة الذرية .

عندما يستعرض المرء الستة عشر كتابا بحسب ترتيبها التاريخى ، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف - حلقة الاتصال التى تربطها معا . حقيقة ، لقد عبر

من هذا هتشينز Hutchins بقوله : يوجد هنا تقدم « المحادثة العظمى » . وقد أخذ كوبرنيكوس الإيحاء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيوتن بدوره ، «وقف على اكتاف العمالقة» — كوبرنيكوس وجاليليو Galileo وكبـلر Kepler وغيرهم . وبدونهم ما كان لأينشتين أن يوجد اطلاقا . أما داروين فقد أعلن في صراحة أنه مدين الى عدد كبير من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس هذا ، وان استخدام معمل التجارب في العلوم ، على نقيض البرهنة الفلسفية انبثقت ، يمكن أن يقال أنه بدأ بكوبرنيكوس ، ومارسه جميع عظماء من جاءوا بعده ، ومنهم هارفي ونيوتن وداروين وفرويد .

ان الولع بالحرية ، الذي هو طبيعة لازمت الإنسان طول حياته ، ليمثل في الاحتمالات المثيرة لكل من ماكيافيلي وآدم سميث وبين وثورو وستو . وسج كارل ماركس ، بشدة ، على منوال علماء الاقتصاد الانجليز الكلاسيكيين ، وخصوصا آدم سميث ومالثوس وريكاردو Ricardo وحاول تكوين مؤلفه على غرار مؤلف داروين . وكان مؤلف ماهان الذي عنوانه «اثر القوة البحرية على التاريخ» ، في الأصل ، مؤلفا ثانويا اتخذ مصادره مما كتبه قدامى المؤرخين البحريين والحربيين والعموميين .

وعلى الرغم من أن ماكندر ، ومن بعده ساسة التوسع الجغرافي ، لم يوافقوا على استنتاجات ماهان ، فانهم وجدوا أفكاره مثيرة ومؤثرة . وقد

اقتبس هتلر في كتابه « نضالي » كثيرا من ما كيا فيلي وداروين وماركس وماهان وماكندر وفرويد ، سواء كان هذا الاقتباس يوعى منه أو عن غير قصد .

يمكن اضافة بعض تعليقات معينة على الكتب المختارة وعلى مؤلفيها . هل تحاشى هؤلاء الميول الطبيعية الفاضية بأن يؤثر كل منهم وطنه أو لغته ، مثلا ؟ من المحتمل أن يكون الجواب بالنفي . تضم القائمة أربعة أمريكيين هم : بين وثورو وستو وماهان، وستة بريطانيين هم : هارفي ونيوتن وسميث ومالثوس وداروين وماكندر . كما أن هناك ثلاثة من الالمانيين هم : ماركس واينشتين وهتلر ، وواحدا إيطاليا هو ما كيا فيلي وآخر بولنديا هو كوبرنيكوس وثالثا نمساويا هو فرويد . ومن بين المؤلفين الستة الأوروبيين (من القارة نفسها غير البريطانيين) ثلاثة يهود . وإذا كان واضح هذه القائمة أحد الصينيين أو الفرنسيين أو الروس ، فلا شك في حدوث تحيز ما في اتجاهات أخرى .

هناك نقطة أخرى جديرة بالنقد ، وهي تعريف الكتاب : ما هو الكتاب ؟ وهل يمكن الحكم عليه بحججه وحده ؟ هذه فكرة خيالية ، ومع ذلك فلو راينا الدقة في التعريف فان « الإدراك العام » لبين و « العصيان المدني » لثورو و « المحور الجغرافي للتاريخ » لماكندر والحقيقة الاصلية لنظرية اينشتين الخاصة عن النسبية ، ليست أكثر من نشرات . والواقع أن الثلاثة الكتب الأخيرة ، ظهرت أول ما ظهرت كمقالات دورية . فيأله من تناقض بين

هذه وبين المجلدات الضخمة ، أمثال « مبادئ الرياضيات » و « ثروة الأمم » والطبعات الأخيرة من كتب مالثوس عن السكان ، ورأس المال ، ونضالى . وقد ذكر ان فولتير Voltaire قال انه ما حدث فط ان الهبت الكتب الكبيرة حماس امة . « ان الكتب الصغيرة دائما ، المحشوة بالعواطف والتي تنأجج حماسا هي التي تقوم بالعمل » . وفعلا ، تنطبق هذه العبارة على بين وثورو ولا تنطبق على ماكندر ولا اينشتين . والواقع ان الحجم ليس بذي بال لأجل هذه القائمة الحالية .

والزمن الذى يقضيه المؤلف فى تأليف الكتاب أمر جدير بالاعتبار . ومن الجلى أن كوبرنيكوس قد ضرب الرقم القياسى فى هذا المضمار اذ استغرق أكثر من ثلاثين عاما فى تأليف كتابه De Revolutionibus ولو أنه لم يشغل نفسه باستمرار فى تأليفه . ومن منا يود أن يقول ان الرسائل الكوبرنيكية مؤلفات أكثر عمقا من «مبادئ الرياضيات لنيوتن» ، التي أتمها فى مدة ١٨ شهرا ؟ وبمصادفة غريبة استغرق تأليف كل من «ثروة الأمم» لأدم سميث ، وأصلل الاجناس لداروين ، و «رأس المال» لاركسر سبعة عشر عاما . ومن ناحية أخرى ، خرج كتاب «الأمير» لماكيافيللى فى ستة شهور ، و «الادراك العام» نيين فى حوالى ثلاثة او أربعة اشهر .

يمكننا أن نعزو الاختلاف السابق بين مدد التأليف الى عدة عوامل . فاختلاف شخصية كل مؤلف عن شخصية الآخر مسئولة عن بعض هذه

الاختلافات . وقد رفض بعض علماء الطبيعة أمثال كوبر نيكوس ونيوتن وهارفي وداروين الاسراع في طباعة مؤلفاتهم حتى يتحققوا تماما من صحة اكتشافاتهم واخبارها اختبارا قاسيا . وحتى بعد ادق الاختبارات القاسية ترددوا في نشرها خوفا من المجادلات والرقابة القوية لزملائهم العلماء ، ومقتهم عرضها على الجماهير ، او ما شابه ذلك من الاسباب . وقد تضمنت مقالات سميث وماركس الاقتصادية : ضياع الوقت وتجميع كميات كبيرة من المعلومات ، والمراجعة الضخمة ومن جهة أخرى ، كان لدى المؤلفين المنهزمين ، أمثال ماكيافيلي ومالثوس الشباب وبين وثورو رسالات عاجلة يجب إصدارها دون تأخير .

الغالبية العظمى من الستة عشر مؤلفا المختارين معروف عنهم أن كلامهم وضع كتابا واحدا فحسب . وباستثناء قلة قليلة ، تركز شهرة الباقيين على عنوان واحد مع اهمال ماعداه . كتب هارفي ونيوتن وسميث مالثوس وماركس وستو وماهان وايتشتين كتبا أخرى . وفي بعض الأحوال ، كان بعضهم كثير التصانيف ، ولكن من يمكنه أن يذكر أسماءها سوى قلة من الاخصائيين ؟ اما بين وثورو وداروين وفرويد فيستثنون من هذه القاعدة لأن أقلامهم الخصبة أنتجت كتبا أخرى اشتهرت بطريقة ما كما اشتهرت هنا في قائمتنا .

قد تستطيع بعض المذكرات البيوجرافية ابداء مظاهر أخرى لاخلاق المؤلفين وشخصياتهم . فهل للمركز الزواجي مثلا ، أثر هام في خلق مؤلف رائع يبدئ كل ما عداه ؟

كان كوبرنيكوس راهبا ، كما لم يتزوج كل من نيوتن وسميث وثورو وهتلر . وتزوج كل من هارفى وماهان وماكندر وبين ولكنهم لم ينجبوا اطفالا . وباء زواج بين مرتين بكارثة فى كل مرة . وكان لمالثوس ثلاثة اولاد ، كما كان لاينشتين طفلان . تزوج مالثوس مرة واحدة واينشتين مرتين . ولم يكن كل من ماكيافيللى وداروين وستو وماركس وفرويد ازواجا مخلصين فحسب ، بل وانجبوا أسرانا كبيرة . بيد ان المرء يتردد اخيرا فى استخلاص اية حقائق من هذه الامور .

قد يظن البعض ان السن وبلوغ الرشدا ضروريان لمؤلف كتاب عظيم . وما صلة هذين الامرين ، حقا ؛ بالستة عشر مؤلفا المختارين ؟ عندما خرجت الطبعة الاولى لكل من هؤلاء ، من المطبعة ، كان اكبرهم سنا هو كوبرنيكوس ، اذ كان فى السبعين ، واصغرهم اينشتين الذى كان فى حوالى السادسة والعشرين . وكان مالثوس وثورو فى اوليات الثلاثينات . اما بين وهتلر فكانا فى اواخر الثلاثينات . كانت فترة السنوات العشر ما بين ٤٤ - ٥٤ هى اخصب فترات العمر انتاجا ، اذ كان فى هذه المرحلة كل من المؤلفين ، ماكيافيللى وفرويد ونيوتن وماركس وماهان وداروين وهارفى وسميث (فى ترتيب تصاعدى اى من الاصغر الى الاكبر) . وكان كل من ستو وماكندر فى اوائل الاربعينات .

وخلاصة هذا ، هناك خصائص معينة يشترك فيها معظم المؤلفين ، تبدو واضحة . وباستثناء علماء

الطبيعة الذين تضمهم القائمة . والذين يكون التعليق
اقل مناسبة لهم . فالكتب التي تضمها القائمة ،
كتبها أشخاص غير تابعين للكنيسة ، وأشخاص
متطرفون ومتعصبون لدينهم ، ونوريون ومثيرون
للاضطرابات . وغالبا ما تكون كتب هؤلاء رديئة
التأليف تعوزها المسحة الأدبية . ونعود فنكرر قولنا
بأن سر نجاحهم هو ان الزمن كان ملائما وعلى
استعداد لهم . حملت كتبهم رسالات ، كانت في
أغلب الاحوال كثيرة العاطفية ، يتوسلون فيها الى
ملايين البشر . وفي بعض الأحيان كان النفوذ للخير ،
كما كان أحيانا أخرى للشر . ومن الجلي أن الكتب
يمكن أن تكون قوى لكل من الخير والشر . وعلى أية
حال ، ليس الغرض هنا قياس القيم الأخلاقية ، بل
لتوضيح ان الكتب أدوات او أسلحة حركية وقوية .

عالم الإنسان

١ - تشريح سياسة القوى

« نيقولو ماكيافيلي » - « الأمر »

طلت الماكيافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقة في ذهن العالم على أنها مرادفة لشيء شيطاني وخائن ونذل وقاس وخبيث . كان أبو هذا المصطلح ، نيقولو ماكيافيلي ، رمزا شهيرا للسياسي المتآمر والمكار والمنافق المجرى من الأخلاق والعديم المبدأ تماما والمستهتر ، الذي تنحصر كل فلسفته في أن « النهاية تخلق الوسيلة » . وقد اعتقد العالم أجمع أن أرقى قانون لماكيافيلي هو الملاءمة السياسية . وفي انجلترا القرن السابع عشر ، كان « أولدنيك » Old Nick كنية متبادلة بين كل من ماكيافيلي والشيطان . أما من دفاع لهذا المتهم أم إن هناك ظروفًا مخفية ؟ تعتمد شهرة ماكيافيلي السيئة ، اعتمادا كليا تقريبا ، على كتاب واحد هو « الأمر » الذي كتبه في سنة ١٥١٣ ، ولكنه لم ينشر الا في سنة ١٥٣٢ بعد وفاة مؤلفه بخمسة أعوام . ما من

كتاب يمكن ان يفصل عن العصر الذي كتب فيه ، هذه حقيقة لا يمكن توضيحها توضيحا مناسباً بأكثر مما يوضحها كتاب « الأمير » . ومع ذلك ، فهو ككل كتاب عظيم ، يضم دروساً لجميع العصور .

لا نعرف سوى القليل عن حياة ماكيافيلي قبل عام ١٤٩٨ عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره وزيراً لجمهورية فلورنسة Florence خدم حكومة هذه المدينة لمدة ١٨ سنة ، وذهبت به المهام الدبلوماسية الى توسكاني Tuscany ثم عبر جبال ابنين Apennine الى روما ، وبعد ذلك الى ما وراء جبال الألب Apls وتعرف على الكونتيسة كاترينا سفورز Caterina Sforza وباندولفو ستروتشي Pandolfo Petrucci طاغية سينا Siena وفرديناند الأرجوي Ferdinand of Aragon ولويس Louis الثامن عشر ملك فرنسا ، والامبراطور ماكسيميليان Maximilian والبابا يوليوس Julius الثاني ، وسيزار بورجيا Cesare Borgia لم يكف التشاحن السياسي بين فلورنسة ودويلات المدن الأخرى بيزا Pisa وميلان Milan و نابولي Naples ، بل ظل قائماً لا ينقطع . وكانت السياسة في ذلك العصر فاسدة بطريقة لا تصدق . وكان ماكيافيلي ، الطالب الداهية في دراسة الطبيعة البشرية ، في حداثة عهده بالسياسة ، وفي عدة مناسبات أبدى مقدرة ومهارة في انجاز المفاوضات الصعبة . وبعد ذلك بنى واقعته وسخرته من الأمور السياسية ، دون ما شك ، على المران ، لأنه تعلم ألا يكثرث لأى باعث غير الجشع والأناية .

أصاب ماكيافيلي دووة في عجلة الحظ على يد اسبانيا ، فقد أطاح الميديكيون Medicis بالجمهورية واستعادوا

حكمهم في فلورنسة . ففصل ماكيافيلي وسجن وعذب ، واخيرا نفى الى ضيعته الريفية الصغيرة بالقرب من سان كاسسيانو San Casciano حيث بقي محدد الإقامة حتى موته في سنة ١٥٢٧ ، باستثناء فترات قصار . فكان يقضى وقته خلال تلك السنين الطويلة (في نظره) الخاملة ، في تأليف كتب «الأمير» و « المحادثات » و « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسة » وتتناول كلها ، بصفه مبدئية ، السياسة القديمة والمعاصرة .

من الصعب اكتشاف اية عاطفة في طبيعة ماكيافيلي فيما يختص بالشئون العامة ، ولكنه كان يحس بتأثر عميق تجاه أمر واحد . كان وطنيا أصيلا مع شوق حماسي لأن يرى إيطاليا دولة قوية متحدة . وربما كان ملاحظا باردا وموسوسا ، ورجلا ماجنا صافي العقل ، حتى ناقش الوحدة الإيطالية ، ثم أوحى اليه بالحماس والغصاحة والحرارة والحيوية . وقد كانت حال إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر في بؤس شديد يثير أشجان أى شخص وطنى الى درجة البكاء .

كان هناك تغير هائل ، سياسى واقتصادى ولاهوتى في طريقه الى إيطاليا ايام ماكيافيلي . وفي كل مكان باجلترا وفرنسا وأسبانيا ، بعد نضال مرير طويل حدثت الوحدة القومية . أما في إيطاليا ، فان فكرة التنظيم القومى او الفيدرالى ، لم تكن معروفة . حكمت تلك الدولة خمس وحدات سياسية عظمى هي : ميلان وفلورنسة والبندقية Venice ودولة الكنيسة ونابولى . وكانت البندقية اكبرها واقواها . فكان تعدد الأقسام السياسية مصدر ضعف مستمر لإيطاليا ، ومن الناحية العملية ، أدى الى الدسائس الأجنبية والتدخل الأجنبى . بدأت الغزوات بواسطة شارل الثامن ملك فرنسا في عام ١٨٩٤ ، وبعد بضع سنوات من تقهقره ، اتفق لويس السابع وفرديناند ، ملك أراجون

على اقتسام مملكة نابولي فيما بينهما . وأرسل الامبراطور ماكسيميليان قواته لغزو البندقية . كما كانت جيوش من المانيا وسويسرا وفرنسا واسبانيا تسير في الاراضي الايطالية وتحارب عليها .

وفي تلك الأثناء كانت المعارك الخاصة والضغائن الشعبية والسراقات والقتل متفشية في البلاد وحاربت جمهورية جمهورية أخرى ، كل منهما تغار من الأخرى ، وعجزت الجمهوريات تماما عن تكوين جبهة عامة في مواجهة الأعداء الأجانب . ولما كانت الكنيسة في أسوأ فترة في تاريخها ، وتخشى قيام منافس لقوتها الدنيوية ، فانها فضلت التفرق على الاتحاد لاطاليا .

ربما ادرك ماكيافيلي الخطر الذي يهدد ايطاليا ، أدركه بوضوح أكثر مما أدركه أى رجل آخر في عصره . كان يفكر في مقر تقاعده الاجبارى ، وفي الشرور التى نزلت بوطنه الحبيب ، فاقنع بأن الأمل الوحيد فى الخلاص يكمن فى وجود قائد عظيم - قائد بالغ القوة والجرأة يفرض سيطرته على الدويلات الايطالية ويدمجها فى امة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها وطردها الأجانب المقوتين من البلاد . أين يمكن العثور على مثل هذا القائد ؟ كان « الأمير » هو فكرة ماكيافيلي عن نوع القائد المطلوب ، وصورة تفصيلية للطريق الذى يجب عليه أن يتبعه لتحقيق النجاح .

رغم ان « الأمير » مكرس الى لورنوزدى ميديكى Lorenzo de Meedici حاكم فلورنسة الجديد ، فان بطل الكتاب هو سيزار بورجيا Cesare Borgia ابن السانا الكسندر السادس ، وكاردينال فى السابعة عشرة ، وقائد حربى قدير ، وهازم رومانيا ودكتاتور قاس لا يعرف الرحمة . أرسل ماكيافيلي رسولا الى بلاطه فى سنة ١٥٠٢ ، وكما علق ليفنز Nevins : « رأى باعجاب كيف تبادل بورجيا استخدام

الحذر والدهاء ، في مهارة ، وكذلك الألفاظ المسولة والأعمال الدموية . وكيف استخدم ببرود الغدر والنفاق . وكيف استعمل الإرهاب في وحشية لاستمرار اخضاع من دحرمهم ، وكيف يقبض بطغيان على البلاد التي يحتلها » .

وإذ مارس سيزار ازدواج الشخصية والقسوة وعدم الثقة ، نال النجاح الباهر ، ولكنه كان نجاحا مؤقتا . كان ماكيافيلي وطنيا غيورا يميل الى النظام الجمهوري ، ولكنه لما اختبر حال إيطاليا الثائرة والمؤسفة اقتنع بأن رجلا مثل سيزار بورجيا هو القائد المثالي لانهاء حالة الفوضى تلك .

وهكذا أوحى اليه نظرتة الى أمة موحدة ، بالحماس الوطني . وإذ كان عالما باحتياجات الساعة الحرجة وواعيا للفرصة الذهبية الماثلة أمام الحاكم الجديد ، وجه كل نشاطه وحماسه الى تأليف « الأمير » فكتبه في الشهور الستة الأخيرة من عام ١٥١٣ ، وبعد ذلك بوقت ما ، قدمه الى بلاط لورنزو مع اهداء المؤلف : « لما رأيت أنه ليس في المقدر تقديم هدية أفضل من اسداء فرصة الفهم في أقصر وقت ، فأننى أقدم كل ما تعلمته في تلك السنين العديدة وسط الكثير من المتاعب والأخطار » .

الهدف الأساسي من « الأمير » هو أن صالح الدولة يحقق كل شيء . وهناك عدة مستويات مختلفة من الأخلاق في الحياة العامة والحياة الخاصة ، إذن فمن اللائق بالسياسي ، تبعا لهذا المذهب ، أن يقوم ، من أجل صالح الشعب ، بأعمال العنف والخداع التي تستحق اللوم وتوصف بالاجرام في المعاملات الخاصة . ولذلك فصل ماكيافيلي الأخلاق عن السياسة .

« الأمير » كتاب مرشد للامراء (أو كما قال البعض ، انه كتاب ضروري للطفلة) ليعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحفظون بها - سلطة ليست لصالح الحاكم وإنما هي لخير

الشعب كى يزودهم بحكومة مستقرة آمنة من الثورة والغزو .
فبأية وسائل يمكن الحصول على الاستقرار والأمان ؟

وبغض النظر ، قليلا ، عن الملكيات الوراثية لافتراض أن للحاكم سداد رأى وذكاء عاديين ، فيمكنه الاحتفاظ بالسيطرة على الحكومة . ومن جهة أخرى ، فان مشكلة الملكية الجديدة مشكلة معقدة . فاذا كانت الأراضى المهزومة حديثا من نفس جنسية ولغة الدولة الغالبة كالحكم سهل نسبيا ، وخصوصا اذا اتبع مبدعان : « أحدهما استئصال دم سلسلة نسب الامراء السابقين ، والثانى عدم أحداث أى تغيير فى القوانين أو فى الضرائب » .

« أما اذا احتلت الأمم دولة تختلف لغتها وعاداتها وقوانينها عن لغة وعادات وقوانين الأمم المضمومة ، فالصعوبات تتضاعف ويقتضى التغلب عليها حنظا وادارة عظيمين» . ويستطرد ماكيافيلى قائلا ان من الوسائل الممكنة للسيطرة عليها ، أن يذهب الحاكم ويسكن شخصا فى المنطقة المحتلة ، ويرسل اليها مراكز استعمار (أقل نفقات من الاحتفاظ بجيوش الاحتلال) ، وأن يصادق الجيران الأضعف ، ويحاول أضعاف الجيران الأفوى . وعندما أهمل لويس الثانى عشر هذه القواعد الأساسية منى بالهزيمة والخسائر فى غزواته .

وفيما يختص « بكيفية حكم الأقسام الادارية » ، يقدم ماكيافيلى ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دولة اعتادت « أن تعيش بحسب قوانينها وفى حرية : الأولى تدميرها ، والثانية الذهاب اليها والاقامة فيها شخصا ، والثالثة قبول أن تعيش تبعا لقوانينها وارغامها على دفع الجزية ، وأن يعهد بحكومتها الى فئة قليلة من سكانها يمكنهم المحافظة على صداقة الباقين لك » . وأكثر هذه الاختبارات أمانا هى الطريقتان الأوليان .

ورغم هذا ، فاذا اعتادت مدينة أو محافظة احتلت حديثا أن تعيش تحت حكم أمير استئصلت ذريته ، فمن المستحيل على المواطنين الذين تعودوا أولا أن يطيعوا ، وثانيا جردوا من حاكمهم القديم ، أن يوافقوا على اختيار حاكم من بينهم . وبما أنهم لا يعرفون كيف يعيشون أحرارا ، يبطئون في التسليح ، وهكذا فمن السهل على شخص أجنبي أن يطويهم تحت سلطانه ويضمهم الى صالحه .

وإذا ناقش ماكيافيلي ، بعد ذلك « الإمارات الجديدة » ، فإنه حذر يقول : « يجب أن يوضع نصب العين أن طباع الجماهير متقلبة ، وبينما يكون من السهل اغراؤهم على قبول شيء ، فإنه يصعب جعلهم يثبتون على ذلك الاغراء . لذلك يجب تنظيم الأمور هكذا ، إذا لم يؤمن الناس طوعا ، وجب اجبارهم على الايمان بالقوة » .

بعد ذلك يشرع المؤلف في تقريظ وتمجيد حياة سيزار بورجيا على أنه القائد القوي الفذ البأس ، معتبرا عن الفدر والاعتتيال .

« عندما أتذكر جميع أعمال الدوق ، لا أعرف كيف ألومه ، ولكن ، بدلا من ذلك ، يسدو لي .. أنه يجب على أن أقدمه نموذجا يحاكيه جميع من يرفعهم الحظ أو تسمو بهم أهداف غيرهم الى منصب الحكم . لأنه ، إذا كان ذا روح عالية وطموح بعيد المدى ، ما كان لينظم سلوكه بطريقة أخرى .. ولذلك يجب على من يعتبر أنه من الضروري له أن يثبت نفسه في دولته الجديدة ، أن يعمل على كسب الأصدقاء ، وإن يتغلب اما بالقوة واما بالغش ، وأن يجعل نفسه محبوبا ومرهوبا من الناس ، وأن يجعل الجنود يسيرون وراءه ويحترمونه ، ويستأصل شافة كل من كان ذا قوة أو عقل يمكنانه من الحاق الأذى به ، وأن يغير

النظام القديم بأنظمة جديدة ، وأن يكون قاسيا وخيرا وسامى العقل وحرًا ، ويحطم العسكرية غير الوفية ، ويخلق عسكرية جديدة ، ويحافظ على صداقة الملوك والأمراء بطريقة تحتم عليهم مساعدته فى حماس ، والاساءة مع الحذر ، ولايمكنهم أن يجدوا مثالا أكثر حيوية من أعمال هذا الرجل .

أما من اغتصب دويلة ، « فيجب عليه الاسراع بانزال الاضرار التى يجب عليه انزالها بضربة واحدة ، لئلا يضطر الى تجديدها يوميا ، وانما يتمكن بعدم استمرارها من طمأنة عقول الناس ، وبعد ذلك يكسبهم الى جانبه بالمنافع . . . يجب منح المنافع قليلا قليلا حتى يمكن التمتع بها كاملة . »

ليس خوف العناب الا احدى الوسائل التى يستعملها الملك الحكيم فى حكم رعاياه .

من الضرورى للامير أن يكون على صلة صداقة بشعبه ، والا لما وجد اى مصدر للمساعدة فى وقت الشدة . . ولايذكر لى احد المثل القديم : « من بين على الشعب بين على الرمال » . لان هذا المثل ينطبق على المواطن الخاص الذى يعتمد على مصالحه مع الشعب ويعمل حسابه على أن ينصروه اذا هزمه أعداؤه أو الحكام . أما الامير الجريء القادر على الامر ، والذي يعرف كيف يحافظ على النظام فى دويلته ، فلن يندم قط على تأسيسه امنه على محبة الشعب .

وفى تناواه للامارات الكنسية ، اى التى تحت حكم الكنيسة مباشرة ، خصها ببعض من أكثر ملاحظاته ايداء وتهكما .

تعال هذه الامارات بالاحقية أو بحسن الحظ ويحتفظ بها بدون اى واحد منهما ، وسيطر عليها بأوامر دينية محترمة ، كلها من النوع والاثر اللذين يضمنان سلطة امرائهما بأية طريقة

يعملون أو يعيشون بها . ان هؤلاء الأمراء وحدهم لهم دويلات لا يدافعون عنها ورعايا لا يحكمونهم .

يتهم مكيافيلي الكنيسة هنا وفي كل موضع مما كتبه في بداية القرن السادس عشر ، بأنها لم توحد ايطاليا ضد الاجنبي كان يريد فصل الكنيسة تماما عن الحكومة .

ولما كانت الحكومة القوية تحتاج الى جيش عظيم فقد اعتبر مكيافيلي الشئون الحربية على أقصى ما يكون من الالهمية ، وخصص مساحة واسعة لهذا الموضوع . وقد اعتادت معظم الدويلات الإيطالية في عصره ان تستخدم الجنود المرتزقة ، ومعظمهم من الاجانب ، للدفاع عنها . فقرر مكيافيلي ان مثل هذه القوات « عديمة النفع وخطرة » وان الجيش القومى المكون من المواطنين أكثر فاعلية ويعتمد عليه أكثر من المرتزقة . ولما كان البقاء القومى يتوقف على قوة الجيش ، ولجّب على الامير الحاكم ان يعتبر الأمور العسكرية المادة الأولى لسياسته وشغله الشاغل .

كرس مكيافيلي عدة ابواب من مؤلفه لسلوك الامراء — سلوكهم الخاص في مختلف الظروف .

هناك اختلاف كبير بين الطريقة التى يعيش بها الناس والطريقة التى يجب ان يعيشوا بها . ومن الضرورى للامير الذى يريد المحافظة على مركزه ان يتعمق كيف يتصف بشيء آخر غير الطيبة ، وان يستعمل طبيئته او لا يستعملها حسب مقتضيات الاحوال . . . يعترف كل من أعرفه بأنه يجدر بالامير ان يكون موهوبا بجميع الصفات المعتبرة حميدة ، ولكن بما أنه من المستحيل ان يتصف بكل هذه الصفات جميعا . . . يجب عليه ان يكون حاذقا بما فيه الكفاية بحيث يعرف كيف يتحاشى مثالب تلك الرذائل التى يمكن ان تجرده من الحكم .

يجب على الامير الا يهتم بأن يشيع عنه البخل وهو ينفق ما يخصه وما يخص رعاياه أو ما يخص الآخرين . . يجب أن تنفق بسخاء مما لا يخصك أو يخص رعاياك . . . لأن حرية التصرف في ملكية الغير (التي يحصل عليها بالغزو) لا تنقص من سمعتك بل تزيدها . وأن ما يضررك هو أن تنفق مما يخصك . وما من صفة مدمرة مثل حرية الانفاق . فعندما تمارسها تفقد الوسيلة التي تمارسها بها وتصير فقيرا محتقرا ، والا فلكي تتحاشى الفقر تغدو جشعا وممقوتا .

يجب أن يعتبر الامير القسوة احدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم «لأن من يجمع الفتن ببضعة اجراءات فورية يكن في النهاية اكثر رحمة ممن تبلغ به الطيبة أن يترك الامور تجرى في أعنتها ، فينتج عن ذلك ، الاغتصاب وسفك الدماء . لان هذه تفسد الدولة ، كما تفسد القسوة الافراد » .

يقول ماكيافيلي في فقرة شهيرة :

من هنا ينشأ هذا السؤال : هل الافضل أن يحب المرء اكثر مما يخاف ، أو يخاف افضل مما يحب . قد تكون الاجابة أننا نرغب في كليهما : ولكن بما أن الحب والخوف قلما يجتمعان معا ، فاذا وجب علينا أن نختار بينهما ، فمن الاكثر امانا أن نخاف افضل من أن نحب . اذ تؤكد عموما أن الناس ناكرون للجميل ومتقلبون وخائنون وبعمليون كل ما في طاقتهم لتجنب الخطر ، وجشعون يتكالبون على الربح ، يقفون الى جانبك طالما كان في وسعك أن تغدق عليهم المنافع ، وعلى استعداد للتضحية بدمائهم اذ كان الخطر بعيدا كما يضحون بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم من أجلك والخطر كذلك ، حتى اذا ماجاء وقت الجذ اداروا نك ظهورهم .

هذه سخريه بحتة ، ولو أن ماكيافيلى يستنتج تقدربه للمحبة فى مقابلة الخوف ، فينصح الامير بأن « يعمل قصارى جهده لتحاشى الكراهية » .

ما من قسم من كتاب « الأمير » ادين واحترق أكثر من البسبب الثامن عشر» . «كيف يحتفظ الامراء بالثقة» . وتنصب مساوىء استخدام المصطلح «ماكيافيلية» على هذا القسم أكثر مما تنصب على بقية الكتاب كله . ويوافق المؤلف على أن المحافظة على الثقة جدرة بالثناء . أما الخداع والنفاق وشهادة الزور فضرورية ومغتفرة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية .

هناك طريقتان للنضال . احدهما بحسب القوانين ، والاخرى باستخدام القوة . الاولى مناسبة للبشر ، والثانية للوحوش . ولكن بما أن الطريقة الاولى كثيرا ماتكون غير فعالة ؛ فيقتضى الأمر الالتجاء الى الثانية . وعلى الأمير أن يفهم جيدا كيف يستعمل كلتا الطريقتين : طريقة البشر وطريقة الوحوش ولكن بما أنه يجب عليه أيضا أن يعرف كيف يستخدم طبيعة الوحوش فى حكمة ، ينبغي له أن يختار من بين الوحوش الاسد والثعلب ، لان الاسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يمكنه حماية نفسه من الذئاب وأن أكثر الامراء حزما ، لا يمكنه ولا ينبغي له أن يحافظ على كلامه ، عندما يكون فى المحافظة عليه ضرر له عندما تزول الأسباب التى أوجته الى الوعد . ليست هذه مشورة طيبة عندما يكون جميع الناس من الاخيار . ولكن بما أنهم خائنون ولايثقون بك ، يجب عليك ، أنت بدورك ، ألا تثق بهم وما من أمير حار فى التفكير فى أعمار مقبولة لتغطية عدم التمسك بوعده . . . غير أن الناس يظنون ساذجين ومحكومين باحتياجاتهم الحالية ، حتى أن من يرغب فى خداعهم لا يخفق فى العثور على «مغفلين» راغبين . . . وهكذا من الخير التظاهر بالرحمة

والثقة والانسانية والتقوى والاستقامة ، وتكون هكذا ايضا ،
ولكن يجب أن يبقى العقل متزنا حتى اذا اقتضى الأمر صار فى
مقدورك وتعرف كيف تتحول الى العكس بسرعة ... يرى كل
شخص ماتظهر عليه ، ويعرف القائلون ماأنت عليه .

نصح ماكيافيللى بأنه من الضرورى للأمير أن يتحاشى كراهية
شعبه احتقارهم له . والطريقتان الرئيسيتان اللتان تسببان
كراهية الناس له هما : نهب أموال الشعب ، والتدخل فى ممتلكات
رعاياه ونسائهم ... ويحتقر الامير اذا روى متقلبا او متهورا او
مخنثا او جانا ، او مترددا . وزيادة على ذلك ، يجب على الحكام
أن يشهروا انفسهم بتوزيع الهدايا بانفسهم ، ويتركوا لرؤساء
الأقسام مسئولية توقيع العقاب ، وعلى العموم يتكون لهم ايضا
حرية التصرف العام فى كل مايشتر الحنق وعدم الرضى» ...
لاستطيع حتى أمنح الحصون أن تحمى الامير اذا كرهه الشعب .

أكد ماكيافيللى عند اسداء التعليمات للامير فى «كيفية
سلوكه» ، على أنه

يجب على الامير أن يبدو رئيسا قديرا ، وأن يكرم كل من
تفوق فى أى فن . لذلك ينبغى له أن يشجع رعاياه ويمكنهم من
مزاولة مهنتهم ، سواء أكانت تجارية أم زراعية أم غير ذلك ، فى
اطمئنان ، حتى أن ذلك الرجل لايمنع من تجميل ممتلكاته خوفا
من أن تؤخذ منه وألا يحجم آخر عن افتتاح محل تجارى خوفا
من الضرائب .

أعجب ميكيافيللى كثيرا بذكريات روما القديمة وخصوصا
النصيحة المسداة الى الامير : «يجب عليه فى المواسم المناسبة من
السنة ، أن يبهج الشعب بالحفلات والعروض» .

كان ماكيافيلي شديد الايمان بالحظ والمصير ، وربما كان ذلك وليد التفكير في اعتقاد اهل عصره في «التنجيم» ، فكتب يقول : « اظن الحال هكذا ، ان ربة الحظ سيدة نصف أعمالنا ، وتترك لنا ، نحن انفسنا ، تدبير النصف الآخر أو اقل من النصف قليلا » . كانت وجهة نظره معتدلة الخطر ، اذ كان يعتقد ان يوسع الانسان ان يسيطر ، على بعض الشيء ، على مصيره ، وأنه «من الافضل ان يكون جسورا ، من ان يكون حذرا . فالحظ امرأة ، يجب عليك ، لكى تخضعها ، ان تضربها وتعاملها بخشونة ، وترى انها تقاسى رؤية نفسها محكومة تماما بواسطة من يعاملونها اكثر ممن يعترتهم الجبن عند الاتصال بها . ودائما ، كامرأة ، تؤثر الصغار لانهم اقل تدقيقا واكثر قسوة ، ويسيطرون عليها بجرأة اعظم » .

يختم كتاب «الامير» بنصيحة لتحرير ايطاليا ، انها نداء رنان للوطنية . حان الوقت لامير جديد بطل ايطالى ما ، ان يتقدم لايطاليا في « حالة انحطاطها الراهن » الاكثر عبودية من العبرية ، والاكثر معاناة للظلم من الفارسية ، والاكثر تفككا من الاثينية ، بغير قائد وبغير نظام ، مهزومة ومنهوبة وممزقة ، وطئت وتركت للدمار في شتى صورته . . . نراها كيف تتضرع الى الله ان يرسل شخصا ينقدها من هذه القسوة البربرية والظلم . كما نراها مستعدة ومتلهفة الى ان تتبع اى علم اذا كان هناك من يرفعه » .

ويختم ماكيافيلي مراقته البليغة بهذه الكلمات :

فرصة ايطاليا الاخيرة هي انه يجب الا يفوتها ان تتطلع الى مخلصها . باى محبة يستقبل (الامير الجديد) فى جميع المحافظات التى قاست من تدفق سيل الاجانب ، وبأى تعطش الى الانتقام ، وبأى وفاء ثابت ، واخلاص ، وبأية دموع تقصر الفاظى عن التعبير عنها ، وأية ابواب سوف تقفل وراءه ؟ وأى ناس سيرفضون

طاعته ؟ وأى ايطالى لا يخضع له ويدين له بالولاء ؟ يتعمق هذا الظلم البربرى فى كل خيشنوم .

مضى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن قبل أن يتحقق حلم ماكياڤلى لتوحيد ايطاليا ورؤيتها متخلصة من الفساد والسيطرة الاجنبيين :

وزعت نسخ خطية من «الامير» ابان حياة مؤلفه ، وبعدها بعدة سنوات . . وقد وافق على نشره فى سنة ١٥٣٢ ، البابا كلمنت Clement السابع ، ابن عم الامير الذى أهدى اليه ذلك الكتاب . وطبع منه ٢٥ طبعة فى العشرين سنة التالية . ثم بدأت العاصفة تهب ، فقد أمر مجلس الثلاثين باتلاف جميع مؤلفات ماكياڤلى ، اذ اتهم فى روما بالالحاد ، وحرمت مؤلفاته فيها وفى كل مكان بأوروبا . وأحرق اليسوعيون تمثالا صغيرا له فى المانيا . وأشترك الكاثوليكيون والبروتستانت فى الدعوة ضده . وفى سنة ١٥٥٩ وضعت جميع مؤلفاته فى قائمة الكتب المحرمة .

لم تسترجع سمعة ماكياڤلى بعض أهميتها وبراءتها وتزكيتها الا فى القرن التاسع عشر . عملت الحركات الثورية فى أمريكا وفرنسا وألمانيا وفى كل مكان على تحويل الحكومات الى مدنية وفصل الكنيسة عن الحكومة . وقامت الحركة الايطالية المطالبة بالحرية ، التى وصلت بنجاح الى ذروتها فى عام ١٨٧٠ مستمدة ايحاءها من الوطنى العظيم ماكياڤلى . وقد ابان هـ . دوجلاس جريجورى Douglas Gregory فى مقال معقول ، انه باتباع نظريات ماكياڤلى ، استطاع الحاكم الايطالى الكونت كافور Cavour أن يوحد ايطاليا ويطرد الغزاة منها ، بينما لو انه اتبع أى طريق آخر لتزلت بالبلاد كارثة وأخفقت فى مساعيها .

لاينكر احد أن دكتاتورى وطفاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة في «الامير» . وان قائمة القراء المتلهفين ضخمة : أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دى ميديكى بذلك المؤلف . وحصل اوليفر كرومويل Oliver Cromwell على نسخة خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها في حكومة الكومنولث Commonwealth فى انجلترا . وكان كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيان يحمل نسخا منه عندما قتل . كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا Prussia ، واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلية المفضلة » ، ووجدت منه نسخة ذات حواش فى عربة نابليون بونابارت Napoleon Bonaparte فى ووترلو Waterloo واستمد نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب . وكان بسمارك Bismarck تلميذا مخلصا وحديثا احتفظ أدولف هتلر Adolf Hitler ، تبعا لقوله هو نفسه ، بكتاب « الامير » بجانب سريره حيث كان مصدر ايجاء مستمرا له . وقال بنيتو موسوليني Benito Mussolini : « أومن بأن كتاب « الامير » لماكيا فيلى دليل رائع للسياسى . فمذهبه اليوم حى لأنه لم تحدث تغييرات عميقة فى مدى الاربعمائة سنة فى عقول الناس أو فى أعمال الأمم » . (بعد ذلك غير موسوليني رأيه ، اذ ظهر فى سنة ١٩٣٩ اسم ماكيا فيلى فى قائمة المؤلفين ، القدامى والمحدثين ، الذين يضمهم فهرست الكتب الفاشستى ، تلك الكتب التى يحظر على أصحاب مكتبات الرومان أن يعرضوها) .

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للاحداث التاريخية أن الطفاة ، أمثال هتلر وموسوليني ، لقوا عموما نهاية مؤسفة لانهم أهملوا أو اساءوا تفسير بعض المبادئ الأساسية التى صاغها ماكيا فيلى .

اتفق دارسو مذهب ماكيا فيلى على انه لا يمكن فهم آرائه
فهما تماما الا بقراءة كل من كتابيه «المحادثات» و «الامير» . فكتاب
«المحادثات» الذى استغرق فى تأليفه اكثر من خمس سنين ،
ونشر لأول مرة فى نفس السنة التى نشر فيها «الامير» ، مؤلف
أضخم كثيرا من «الامير» . والفرق بينهما ، كما اقترح البعض ،
هو ان «المحادثات» يتناول «ما يجب ان يكون» ، بينما يتناول
«الامير» ، «ما هو» . يختص «الامير» كلية بالامارات ، اى بالدول
أو الدويلات التى يحكمها ملك واحد ، بينما يختص «المحادثات»
بالمبادئ التى يجب ان تتبعها الجمهوريات .

يخرج المرء من القراءة المقارنة لهذين الكتابين بهذه النتيجة
المدهلة ، وهى ان ماكيا فيلى كان جمهوريا مقتنعا بمبدأ الجمهورية .
لم يحب الاستبداد ، ويعتبر ان الحكومة المختلطة المكونة من
الحكومتين الشعبية والملكية هى أفضل الحكومات . وما من حاكم
نعم بالامان بغير محبة شعبه . وأشد الحكومات رسوخا هى التى
يحكمها أمراء تقيدهم حدودا دستورية . فحكم الشعب سديد فى
نظر ماكيا فيلى ، كما يلاحظ فى مهاجمته للمثل القديم : «من بين
على الشعب بين على الرمال» . وكانت حكومته المثالية هى
الحكومة الرومانية القديمة ، وكان يشير اليها دائما فى كتابه
« المحادثات » .

اذن ، فلماذا ، وقد فضل ماكيا فيلى الحكومة الجمهورية
على كل ماعداها للشعب الحر ، لماذا أنتج كتاب «الامير» ؟ ألفه
ماكيا فيلى هذا الكتاب لعصر بعينه ، ولجموعة معينة من الظروف .
ولاشك فى انه أدرك انه يستحيل اقامة جمهورية ناجحة فى ايطاليا
فى القرن السادس عشر . وضع كتاب «الامير» خصيصا لفرض
الحصول على مساعدة الناس الاقوياء لتخليص الشعب الايطالى

من تعسفهم ، وتخليص الدولة من الفساد السياسي . فاذا واجهت
إيطاليا أزمة حادة لم تلجأ إلى الأسلحة من أجل خلاصها .

والآراء المخالفة الشائعة على نطاق واسع ، والخاصة
بماكيا فيلي ، لانزال قائمة رغم الجهود المبذولة لرد الاعتبار لاسمه
والموقف الذي وصفه جوزيبي بریتسولينى Giuseppe Prezzolini
منذ بضع سنوات لا يزال سائدا ويقول :

لدينا الآن ماكيا فيلي اليسوعيين ، عدوا للكنيسة ،
ماكيا فيلي الوطنيين ، مخلص إيطاليا المتحدة وبيت سافوى
Savoy ، وماكيا فيلي العسكرية طليعة الجيوش القومية ،
وماكيا فيلي الفلاسفة ، الذى ابتكر طريقة جديدة للفكر - الروح
العملية ، وماكيا فيلي الكتاب ، الذى يعجبون بأسلوبه الكامل
النضج وعباراته الجريئة . وجميع هؤلاء الماكيا فيليون شرعيون .

من الحقائق التى قلما تقبل الجدل ، انه ما من رجل قبل
كارل ماركس كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى مثل
ماكيا فيلي . ان له حقا شرعيا فى لقب «مؤسس علم السياسة» .

٢ - الثورى الأمريكى

توماس بين THOMAS PAINE

« الإدراك العام »

ما كان لای رجل عاقل أن يتنبأ لتوماس بين بمستقبل زاهر عندما وصل الى أمريكا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره . كانت حياته كلها حتى ذلك الوقت سلسلة من الاخفاقات وخيبة الامل . فكل مشروع وضع يده فيه باء بالفشل . اذا ، فأى سبب يجعلنا نعتقد انه فى خلال بضع سنوات يبرز هذا القادم الحديث الى الدنيا الجديدة كواحد من أعظم مؤلفى الكتيبات فى اللغة الانجليزية ، وواحد من أعظم الباحثين فى التاريخ الأمريكى . انه مثير للقلق السياسية ، وثورى عرف اسمه ورهب ومقت أو قرظ وكرم فى جميع المستعمرات البريطانية الامريكية ، وبريطانيا العظمى ، وغرب أوروبا ؟ يبدو أن رحلة المحيط قد أحدثت تحورا مشيرا فى شخصيته وأخلاقه ، فغيرته ما بين عشية وضحاها من الإدراك المتوسط الى النبوغ .

إذا فحسنا سنى حياة بين الأولى ، وجنناها ثم تضع هباء، بل كانت في الحقيقة نوعا من الأعداد لحياته الجديدة . ولد في ثيتفورد Thetford بمقاطعة نورفوك Norfolk من أب ينتمي الى طائفة أصدقاء مذهب جورج فوكس الدينى ومن أم انجليكانية . . . مارس الفقر المدقع والحرمان والنصب منذ نعومة أظفاره . . . تعلم في مدرسة الأجرومية حتى بلغ الثالثة عشرة اذ اكتسب ، كما يقول هو نفسه ، « تعليما أخلاقيا جيدا جدا ، وكمية طيبة من المعارف النافعة » . وان موهبته الطبيعية في العلوم والاختراع - الناحية العملية المقابلة للنظرية - قد ظهرت على السطح وبقيت معه طوال حياته الحافلة بالأعمال المستمرة .

بعد هذا التعليم البسيط الشكلى ، تتلمذ لين ليتعلم مهنة ابيه صناعة «الكورسيهات» . فقضى في ذلك العمل ثلاث سنوات . ثم ان بریق البحر وملل العمل على وتيرة واحدة ، جعلاه يفر من بيته ويلتحق بسفينة القرصنة الحربية « تريبل Terrible » بقيادة وبان بحمل الاسم المرهوب «الموت» . واذ أنقذه أبوه ، استأنف عمله في صناعة الكورسيهات حتى بلغ التاسعة عشرة ، فعاد الى القرصنة الحربية لنهب سفن الأعداء حيث عمل مدة قصيرة على السفينة «ملك بروسيا» . واذ شفى من ولعه بالمغامرات البحرية استقر مرة أخرى في مهنته الأولى ، ليس في ثيتفورد وإنما في لندن ، في حانوت لصناعة الكورسيهات قرب درورى لين Drury Lane . وكان يقضى أوقات فراغه في سماع محاضرات علم الفلك .

تلا ذلك سنوات من التجوال الشاق وعدم الاستقرار في شيء . . . تزوج خادمة يتيمة في ساندوتش Sandwich ، ولكنها ماتت في غضون سنة من زواجهما . كان والدها موظفا بمراقبة

الانتاج ، ف جذب بين الى هذه الوظيفة وجود وقت فراغ
يمكنه أن يقوم فيه بأعمال أخرى . فحصل على وظيفة مأمور في
ادارة مراقبة الانتاج ، ولم يكن هناك طريقة أضمن من هذه
لفقدان الاصدقاء والابتعاد عن الناس ، اذ كان عمله القبض على
مهربى البضائع ، فصارت ايدى الاغنياء والفقراء ضده . ثم
فصل من عمله هذا لتهاونه في تنفيذ الأوامر . فعاد بعد ذلك الى
صناعة الكورسيهات وبقى فيها مدة بسيطة ثم عمل مدرسا في
كنسنجتون Kensington بمرتب ٢٥ جنيها في السنة لا يكاد يكفي
ثمن القوت الضروري . ولكنه عاد بعد ذلك الى مراقبة الانتاج ،
وتزوج مرة ثانية في سنة ١٧٧١ ، وانضم الى زوجته وأمها في
لويس Lewes ، في ادارة حانوت لتجارة التبغ والبقالة ، كعمل
اضافي يزيد في دخله .

قضى بين كثيرا من وقته ، في هذه السنين الأخيرة ، في حانة
« هوايت هارت White Hart » وحضور الاجتماعات في
ناد انضم اليه . وللترفيه عن الأعضاء ، كان ينظم الأرجن
الدعابية والأغاني الوطنية ، ويصدر صحيفة في موضوعات أكثر
جدية ، واحيازا كان يشترك في نقاشات حامية عن الاحداث
اليومية الجارية . ولما ظهرت براعته في الجدل ، انتخبه زملاؤه
كى يتكلم نيابة عنهم في طلب زيادة أجورهم وتحسين ظروف
العمل لهم . فبقى بين عدة اسابيع في تحرير صحيفة بعنوان .
« قضية موظفى مراقبة الانتاج ، والآراء الخاصة بالفساد الناجم
عن فقر موظفى مراقبة الانتاج » . وفي شتاء عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣
ذهب الى لندن لتقديم هذه العريضة الى أعضاء البرلمان والموظفين
الأخرين .

لم ترفض العريضة التى قدمها بين نيابة عن زملائه ، لم
ترفض فحسب ، بل وطرد من عمله لاهماله واجباته . وأفلس

حانوت تجارة التبغ ، فبيع اثاث بيته وامتمته الشخصية لانقاذ من السجن بسبب ديونه . فانفصل عن زوجته . واذا قبل على منتصف العمر ، ترك وحيدا خالي الوفاض .

شاء الحظ أن يلتقى أثناء اقامته فى لندن بينيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذى اوفد الى هناك كسفير للمستعمرات . وربما ادرك فرانكلين عبقرية بين فحشه على أن يجرب حظله فى أمريكا وزوده بخطاب توصية لزوج ابنته ريتشارد باش Richard Bache فى فيلادلفيا Philadelphia ذكر له فيه أن بين « شاب عبقرى كفاء » موصيا ، بتعيينه كاتبا أو مساعد مدرس فى مدرسة أو مساعد مساح . كان خطاب فرانكلين رأس المال الرئيسى لدى بين عندما نزل فى فيلادلفيا فى أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٧٤ .

ومع هذا ، أحضر بين معه رأس مال ثان بالغ القيمة من نوع آخر - هو مرانه الماضى . لاحظ بين الوحشية البدائية التى يسير عليها العدل فى إنجلترا ، وذاق مرارة الفقر ، وقرا وسمع الكثير عن حقوق الانسان الطبيعية ، ورأى الهوة الشاسعة الفاصلة بين ملايين البشر العاديين وبين بضعة الآلاف ، أعضاء الأسرة المالكة والنبل فى بريطانيا ، وعرف الطريقة التى يتبعها نواب الاقاليم الفاسدون فى اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons كما عرف فساد وغباء العائلة المالكة . واذا فكر عميقا فى هذه الأمور ، تملكه عطف شديد على الانسانية ، كما تملكه حب للديموقراطية وباعث قوى للإصلاح الاجتماعى والسياسى العام .

بعد وصول بين الى فيلادلفيا ، سرعان ما عين محررا فى مجلة بنسلفانيا Pennsylvania وكات صحيفة جديدة ، فاستمر فى تلك الوظيفة معظم الثمانية عشر شهرا التى

بقيتها تلك الصحيفة . وعلى الفور تقريرا ، بدأ سيرته الطويلة كمغامر مصلح ، فنشر مقالا ندد فيه بالرقيق من الزوج وطالب بالحاح عتق الأرقاء . بعد ذلك بخمسة أسابيع تكونت في فيلادلفيا أول جمعية أمريكية لمقاومة الرق . وتلا ذلك مقالات أخرى تطالب بمنح المرأة المساواة في الحقوق ، وتقترح تشريع قوانين دولية لحقوق الطبع والنشر ، والرفق بالحيوان والسخرية من عادة المبارزة ، وبذ الحروب لتسوية النزاعات بين الأمم .

وبينما هو يكتب تلك المقالات ، شبت بسرعة حرب دولية لعب هو فيها دورا هاما . ففي ربيع سنة ١٧٧٥ قامت معارك كونكورد Concord و لكسنجتون Lexington وبنكر هيل Bunker Hill وبعد مذبحة لكسنجتون في شهر ابريل ، كتب بين الى بنيامين فرانكلين ، يقول : « رأيت من الصعب أن تشتعل النار في البلاد تحت سمى بمجرد دخولى إليها » .

انقسمت الآراء في المستعمرات انقساما بالغا فيما يختص بالمنهج الواجب اتباعه . تراوحت الآراء من المتطرفين أمثال صموئيل آدمز Samuel Adams وجون هانكوك John Hancock اللذين صمما بشدة على ضرورة الحرب ، الى المحافظين الموالين للملك . وكان جورج واشنطن George Washington وبنيامين فرانكلين وتوماس جافرسون Thomas Jafferson من بين القادة الذين أبدوا ولاءهم لبريطانيا ، وتساءلوا عن فكرة الانفصال والاستقلال . أكد كل من المؤتمر الكونتنتال الاول والثاني قراراتهما في الولاء للتاج ، مطالبين فقط بتسوية عادلة لمطالبهما .

وفي وسط ذلك التفكير المضطرب والآراء والدوافع المتضاربة ، والجذب والرفع ، كان هناك رجل واحد رأى

هناك الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكسى بطرس

بوضوح اتجاه الأحداث والنتيجة المحتملة . فمنذ البداية ، رأى توماس بين أنه لا مفر من الانفصال عن انجلترا . فقضى كل بقية عام ١٧٧٥ يكتب آراءه . وقبل نشر مؤلفه ، عرضه على عدد من الأصدقاء من بينهم الدكتور بنيامين رش Benjamin Rush الذى اقترح أن يكون عنوان الكتيب « الإدراك العام » ، وساعد بين فى العثور على ناشر اسمه روبرت بل Robert Bell وهو صاحب مكتبة ومطبعة فى فيلادلفيا .

ظهر « الإدراك العام » فى ١٠ يناير سنة ١٧٧٦ « ومؤلفه رجل انجليزى » ، وهو عبارة عن كتيب من ٧ صفحات ، وثمنه شلنان . فبيع منه ١٢٠٠٠٠ نسخة فى ثلاثة أشهر ، وبلغ مجموع المبيعات الكلية حوالى نصف مليون ، وهذه تعادل بالنسبة الى عدد السكان ، بيع ٣٠ مليون نسخة فى الولايات المتحدة اليوم . والواقع أن كل شخص يستطيع القراءة فى المستعمرات الثلاثة عشرة ، لا بد وأن قرأه . ورغم هذه المبيعات الضخمة رفض بين أن يأخذ بنسأ واحدا من حصيلة ذلك الكتيب .

ليس فى تاريخ الأدب شىء يعادل « الإدراك العام » فى أثره الفورى . كان نداء بوق الى المستعمرات الامريكية لكى تحارب من أجل استقلالها - دون قبول الصلح ولا التردد . أبان لهم ذلك الكتاب أن الثورة هى الحل الوحيد لنضالهم مع بريطانيا العظمى وجورج الثالث . فقال بين : « بما أنه لا شىء يجدى غير الصفعات ، فاكرا ما لخاطر الله هيا بنا الى الانفصال النهائى . اننا ندفع ثمنا غاليا ، وغاليا جدا عن الغاء القوانين ، اذا كان هذا هو كل ما نحارب من أجله . . انه من الحماسة أن ندفع ثمن بنكر هيل من أجل الارض . . ليس هذا موضوع مدينة أو مقاطعة أو محافظة أو مملكة ، بل موضوع قارة . . ليس هذا مصير يوم ولا سنة ولا جيل ، بل ان ذريتنا مشتركة فى هذه

التجربة .. الآن وقت البذر لاتحاد وايمان وشرف قارة .. ان حزام القارة المربوط واسعا .. الاستقلال هو الرباط الوحيد الذى يحافظ على ارتباطنا معا » .

ومقدمة « الادراك العام » فقرة معتدلة ومهدئة :

ربما كانت العواطف التى تتضمنها الصفحات التالية ليست جيدة الصياغة بما يكفى لأن تحظى بالقبول العام . فالعادة الطويلة الأمد التى لا تظن بأن هناك شيئا خطأ ، تعطى مظهرا سطحيا بأنه صواب ، ويشير أولا صفحة مدوية للدفاع عن العادات . ولكن سرعان ما يخمد الصوت . يخلق الزمن مهتدين أكثر مما يفعل العقل .

يتناول القسم الاول من هذا الكتيب نشأة الحكومة وطبيعتها مع تطبيق معين للدستور الانجليزى . تظهر فلسفة المؤلف عن الحكومة فى مثل هذه العبارات :

ليست الحكومة ، حتى وهى فى أفضل حالاتها ، سوى شر لابد منه ، وفى أسوأ حالاتها ، شر لا يطاق .. الحكومة كالثياب ، شارة البراءة المفقودة .. بنيت قصور الملوك على انقراض مقاصير الجنة .. كلما كثر كمال المدنية قلت حاجتها الى حكومة .

يقول بين ان نشأة الحكومة وقيامها قد صارا ضروريين بسبب عجز الأخلاق الفاضلة عن حكم العالم ، وهنا أيضا شكل ونهاية الحكومة ، أى الحرية والاطمئنان » .

يوجد فرق كبير بين المجتمع والحكومة . ينجذب الناس الى المجتمع وعن طريق التعاون الاجتماعى يمكنهم الحصول على حاجات معينة . وفى هذه الحالة يملك الانسان حقوقا طبيعية معينة مثل الحرية والمساواة . ونموذجيا ، يجب أن يكون الانسان قادرا على أن يعيش فى سلام وسعادة بدون حكومة ، اذا كانت

بوامث الضمير واضحة ومتناسقة ومطاوعة بغير مقاومة . وبما أن الجنس البشرى ضعيف طبيعيا ، وغير كامل اخلاقيا ، يلزم وجود قوة رادعة ما ، وهذه توفرها الحكومة . ومع ذلك ، يتوقف أمن وتقدم وراحة الشعب على المجتمع أكثر مما يتوقف على الحكومة . وتجاوب المجتمع وعاداته والعلاقات المتبادلة بين الناس أقوى تأثيرا من أى دساتير سياسية .

بعد ذلك يبدى بين بضع ملاحظات على الدستور الذى تزهو به انجلترا كثيرا ، معلقا عليه بقوله : « من المسلم به أنه كان نبيلاً ابان العصر المظلم الحقير الذى صيغ فيه . فعندما اجتاح الطفيان العالم ، فإن اقل تزحزح عنه كان خلاصا ماجدا . ولكن من السهل توضيح أنه غير كامل وعرضة للتأويلات المتضاربة وغير قادر على تحقيق ما يتظاهر بالوعد به » . ما أهم الصفات التى يجب أن تتحلّى بها الحكومة - المسئولية - التى اعتبرها بين غير موجودة اطلاقا فى الدستور البريطانى . انه معقد بطريقة تجعل من المستحيل معرفة المسئول عن شئ بعينه . والجزء الوحيد المشكور فى ذلك الدستور هو حق الشعب ، نظريا على الاقل ، فينص على اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons بالانتخاب . واقترح بين قاعة تشريعية واحدة للمستعمرات ينتخب أعضاؤها ديموقراطيا ، ورئيسا ، ووزارة ذات قسم تنفيذى مسئول امام الكونجرس .

ادخر بين اقلع الفاظه واعظم احتقاره لدستور الملكية الوراثية . هاجم مبدأ الملكية كله من اساسه ، ولاسيما الصورة الانجليزية من هذا المبدأ .

عرف العالم حكومة الملوك ، اول ما عرفوها ، من الوثنيين الذين حاكاهم فى هذه العادة أبناء اسرائيل . كانت الاختراع الاكثر ازدهارا ، الذى أقامه الشيطان لنشر عبادة الاصنام . قدم

الوثنيون فروض العبادة للوكهم الاموات، وتحسن العالم المسيحي بفعل نفس ذلك الشيء للوكهم الأحياء . . واضفنا نحن الى شر الملكية ، شر حق الوراثة . ولما كان الشر الأول تحقيرا وتقليلا لأنفسنا ، فان الشر الثاني ، كحق ، اهانة لنا ، وفرض على ذريتنا . . ومن أقوى البراهين الطبيعية على سخافة حقوق الوراثة للملوك ، أن الطبيعة نفسها تشتمز منها ، والا فانها تسخر منا فتعطينا « حمارا » بدل « أسد » .

ورجوع شرعية الوراثة الانجليزية للعرش الى عصر الفزوة ، أمر مشكوك فيه ، في نظر بين ، فيقول : « نزل باجلترا صعلوك فرنسي ومعه عصا مملحة ، فاقام نفسه ملكا لانجلترا بغير موافقة السكان الوطنيين ، وهذه ببساطة نشأة دنيئة حقيرة - وبالتأكيد لا تنطوي على شيء الهى » . اذا أمنت الملكية فريقا من الناس الاخير والعقلاء ، فلا مانع . ولكنها « تفتح بابا » للاغبياء والاشرار والمفسودين » . أولئك الناس الذين ينظرون الى أنفسهم على أنهم ولدوا ليحكموا بينما ولد الآخرون ليطيعوا ، سرعان ما يتخلقون بالوقاحة . وهم بخلاف سائر الجنس البشرى قد تسمت عقولهم منذ عصر مبكر ، بالعظمة والصلف . . وعندما يتولون الحكومة بالوراثة ، فكثيرا مايكونون جهلاء وغير صالحين لآى شيء فى جميع انحاء المملكة » . والسماح للملوك القصر والشيوخ بالجلوس على العرش يخلق عددا من الشرور والمساوىء ففى الحالة الأولى يكون الحكم الحقيقى للمملكة فى يدي وصى على العرش ، وفى الحالة الثانية يصير الحكم عرضة لنزوات ملك عجوز خائر .

وردا على القول بأن وراثة العرش تمنع قيام الحروب الأهلية ، أشار بين الى أنه منذ عصر الفزوة اجتاحت انجلترا : « مالا يقل عن ثمانى حروب أهلية وتسعة عشر تمردا » ، وقال :

لا يعمل الملك في انجلترا الا القليل جدا زيادة على اعلان الحروب وتوزيع المناصب ، وهذا ، ببساطة ، معناه انه يفقر الأمة ويضمها معا من آذانها . فياله من عمل رائع حقا أن يتقاضى رجل عنه ثمانمائة الف جنيه استرليني سنويا ويعبد من أجل هذا العمل ! ان رجلا أميناً واحداً لأعظم قيمة للمجتمع وفي نظر الله أيضا ، من جميع أولئك السوقة المتوجين الذين عاشوا في هذه الدنيا .

ادى بين فروض الاحترام ، في عدة فقرات الى جورج الثالث . فكتب بعد مذبة لكسنجتون ، يقول : « انى لأنذ الى الأبد فرعون انجلترا القاسى القلب والسيء الطباع ، واحترق ذلك الوغد ذا اللقب الزائف « أبو شعبة » الذى يسمع عن مذابحهم دون شعور ، وينام ناعم البال ودمهم على روحه » . ثم يستطرد في فقرة لاحقة ، فيقول : « يقول البعض ، ولكن اين ملك امريكا ؟ فأرد عليك ، يا صديقى ، بقولى : انه بحكم فوق ، ولا يعمل على ابادة الجنس البشرى ودماره كما بفعل وحش بريطانيا الملكى » .

واذ فجر بين بعض الآراء الشعبية عن الحكومة الملكية ، انتقل الى « بعض الافكار عن الحالة الراهنة للشئون الامريكية » . فاكد النقاش الاقتصادى للانفصال عن بريطانيا ، وعن ادعاء المحافظين بأن امريكا ازدهرت بسبب صلتها بانجلترا ، فقال :

كان بوسع امريكا ان تزدهر بذلك القدر ، وربما بأكثر منه لو لم تتدخل في شئونها اية قوة اوروبية . فمواد التجارة اتى اغنت امريكا بها نفسها هي ضروريات الحياة ، وستجد دائما سوقا لمنتجاتها طالما كانت عادة اهل أوروبا ان يأكلوا . . . يجلب قمحنا ثمنا في اية سوق اوروبية ، وسلعنا المستوردة يجب ان ندفع ثمنها ، ولذا يمكننا ان نشتريها من اين يحلو لنا .

اما القول بأن بريطانيا قامت بحماية المستعمرات ضد
الاسبانيين والفرنسيين والهنود فلم يقبله بين في احتقار ، وعلق
عليه بقوله : « كان يمكن أن تحمي بريطانيا تركيا لنفس الدوافع ،
اى من أجل التجارة والمستعمرات وعلى أية حال كان الدفاع على
حسابنا ، كما كان على حسابها » .

أدرك بين أن من أقوى الروابط التي تحافظ على عدم
انفصال المستعمرات ، فكرة عاطفية بريطانية ، اذا كان هذا
حقيقيا . وهى تجلب العار على سلوكها . فحتى الوحوش لا تأكل
صغارها ، ولا يعلن الموحشون الحرب على عائلاتهم . . فقد اتخذ
الملك وأذنا به العبارة « الدولة الوالدة أو الدولة الأم » يسوعيا
لغرض بابوي وضع ، لكسب انحياز غير عادل على الضعف
الساذج لعقولنا . فان أوروبا ، وليست إنجلترا هى الدولة الأم
لأمريكا . قال بين ، ان الدنيا الجديدة كانت ملجأ لمحبي الحرية
المدنية والدينية المضطهدين من جميع أنحاء أوروبا . . لا يصل
عدد السكان ، الذين من أصل انجليزى ، حتى فى هذه المحافظة ،
الى ثلث عدد سكانها الكلى ، وهذا ما يجعلنى أستاء لاطلاق عبارة
« الدولة الوالدة أو الدولة الأم » على إنجلترا وحدها ، اذ يكون
هذا انانية وزيفا وبخلا وضيقا فى التعبير .

علق بين على تحذير جورج واشنطن « أن نبتعد عن التحالف
الدائم مع أى جزء من العالم الأجنبى » ، وعلى سياسة توماس
جيفرسون : « السلم والتجارة والصداقة الصادقة مع جميع
الأمم - ولا نستبك فى تحالف مع أى أمة منها . » علق بين على
هذين القولين مقترحا أن هناك مساوىء عديدة للعلاقة المستمرة
مع بريطانيا :

. . لأن أى خضوع أو اعتماد على بريطانيا العظمى يؤدى
الى الاشتراك المباشر لهذه القارة فى الحروب والمبارك الأوروبية ،

ويضعنا في موقف العداء مع الأمم ، التي بغير ذلك تسعى الى صداقتنا والتي ليس بيننا وبينها اى كدر او شكوى . ولما كانت اوروبا سوقا لتجارتنا ، وجب علينا الا نكون اية علاقة انحياز مع اى جزء منها . ان صالح أمريكا الحقيقي هو فى الابتعاد عن المنازعات الاوزوية ، الأمر الذى لن تستطيعه أمريكا وهى الكفة الراجحة فى ميزان السياسة البريطانية . فأوروبا زاخرة بالكثير من الممالك الرابغة فى السلام ، واذا اندلعت نيران حرب بين انجلترا واية قوة اجنبية ، تحطمت تجارة أمريكا بسبب علاقتها ببريطانيا .

استعرض بين مساوىء الحكومة البريطانية المتعددة الصور ، فاستنتج :

ليست قوة بريطانيا هى التى تنصف هذه القارة . فسرعان ما ستكون شئونها كثيرة ومعقدة فلا تستطيع قوة بعيدة عنها ان تدبرها تدبيراً مريحاً ، وهكذا تجهلنا ، لأن البريطانيين اذا لم يستطيعوا قهرنا فلن يستطيعوا ان يحكمونا . فاذا كان علينا دائماً ان نقطع ثلاثة آلاف او اربعة آلاف ميل لعرض موضوع او تقديم شكوى ، ثم ننتظر اربعة او خمسة شهور ليصلنا الرد ، الذى عندما يصل يحتاج الى خمسة او ستة شهور اخرى لتفسيره . وعلى هذا ينظر اليه بعد بضع سنوات على انه حماقة و «مسيئة» . انها اسخافة ان تستمر جزيرة تحكم قارة . لم تجعل الطبيعة ، بحال ما ، التابع اكبر من الكوكب المتبوع .

ألقى بين مرافعة مشيرة للعواطف من أجل المتشككين وضعاف القلوب ، الذين مازالوا يعتقدون ان الاتفاق او الصلح ممكن ، فقال :

ايمكنكم ان تيمدوا الينا الزمن الذى مضى ؟ ايمكنكم ان تمنحوا البغاء براءته السابقة ؟ كذلك لايمكنكم الصلح بين بريطانيا

وأمریکا . لقد انقطع الآن آخر حبل للرجاء . يلقي شعب إنجلترا الخطب ضدنا ، وهناك أضرار لن تغفرها الطبيعة ، وإذا غفرتها فلن تكون طبيعة بعد ذلك . وكما أن العاشق لن يغفر لمن يهتك عرض معشوقته ، كذلك لن تغفر هذه القارة لبريطانيا مذابحها .

بينما يزرع العالم كله تحت عبء الظلم ، يجب أن تفتح أمريكا أبوابها عنى مصاريها للحرية وتعد ملجأ للبشرية المضطهدة .

كرس بين الباب الأخير من كتيبه لموضوع عملي جدا ، وهو « المقدرة الحامية لأمريكا » ، ليحصل على ثقة الأمريكيين ويقنعهم بأن لديهم القوة البشرية والتمرين الصناعي والموارد الطبيعية ، ليس فقط لشن الحرب بنجاح على بريطانيا ، بل ، إذا اقتضت الضرورة ، على العالم المعادى . تحتوى المستعمرات الآن على عدد ضخم من الرجال المسلمين والمدربين ، ويمكنها تكوين أسطول بحرى يعادل أسطول بريطانيا في وقت قصير لان القطران والأخشاب والحديد والحبال متوافرة لدينا بكميات كبيرة وان « بناء السفن لمفخرة أمريكا التي لا تزال تتفوق فيها على العالم أجمع . » وعلى أية حال ، ان أمريكا في حاجة الى أسطول للدفاع والحماية ، لأن البحرية الانجليزية قليلة الجدوى وهى على بعد ثلاثة أو أربعة آلاف ميل ، وعديمة النفع اطلاقا وقت نزول الخطر .

وعلى ضوء المجادلات الدينية التي اشتبك فيها بعد ذلك ، من المتع أن نبين آراء بين الدينية في هذه المرحلة من حياته .

أما فيما يختص بالدين ، فأقرر أنه واجب لا فنى عنه لجميع الحكومات أن تحمى جميع أساتذة الدين الفيورين ، ولست أعرف سهلا آخر يجب أن تقوم به الحكومة (وهذا طعن واضح ضد الكنيسة ، يبقى من ورائه فصل الكنيسة عن

الحكومة) . . اما عن نفسى فانتى اؤمن تماما وبعقيدة انها مشيئة
الاله القادر على كل شىء ، أن تكون بيننا خلافات فى الآراء
الدينية ، فهذا يسمح بمجال اوسع لطبيعتنا المسيحية . واذا
اتفقت طريقة تفكيرنا جميعا ، اجتاحت تكويناتنا الدينية الى مادة
للتقاش ، وائى هذا المبدأ الحر ، انطلع الى جميع القيم التى
بيننا ، لتكون كأطفال أسرة واحدة لا يختلفون الا فيما يطلقون
عليه الاسم الاول او الاسم المسيحى .

لخص بين اسباب تمسكه برايه فى « أنه ما من شىء يسوى
امورنا بسرعة وبسهولة مثل الاعلان الصريح لاستقلالنا » . . ختم
كتيبه « الإدراك العام » بذكر أربعة عوامل : (١) طالما أن أمريكا
تعتبر من رعايا بريطانيا ، فما من دولة أخرى يمكنها التدخل فى
الخلاف بينهما . (٢) لا يمكن انتظار مساعدة من فرنسا أو
اسبانيا لاصلاح الصدع بين بريطانيا وأمريكا وتقوية العلاقة
بينهما لأن مثل هذه الخطوة ستكون ضد مصالحهما . (٣) طالما
يعترف الامريكيون بأنهم رعايا بريطانيا ، فانهم سيعتبرون فى نظر
الأمم الأجنبية عصاة متمردين ، وهكذا لا يكسبون الا القليل من
عطفهم . (٤) اذا أعد الامريكيون تقريراً يوضحون فيه شكواهم
ضد بريطانيا وعزمهم على قطع كل علاقة بها ، وإرسال نسخ
من هذا التقرير الى جميع الدول ، معبرين عن نواياهم السفمية
مع تلك الدول ، ورغبتهم فى اقامة علاقات تجارية ، صارت النتائج
فى صالحنا حدا .

واختتم بين قضيته بقوله :

. . اذا لم يعلن الاستقلال فستظل القارة تشعر بأنها معسئ
رجل دائم التأجيل لعمل كربه من يوم الى يوم ، رغم أنه يعلم أن
ذلك العمل لابد ان يتم ، ويكره أن يبدأ فيه ، وفى الوقت نفسه

يرغب في الانتهاء منه ، ويظل مشغول البال باستمرار بضروره ذلك العمل .

لماذا ، بدلا من أن يحمل كل منا في الآخر مستربيا او متسائلا ، لماذا لا يمد كل منا الي جاره يد الصداقة من كل قلبه ، ونتحد في رسم خط ، كعمل من أعمال النسيان وبدفن في حيز النسيان كل نزاع سابق . ولننقض على اسم عضو من حزب الأحرار وعضر في حزب المحافظين ، ولا يسمع بيننا سوى « مواطن صالح » و « صديق وفي » و « مؤيد فاضل لحقوق الإنسان وحقوق ولايات أمريكا الحرة والمستقلة » .

كانت هذه هى الرسالة الثورية التى بعث بها « الإدراك العام » الى الشعب الأمريكى ، صاعدا السلم من أسفل الى الأرض ، ومن الأدلة العملية الى النداءات المنحازة لشخص مفعم بالعواطف ، ووطنى عنيف ، وثورى مفظور .

يمكن تصوير الآثار الفورية والتلقائية لكتيب « الإدراك العام » بالاستشهاد بأقوال بعض القادة المعاصرين . لقد تبخرت شكوك جورج واشنطن عندما كتب الى جوزيف ريد فى نورفوك : « ان مزيدا قليلا من مثل هذه الأدلة المتأججة كالتى عرضت فى فالموث Falmouth ونورفوك ، اذا أضيف الى المذهب السليم والأسباب المفحمة التى يضمها كتيب « الإدراك العام » لى يترك الأعضاء فى حيرة فيما يختص بتقرير مبدأ الانفصال » . وبعد ذلك ببضعة أسابيع كتب أيضا الى ريد : « من الخطابات الخاصة التى تسلمتها أخيرا من فرجينيا Virginia أرى ان كتيب بين بعنوان « الإدراك العام » ، قد أحدث تغييرا عجيبا هناك فى عقول كثير من الناس » . وكتب جون آدمز الى زوجته يقول : « أرسلت اليك كتيباً عنوانه (الإدراك العام) وضع للدفاع عن مذاهب ، من المعقول أن تتوقع ان وقف الظفیان

ومقاومة الظلم سرعان ما ستكون عقيدة عامة . وبعد ان قرأته
البيجيل Albigail أجابت : « ان هذا الإدراك العام ،
جاء في الوقت المناسب كشعاع من الوحي لتبديد شكوكنا وتحديد
اختيارنا . » وقال بنيامين رثن عما كتبه بين : « يخرج من المطبعة
يأثر قلما أنتجته حروف الطباعة والورق في أى عصر وفي أية
دولة . » ويحل الجنرال تشارلز لى Charles Lee : « اعترف
بأنه اقنعنى » . وذكر فراتكلين : « لقد أحدث اثرا ضخما . »
وقال وليام هنرى درايتون William Henry Drayton : « جاء هذا
الإعلان كقصف الرعد على أعضاء المؤتمر الكونتيننتال . »

وعلق السير جورج ترفليان George Trevelyan
في كتابه « تاريخ الثورة الأمريكية » ، بقوله :

من الصعب ان نذكر اسم أى انشاء بشرى كان له ذلك
الأثر الفوري وفي الحال ، وامتد اليه نطاق واسع ، وكان له مثل
ذلك الدوام . . سرق هذا المؤلف ، ونظم شعرا وحوكى ، وترجم
الى لغة كل دولة كان للجمهورية الجديدة من يودونها فيه
ويودون لها اطياب الامانى . . وتبعنا للصحف المعاصرة ، حول
كتيب « الإدراك العام » اليه الإستقلال أولوفا لم تتحمل من قبل
مجرد فكرة الاستقلال . لم ينقص ما فعله هذا الكتيب عما تفعله
المعجزات ، وحول المحافظين الى أحرار .

بعد بضعة أشهر من ظهور « الإدراك العام » زودت معظم
الولايات موفديها بتعليمات ان يصوتوا طالبين الاستقلال . وترددت
Maryland وحدها ، وعارضت نيـورويوك
وفي الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ أى بعد اقل من ستة شهور من
ظهور كتيب بين الشهير من المطبعة ، اجتمع الكونجرس الكونتيننتال
في قاعة الدولة بولاية فيلادلفيا ، وأعلن استقلال الولايات المتحدة

الامريكية . ورغم ان بين لم يكتب القرار بنفسه ، فانه كان على صلة قريبة من توماس جيفرسون اثناء صياغته . وباستثناء بند ضد الرق ، نادى بين به ، كانت المبادئ التي نادى بها يتضمنها ذلك القرار الشهير .

ان سرد حياة بين اللاحقة مطابقة غير مباشرة لقصة «الادراك العام» . ويمكن تصوير الاحداث الهامة باختصار . فبعد الاستقلال مباشرة ، انضم بين الى جيش الثورة . ولما كان خطيبا كثير الحجج في دفاعه عن القضية الامريكية ، اسهم بقسط كبير في الوحدة القومية وروحها ، بمجموعة من الكتيبات ، وكل منها يحمل عنوان « الازمة » . يبدأ الكتيب الاول من هذه المجموعة بسطور كثيرة الورد على الالسنة : « هناك اوقات تختبر فيها ارواح الناس . يتراجع جندي الصيف ووطنى ضوء الشمس ، عن خدمة وطنهما ، ولكن من يقف في هذه الخدمة الآن ، يستحق شكر كل من الرجل والمرأة . » وبعد بضعة اشهر ، اذ عرف الكونجرس قيمة بين كاخصائى في الاعلام ، وداعية الى الاخلاق الفاضلة ، عينه وزيرا للجنة الشؤون الخارجية - وبذا كان بين اول وزير للولايات المتحدة ، بيد ان الاحداث اجبرته على الاستقالة من منصبه . فعين بعد ذلك امين سر لمؤتمر بنسلفانيا . وفي سنة ١٧٨١ ، اوفد الى فرنسا مع جون لورنز John Lorens لاحضار مساعدة مالية للحكومة الامريكية التي كانت في اشد الحاجة الى المعونة ، فعاد في السنة نفسها بالاموال والامدادات .

واذا انتهت الثورة في عام ١٧٨٣ ، عكف بين على اختراعاته الميكانيكية مصمما اول جسر حديدي معلق واخذ يجرى التجارب على قوة البخار . فقرر استشارة المهندسين في فرنسا وانجلترا عن بعض المسائل الميكانيكية فذهب الى أوروبا عام ١٧٨٧ حيث بقى مدة خمسة عشر عاما .

ما ان وصل بين الى الخارج حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية ، فأيدها بين بحماس اذ وجد فيها دفعا جديدا عن آرائه الليبرالية . ودفعا عن هذه الثورة رد على هجوم ادموند بيرك Edmund Burke أخرج كتيبته الذائع انجلترا اجتماعا للقبض عليه بتهمة الخيانة العظمى بسبب المذهب المشروح في ذلك الكتيب ، فر الى فرنسا حيث انتخب في البرلمان الفرنسي عضرا ممثلا لكاليه Calais وفي محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعداء ، اشتبك بين في نقاش مع بعض المتطرفين محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعداء ، اشتبك بين في أمثال روبسبير Robespierre ومارات Marat . وعندما تسلم هذان العنصران الحكومة ، قبض على بين وجرده من جنسيته الفرنسية الشرقية ، وسجن مدة عشرة شهور ، ونجا من المقصلة بأعجوبة . ولما أفرج عنه في السجن بوساطة السفير الامريكى جيمس مونرو James Monroe عولج من ضعفه حتى استعاد صحته في بيت مونرو .

كان مؤلفه العظيم في ذلك الوقت هو « عصر العقل Age of Reason » الذي أطلق عليه أحيانا « ثورة اللحد » . والواقع ان بين كان يعتقد بوجود اله واحد ليس في دين معن . وكان « عصر العقل » ينتقد « العهد القديم » انتقادا لاذعا ، وضعه بين لايقاف موجة الالحاد التي اجتاحت فرنسا في عصر الثورة . ومع ذلك ، فان علماء اللاهوت والجماعات الدينية الأرثوذكسية أدانوا بين بشدة ووصفوه بأنه متطرف خطير ، وغير مؤمن .

عندما رجع بين الى أمريكا في سنة ١٨٠٢ وجد أنه لم يستقبل كبطل ثوري ، بل كان منفيًا من المجتمع بواسطة القادة السياسيين وأعضاء الكنيسة ، بسبب تأليف كتيب «عصر العقل» ونظرياته السياسية المتطرفة . وفي نيوروشيل New Rochelle

ونيو يورك حيث استقر ، ضمن عليه بحق التصويت بحجة انه ليس مواطنا امريكيا . ليس هذا فحسب ، بل وحدثت محاولة لاغتيانه . وبعد سبعة اعوام من سوء المعاملة والكرهية والاهمال والتفر واعتلال الصحة ، مات في سنة ١٨٠٩ في الثانية والسبعين من عمره ، فمنع من الدفن في مقابر الكواكر Quaker (اصدقاء مذهب جورج فوكس) .

بقيت العداوة والاكاذيب والتعصبات العنيفة التي لقيها بين في اواخر سنى حياته الى العصور الحديثة . فقد اشار اليه ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt بقوله : « ذلك الملحد الصغير القذر» ، وهكذا كان بين مثل «الامبراطورية الرومانية المقدسة» ، التي لم تكن امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة ، فلم يكن بين ملحدا ولا صغيرا ولا قدرا . وحديثا حتى سنة ١٩٣٢ منع اذاعة برنامج اذاعي عن بين في محطة اذاعة مدينة نيويورك .

انتخب بين في «قاعة الشهرة لعظماء الامريكيين» ، ولكن هذا لم يكن قبل سنة ١٩٤٥ ، اى بعد تأسيس تلك القاعة بخمس واربعين سنة . وفي السنة عينها اعادت مدينة نيوروشيل لذلك البطل الثورى حقوق المواطنين التي فقدتها في سنة ١٨٠٦ .

كان ذلك هو الرجل الذى استحق ، ربما اكثر من اى شخص آخر ، لقب «مؤسس الاستقلال الامريكى» . ذلك الذى كان اول من استخدم العبارة «الولايات المتحدة الامريكية» ، الذى رأى مسبقا أن «الولايات المتحدة الامريكية ستكون عظيمة في التاريخ مثل مملكة بريطانيا العظمى» ، والذى أعلن أن «قضية امريكا هي ، بمعنى اكبر ، قضية البشرية كلها» . وما من اشارة توضح خلق بين خير من رده على عبارة فرانكلين : «اينما توجد الحرية ،

يوجد وطنى» . فقال بين : «حيثما لا توجد الحرية يوجد
وطنى» .

وحتى في عصره ، لم تكن انشودة الكراهية وعدم الاعتراف
بالفضل ، عامين . وقد تجاسر أندريو جاكسون Andrew Jackson
أن يقول : «ليس توماس بين بحاجة الى تمثال مصنوع بالأيدي
اذ أقام تمثالا في فلوب جميع عشاق الحرية» .

٣ - القديس حامى المشاريع الحرة

آدم سميث ADAM SMITH

« ثروة الامم »

بعد ان مضى شهران على اسهام كتاب «الادراك العام» فى اعلان الاستقلال والاحداث المعاصرة الاخرى للثورة الامريكية ، ظهر فى لندن كتاب قدر له ان يحدث رد فعل عميق فى مجال آخر من مجالات النشاط البشرى . وعلى تقيض كتيب بين الملهب للمشاعر ، كانت رسالة آدم سميث الطويلة ، ذات المنجلدين بعنوان «تساؤل عن طبيعة واسباب ثروة الامم» ، قنبلة زمنية، جذبت قليلا من الانتباه فى اول الامر ، والواقع ان هذا المؤلف لم ينجح فى احداث الاثر المرجو كاملا ، الا فى القرن التالى لموت مؤلفه بعد الثورة الامريكية ، وكانت الثورة الفرنسية فى طور التدبير ، وتقدم الانقلاب الصناعى بسرعة مدفوعا الى الامام باكتشاف قوة البخار . وقد وصف احد المعلقين الحقبة الماضية بانها «العصور المظلمة للعصر الحديث» . وفى انجلترا ، كان كل مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية تحت المراقبة الدقيقة للحكومة .

جمدت الاسعار ، وحددت الاجور وساعات العمل ، وعدل الانتاج ، وسيطرت الدولة تماما على التجارة الخارجية من واردات وصادرات ، وتكاد الحرب تكون موجودة باستمرار . فتنطلب السياسة القومية جيشا وبحرية قويتين ، وشعبا ضخما ، والاستيلاء على المستعمرات في جميع بقاع الارض ، واضعاف الدول المنافسة مثل فرنسا بالطرق الطيبة او الشريرة . ولقي كل اقتراح لتوزيع الثروة بالعدل ، معارضة عنيفة من الطبقات الحاكمة . وافتصر التعليم على القلة المحبوبة ، وكانت القوانين الجنائية بالغة القسوة والحقوق السياسية للجمهور موجودة نظريا اكثر منها عمليا .

وكما كانت الحال لعدة اجيال ، مازالت تملك الاريستوقراطية القائمة قابضة على زمام الحكومة . غير انه قامت طبقة جديدة قوية من ائتجار والصناع ، تطالب بامتيازات خاصة لانفسها ، فحصلت عليها . كانت الصادرات في نظر هذه الفئة نعما ، والواردات كراث ، ويجب الا يسمح للاموال بمغادرة الدولة . يجب الاحتفاظ دائما بميزان تجارى مرموق ، يجب ان تكون اجور العمل منخفضة ، وساعاته طويلة ، ويجب حماية الصناعات الوطنية بتعريف جمركية عالية . ومن الضروري امتلاك اسطول تجارى قوى ، وفرض كل اجراء من شأنه ان يساعد التجار تلقائيا ، وذلك لفائدة الامة ككل . وتحت ضغط الاصوات القوية اصدر البرلمان قرارا بتحويل جميع هذه المقترحات الى قوانين .

بعد ذلك جاء آدم سميث معترضا نفس مااعتبره آراء خطأ وضارة . ويمكن اعتبار حياة رجولة سميث حتى هذه المرحلة اعدادا للعمل المضخم الذى وطم نفسه للقيام به . كان مواطنا اسكتلنديا التحق في الرابعة عشرة من عمره (سنة ١٧٣٧) بجامعة جلاسجو حيث وقع تحت نفوذ استاذة العظيم فرنسيس

هتشسون Francis Hutcheson الذى كثيرا ما كان يكرر مذهبه « السعادة العظمى للعدد الاعظم » ، حتى صار ذلك المذهب فلسفة سميث الدائمة . وبعد ذلك ذهب الى جامعة اكسفورد حيث بقى ست سنوات كرس معظم وقته فيها لقراءة الادب على مدى واسع . ولما عاد الى اسكتلندة ، اخذ يلقي المحاضرات فى ادنبره Edinburgh حتى سنة ١٧٥١ عندما عين أولا استاذًا لكرسى علم المنطق ثم الميتافيزيقا ثم أخيرا الفلسفة الاخلاقية فى جامعة جلاسجو . ظل مدة اثنتى عشرة سنة يعمل محاضرا موهوبا ذائع الصيت ، وزادت شهرته عندما نشر كتابه «نظرية العواطف الاخلاقية» الذى لقى رواجًا عظيمًا ، وهو مؤلف اعتبره معاصروه أفضل من «ثروة الامم» . واذا أغرته المكافآت المالية السخية ، استقال من منصبه كأستاذ ، ليصاحب أحد الشبان النبلاء كرفيق ومدرس ، فى رحلة الى أوروبا تستغرق ثلاث سنوات . وهناك تعرف على رواد الاقتصاد والفلاسفة والمفكرين السياسيين لذلك العصر ، ولاسيما فى فرنسا .

وفى سنة ١٧٥٩ ، تضمنت مذكرات سميث فكرة «ثروة الامم» ، ولكن العمل فيه سار ببطء الى أن أتى ثمرته . فاستغرق سنوات من التأمل والدراسة والقراءة والملاحظات المبدئية والتحدث الى اناس من مختلف المشارب فى الحياة ، ومراجعات لانتهمى ، قبل أن بعد هذا المؤلف للطبع . وقبل نشر هذا الكتاب ، قضى سميث معظم ثلاث سنوات فى لندن حيث ناقش كتابه هذا مع بنيامين فرانكلين مندوب المستعمرات الامريكى . ولم يخرج ذلك الكتاب من المطبعة الا فى التاسع من مارس سنة ١٧٧٦ . ومنذ ذلك التاريخ طبع منه عدة طبعات ، وترجم الى معظم اللغات الحية فى العالم .

كان كتاب «ثروة الامم» دائرة معارف أكثر منه مجرد

رسالة في الاقتصاد . وأطلق عليه أحد النقاد اسم «تاريخ ونقد جميع الحضارات الأوروبية» . بدأ سميث بمناقشة موضوع تقسيم العمل ، ثم عرج على نشأة النقود وفائدتها ، وأسعار السلع ، وأجور العمل ، وأرباح التجارة ، وإيجار الأرض ، وقيمة الفضة ، والفرق بين العمل المنتج وغير المنتج . بعد ذلك شرح التقدم الاقتصادي في أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وقام بتحليلات واسعة لنقد السياسات التجارية والاستعمارية للامم الأوروبية ، ودخل الملك ، ومختلف طرق الدفاع عن العدل ، واقامته في المجتمعات البدائية ، ونشأة ونمو الجيوش القائمة في أوروبا ، وتاريخ التعليم في العصور الوسطى ، ونقد للجامعات في عصره ، وتاريخ القوة الدنيوية للكنيسة ، وتضخم الديون الشعبية ، وى ائنهاية اختبار لمبادئ نظام الضرائب وانظمة الدخل العام .

قد تكون القضية العامة التي بنى عليها سميث كتابه «ثروة الأمم» من وضع نيقولو ماكيافيلي Niccolo Machiavelli وبصها : كل بشر تحركه أولا وقبل كل شيء ، مصالحه الشخصية . وليسبت الرغبة في الثروة الا احد المظاهر هذه . وتقف دوافع الانانية وراء جميع أنشطة البشرية . وزيادة على هذا ، فبدلا من ان يجد سميث ان هذا المظهر في سلوك الانسان ممنوع وغير مرغوب فيه ، اعتقد ان انانية الفرد تؤدي الى صالح المجتمع . قال ان خير طريقه لرفاهية الامة ، هي السماح لكل انسان بان «يبدل جهدا منتظما ومستمرًا بدون انقطاع لتحسين حالته . . . لان توقع الحصول على غذائنا من انسانية الجزار او صانع البيرة او الخباز ، بل من نظرتهم الى صالحهم . اننا نخاطب انفسنا ، ليس عن حبهم لخير البشر ، وانما عن حبهم لانفسهم ، ولاتحدث اليهم قط عن حاجتنا وانما عن منفعتهم» . وبسبب امثال هذه الفقرات ،

تحدث راسكين Ruskin عن سميث على أنه «الرجل الاسكتلندي ذو نصف التربية ونصف الذكاء ، الذي علم التجديف الصريح ، «انك ستبغض الرب الهك ، وتلعن ناموسه ، وتحسد جارك على خيراته » .

قال سميث : «أن الصناعة الحديثة تغدو ممكنة بتقسيم العمل ، وتكديس رأس المال . وكل من هذين مفسر بالصالح الشخصي أو «النظام الطبيعي» ، كما وصفه فلاسفة القرن الثامن عشر . ودون وعى ، تقود «يد الهية» الانسان كى يسهم فى خير الكل بالعمل من أجل نفسه ومن أجل ربحه . ومن الطبيعى أن يتبع ذلك ، أنه يجب أن يكون هناك أقل قدر ممكن من تدخل الحكومة فى النظام الاقتصادى - فخير حكومة ، كما قال توم بين فى مناسبة اخرى ، هى الحكومة التى تحكم بأقل مايمكن من الحكم .

تناول سميث صناعة الدبايس ، كتفسير بيانى لشرح مزاجنا تقسيم العمل : «فالصانع الذى لم يتعلم هذه الصناعة . . ولايعرف طريقة استعمال الآلات المستخدمة فيها . . . فربما أنه قلما يستطيع بأكبر جهد أن يصنع دبوسا واحدا فى اليوم ، وبالتأكيد لا يستطيع اطلاقا أن يصنع عشرين دبوسا» . ويتقسيم عملية الصنع «الى ثمانى عشرة عملية متفرقة ، تقوم بها جميعا فى بعض المصانع ، عدة أياد متفرقة . . . رأيت مصنعا صغيرا من هذا النوع حيث يعمل عشرة رجال فحسب . . . يصنعون فيما بينهم ثمانية وأربعين ألف دبوس فى اليوم» كان هذا «نتيجة للتقسيم الصحيح لعملياتهم الصعبة وتجميعها» .

وأردف سميث يقول ان نشأة تقسيم العمل كانت عند الشعوب البدائية :

فمثلا ، يوجد بين أفراد قبيلة من الصيادين أو الرعاة ، شخص معين يقوم بصناعة القسي والسهام بحذق ومهارة أكثر من أى شخص غيره فى تلك القبيلة . فغالبا مايقايض هذا الشخص على القسي والسهام بالماشية أو بلحوم الصيد مع زملائه . فيحدد انه بهذه الطريقة يحصل على ماشية ولحوم صيد أكثر مما لو أنه ذهب بنفسه الى الحقل ليصيدها . وعلى هذا ، فمن نظرته الى صالحه ، صارت صناعة القسي والسهام عمله الرئيسى ..

ويتفوق شخص آخر فى صناعة هياكل وأغطية أكواخهم الصغيرة أو بيوتهم المتنقلة ..

وبنفس هذه الطريقة يصير شخص ثالث حدادا أو نحاسا ، ويدغو شخص رابع دباغ جلود .. وهكذا ، اذ يتأكد كل فرد من قدرته على مبادلة كل مايزيد عن حاجته مما يصنعه بنفسه ، بما يزيد عن حاجة رجل آخر مما صنعه هذا الاخير ، كلما سنحت له الفرصة ، فان هذا يشجع كل انسان على أن يقصر جهده على عمل واحد بعينه ، وينمى فى نفسه كل حذق وبراعة وموهبة يملكها لاتقان ذلك النوع المعين من العمل الذى ارتضاه لنفسه .

ينتقل سميث بعد ذلك الى موضوع النقود وأسعار السلع ، فيذكر مبدأ يهاجمه علماء الاقتصاد الاصليون على أنه خطأ ، ولكنه أقر فى حقبات تالية على أنه صرخة وثرثرة المفكرين الاشتراكيين ، فيقول سميث : «العمل وحده لاتتغير قيمته أبدا ، وهو وحده المستوى الحقيقى والاخير ، الذى به تقدر وتقارن جميع السلع ، فى جميع الازمنة والامكنة . انها ثمنه الحقيقى ، أما النقود فثمنه الاسمى فقط » .

لم يكن سميث أكثر صراحة فى أى موضع آخر من كتاب «ثروة الامم» ، وأحيانا ليس أكثر سخطا ، منه فى تعليقاته على

عدم المساواة في المساومة بين أصحاب العمل والعمال ، وفي معارضته لفكرة المتاجرة القائلة بأن الأجور المنخفضة تجبر العمال على أن يعملوا أكثر ، وبذا يزيدون في رخاء انجلترا . فيبدي ملاحظته على النقطة الأولى قائلا : «يرغب العمال في الحصول على أكثر مايمكن ، ويرغب السادة في إعطاء أقل مايمكن . فوطب العمال العزم على الاتحاد ليرفعوا أجور العمل ، واتحد أصحاب العمل ليخفصوها » .

ويستطرد قائلا :

اذن ، فليس من الصعب التنبؤ بمن من هذين الطرفين سيكون له انفوز ، في جميع الظروف العادية ، في هذا النزاع ، فيجبر الآخر على التسليم بشروطه . ولما كان أصحاب العمل أقل عددا ، فيمكنهم الاتحاد بسهولة أكثر ، فضلا عن أن القانون دائما الى جانب السلطات ، أو على الأقل ، لا يحرم اتحاداتهم بينما هو يحرم اتحاد العمال . ليس لدينا قرارات برلمانية ضد الاتحاد لخفض أجور العمل ، ولكن هناك قرارات كثيرة ضد الاتحاد لرفعها . وفي جميع أمثال هذه النزاعات ، بوسع أصحاب العمل الصمود مدة أطول بكثير . فصاحب الارض أو المزارع أو صاحب المصنع ! والتاجر ، يمكنهم ، حتى ولو لم يجدوا واحدا ان يصمدوا ، عموما ، لمدة سنة أو سنتين بما أدخروه من قبل من مكاسبهم ، بينما لا يستطيع كثير من العمال الصمود أكثر من أسبوع ، ويستطيع قليلون الصمود مدة شهر وقلما تجد من بوسعه أن يصمد بدون عمل مدة سنة . ومع الوقت الطويل ، قد يصبح العامل ضروريا لصاحب العمل ضرورة صاحب العمل للعامل ، ولكن هذه الضرورة ليست هكذا مباشرة .

يبدو عطف سميث الواضح على العمال الفقراء في مثل هذه الفقرات :

« يتكون الجزء الاعظم فى كل مجتمع سياسى من الخدم والعمال والصناع على اختلاف انواعهم ، ولكن ما يعمل على تحسين ظروف هذا الجزء الاعظم لا يمكن اعتباره ، بحال ما ، متعباً للمجموع . فما من مجتمع يوسعهُ أن يعيش سعيداً فى رخاء ، طالما كان هذا الجزء الاعظم من أعضائه فقيراً بائساً . هذا مؤكد . وعلاوة على ذلك ، فإنه من العدل أن يحظى أولئك الذين يقدون ويكسبون ويسكنون جموع الشعب كلها ، بنصيب من إنتاج عملهم ، فيتمتعون بالغذاء . الغذاء والمسكن اللائمين .. وهذان مكافأة حرة على العمل .. تزيد فى نشاط سواد الشعب . وأجور العمل تشجع النشاط ، الذى هو كآبة صفة بشرية أخرى ، يتحسن بنسبة ما يناله من تشجيع .. واننا لنجد العمال أكثر نشاطاً واجتهاداً وسرعة حيث الأجور عالية ، منهم حيث الأجور منخفضة » .

ثم يقول :

« يشكو تجارنا وأصحاب مصانعنا من الشكوى من الأثر السئ الذى تحدثه الأجور العالية فى ارتفاع الأسعار ، وبالتالى قلة مبيعات منتجاتهم محلياً وفى الخارج ، ولا يقولون شيئاً عن الأرباح العالية . أنهم صامتون عن الأثار الوبيلة لأرباحهم . أنهم يشكون فقط من أرباح غيرهم » .

تبأ سميت بنظريات مالثوس قبل نشر كتاب « مبادئ السكان » بائنتين وعشرين سنة .

« تتكاثر كل فصيلة من الحيوانات طبيعياً بالنسبة إلى وسيلتها فى الحياة ، ولا يمكن لأى فصيلة أن تتكاثر بما يزيد على تلك الوسيلة . أما فى المجتمع المتحضر ، فنجد بين الطبقات الدنيا فقط من الناس ، أن قلة مقومات الحياة هى التى تحد من تكاثر

الاجناس البشرية ، ولايمكنها ان تفعل ذلك باية طريقة غير اعادة الجزء الاعظم من الاطفال الذين يولدون نتيجة للزواج المشمر .

وبالنظر الى ارياح العمل في العصور الحديثة ، من الصعب تصديق كل تلك الممنوعات والقيود الاقطاعية التي سادت في القرن الذي عاش فيه آدم سميث . لم يكن تحريم اية صورة من صور التنظيم العماني سوى احد القيود الصارمة المفروضة على العمال . كما كانت قوانين التلمذة الصناعية ، وقانون الإقامة اشد واكمى من القيد السابق .

يرجع تاريخ قانون التلمذة الصناعية الى عصر الملكة اليزابيث . وكما يصفه سميث ، ينص على «انه محظور على اى شخص ان يمارس في المستقبل اية حرفة أو مهنة أو اى عمل غامض ، في انجلترا ، في ذلك الوقت ، الا اذا كان قد سبق له ان تتلمذ في ذلك العمل لمدة سبع سنوات على الاقل » . وفي أثناء هذه السنوات السبع ، كان صاحب العمل يمد التلميذ بالقوت الضرورى فحسب . وبطبيعة الحال ، انتهز أصحاب العمل المدومو الضهير هذا القانون كى يستغلوا عمالهم ليأخذوا الكثير ويعطوا القليل ، بينما كان الصناع المتعلمون أشبه بالعبيد . ولكى يشهر سميث بهذه الطريقة ، قرر انه لا حاجة اطلاقا لمدة التلمذة الطويلة هذه ، لانه بالامكان استيعاب معظم الحرف في بضعة أسابيع . ثم ان قوانين التلمذة الصناعية كانت تدخلا تعسفيا في حقوق العامل يمنعه من ابرام عقد عمله ، ومن اختيار عمله ومن الانتقال من عمل قليل الاجر الى عمل آخر اكثر اجرا .

وبالمثل ، كان قانون الإقامة ظلما أيضا : «اجرؤ على القول بأنه قلما يوجد رجل فقير في الأربعين من عمره ، في انجلترا ، لم يشعر في اى وقت من حياته بأنه مغبون غبنا اى غبن بسبب قانون

الاقامة هذا » . وكما حدث في قانون التلمذة الصناعية ، صدر ذلك القانون في العصر الاليزابيثي أيضا . كان الغرض الاساسي منه اقرار النظام في توزيع اعانات الفقر . كانت كل ابروشية مسؤولة عن الاهتمام باعضائها الفقراء . ولمنع زيادة عدد الفقراء في المجتمع ، لم يسمح للفقراء الجدد بالاقامة هناك الا اذا كان لهم معين يكفل معيشتهم . وبتطبيق هذا القانون على العمال ، كان الاثر العملي لهذا القانون خلق طبقة من المسجونين مؤبدا في مسقط رأسهم ، واضعا عقبات كاداء في طريق العامل الراغب في الانتقال من منطقة الى اخرى . كان هناك مثل أيضا ، في تقدير آدم سميثا لعدم المساواة في تدخل الحكومة في حقوق الانسان وفي الناموس الطبيعي للنظام الاقتصادي .

حاول سميث التمييز بين العمل المنتج والعمل غير المنتج بقوله :

« لن تفتقر الامم العظمى بالتبذير العام وسوء السلوك ، ولو انها قد تفتقر بهما احيانا ، فكل الدخل القومي أو معظمه ، في معظم الدول ، يستخدم في الاحتفاظ بالايدي غير المنتجة . هكذا الشعوب التي تحتفظ ببلاط فخم كبير العدد ، وبمؤسسة اكليريكية كبيرة ، واساطيل عظامية وجيوش ضخمة ، تلك التي ، في زمن السلم ، لاتنتج شيئا بعوض ماينفق على الاحتفاظ بها ، حتى ولو كانت الحرب قائمة . فمثل اولئك الناس ، الذين لاينتجون شيئا ، يعيشون بما ينتجه عمل اناس آخرين . واذا ضوعفوا الى عدد غير ضروري ، فانهم في سنة معينة يستهلكون جزءا عظيما من هذا الانتاج غير تاركين مايكفي للاحتفاظ بالعمال المنتجين » .

ولسوء الحظ ، أن المستعمرات الامريكية لم تلق بالا كذلك الى النصائح السليمة عن عمل العبيد .

«اعتقد ان تجارب جميع العصور وكافة الامم ، تبرهن على ان العمل الذى يقوم به العبيد ، رغم انه يبدو انه لا يكلفهم سوى نفقات الاحتفاظ بأولئك العبيد ، فهو فى النهاية أغلى عمل . فالشخص الذى لا يمكنه اكتساب اية ممتلكات لا يمكنه الحصول على اية منافع الا ان يأكل أكثر ما يستطيع ، ويعمل أقل ما يمكن . فأى عمل يقوم به أكثر مما يكفى لشراء ما يلزم لحياته ، لا يمكن اعتباره منه لا بالعنف ليس غير ، لا بمحض ارادته واختياره» .

بعد ذلك انتقل سميث من قضايا العمل الى الدفاع عن اصلاح قضايا الارض . وهنا أيضا يرى ان انلوائح الحكومية غير الحكيمة ، وانقوانين غير الملائمة ، تقف فى طريق التقدم . فمعظم الاراضى البريطانية فى القرن الثامن عشر ، كانت خاضعة للوصاية . بوسع مالك الارض أن يصدر قواعد لتقسيم أرضه وبيعها ، يلتزم بها ورثته لعدة قرون بعد موته . ومن العادات القديمة الاخرى ، حق الابن الاكبر فى جميع الميراث عن والديه . وهذه عادة افطاعية تمنع تفتيت الملكيات الكبيرة . فهذا القانون يكون الابن الاكبر «و الوارث الوحيد . وقد علق سميث على هذا بقوله : «لاشئ يمكن ان يضر بصالح اية أسرة كبيرة ، الا ذلك الحق ، الذى لكى يعنى فردا واحدا منها ، يسوق بقية الاولاد الى فقر يودى بهم الى مد ايديهم للسؤال» . وعلى هذا ، حث بالحاح على حرية الاتجار فى الاراضى بالغاء قوانين التوصية وقانون حق الابن الاكبر فى الميراث ، وغير هذه من قيود نقل ملكية الاراضى بالهبه او بالتوصية او بالبيع .

تتناول فقرة شهيرة من كتاب «ثروة الامم» ، المستعمرات ، ويؤكد مصدر حجة ، أن هذه «لاتزال أفضل ملخص لسياسة المستعمرات ، كتب حتى ذلك الوقت» . وتنقسم مناقشة هذه القضية الى ثلاثة اقسام : (1) «دوافع اقامة مستعمرات جديدة» .

استعرض فيها المشروعات الاستعمارية لكل من اليونان وروما وإفينييسيا والبرتغال وإسبانيا . (٢) «أسباب رخاء المستعمرات الجديدة» ، تذكر تلك العوامل ، مثل الأراضي الواسعة والرخيصة ، والأجور العالية ، ونمو السكان السريع ، والمعاملة المستعمرين بالزراعة والفنون الأخرى . (ويقارن بين السياسات الاستعمارية المستنيرة لانجلترا ، وبين السياسات الاستعمارية الضيقة والمقيدة لكل من البرتغال وإسبانيا . (٣) «عن الميزات التي حصلت عليها أوروبا من اكتشاف أمريكا ، ومن طريق الوصول إلى جزر الهند الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح» . وهذان اكتشافان يقول عنهما سميث : «انهما أعظم وأهم اكتشافين سجلهما تاريخ البشرية» .

هاجم سميث القيود الموضوعة على المستعمرات لاحتكار تجارتها فقال ، أنها اعتداء على «الحقوق الطبيعية» لتلك المستعمرات كان النظام التجاري في المستعمرات سخيفا وباهظ النفقات ، شأنه شأن النظام المستعمل في الدولة المستعمرة نفسها . كذلك كان هناك استنزاف مالي للقوة المستعمرة ، لان المستعمرات ان ترضى بمحض اختيارها ، أن تفرض على نفسها ضرائب تكفي نفقات الدفاع عن نفسها .

استطاع سميث أن ينظر إلى المستعمرات الأمريكية المتمردة بموضوعية أكثر من نظرة معظم مواطنيه . اعتقد أن الحل المناسب لهذه القضية هو تمثيل تلك المستعمرات الأمريكية في البرلمان البريطاني - الاتحاد بدلا من الانفصال ، بتمثيل مبنى على الدخول الضريبية . وإذا انتهى الأمر ، كما يمكن أن ينتهي ، بأن يزيد الأمريكيون في الضريبة البريطانية ، فإنه من الممكن نقل تلك الأموال عبر الأطلنطي «إلى جزء الإمبراطورية الذي أسهم أكثر من غيره في الدفاع العام وتأييد الكل» . قد يكون هذا ردا على تأكيد توم بين بأنه من السخافة الاعتقاد أن بوسع جزيرة أن تستعمر قارة استعمارا دائما . إذ عندئذ يجب أن تنعكس الأوضاع .

أكد سميث على ضرورة استقلال المستعمرات الامريكية اذا لم يكن تسوية الخلافات سلميا بينها وبين انجلترا ، ولو انه اعترف بالواقع ، فقال : « ان الاقتراح بان تتنازل بريطانيا العظمى عن كل سلطة لها على مستعمراتها ، وتركها تنتخب حكامها وتشرع قوانينها ، وتصنع السلم او تعلن الحرب كما يتراءى لها الاصلح لنفسها ، يعنى اقتراح نظام لم يحدث قط من قبل ، ولن تتخذة اية امة في العالم . . . فما اصعب ما يصير حكمها ، وما اقل الدخل الذى تدفعه بالنسبة الى النفقات التى انفقت عليها ! » .

يتجلى رأى سميث النير وبصيرته الثاقبة في هذه الفقرة التى يتنبأ فيها بمستقبل أمريكا :

« لقد تحول اهالى المستعمرات الامريكية ، من بائعين وتجار وقضاة الى سياسيين ومشرعين ، استخدموا في تكوين صورة جديدة من الحكومة الامبراطورية واسعة ، معللين انفسهم بانها ستصير اعظم واقوى امبراطورية شهدها العالم ، ومن المتوقع ان يحدث هذا » .

ان اشهر قسم ، وهو بيت القصيد ، في كتاب « ثروة الامم » ، هو الجزء الرابع وعنوانه « عن أنظمة الاقتصاد السياسى » . تناول فيه سميث نظامين مختلفين : نظام التجارة ونظام الزراعة ، وشغل موضوع التجارة مكانا يبلغ ثمانى مرات ماشغله الكلام عن الزراعة . فتناول مبادئ « حرية العمل » التى اقترنت باسمه منذ ذلك الوقت . وقد انتهت المناقشة الخاصة بكل من العمل والاراضى والسلع والنقود والاسعار والزراعة والماشية والضرائب الى نقطة واحدة هى حرية التجارة داخليا وخارجيا . لن تحصل الاممة على التقدم الكامل والرخاء الا عن طريق التجارة غير المقيدة ، فى الداخل وفى الخارج . . ناشد سميث الامم الغاء الرسوم الجمركية والتبرعات والتحرير من النظام التجارى ، والاحتكارات التجارية

للشركات المتهددة . فكل هذه القيود تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع الى المستهلكين . كما تترك المبدأ الزائف ، مبدأ «التوازن التجارى» الذى يحبذه التجار . ليست النقود سوى أداة «وليس هناك مقياس يمكننا بواسطته معرفة على أى جانب يقع مايسمى بالتوازن التجارى بين دولتين أو أى منهما تصدر بأكبر قيمة . . ليست الثروة فى النقود ولا فى الذهب ولا فى الفضة ، وانما فيما تشتريه النقود ويستحق الشراء فعلا» .
وتقسيم العمل ضرورى ومنطقى بين الامم كما هو بين الافراد .

« الميزات الطبيعية لدولة على أخرى فى إنتاج سلع بعينها ، عظيمة فى بعض الاحيان ، لدرجة ان العالم كله يعلن أية من العيب منافستها فى تلك السلع . فبواسطة الاقبية الزجاجية والاحواض والحوائط الدافئة يمكن إنتاج أنواع من العنب بالغة الجودة فى اسكتلندة . وكذلك يمكن صنع نبيذ جيد جدا منها بثغقات تبلغ ثلاثين ضعفا ، على الأقل ، لما يمكن جلبه من الدول الاجنبية ويكون مماثلا له فى الجودة . فهل يكون من المعقول اصدار قانون يحرم استيراد جميع الانبذة الاجنبية لمجرد تشجيع صنع النوعين المعروفين بالكلاريت Claret والبرجندى Burgundy فى اسكتلندة ؟ »

اخص سميث الميزات الاقتصادية للتجارة الحرة فى هذه الحقائق :

« شعار كل رب أسرة حازم الا يحاول ان يصنع فى منزله مايلكفه صنعه أكثر مما يدفع فى شرائه . . . وماهو حزم فى مسلك كل أسرة قلما يكون غباء فى مملكة عظمى . فاذا كان بوسع دولة اجنبية ان تورد لنا سلعة بأرخص مما يكلفنا صنعها بأنفسنا ،

فمن الخير ان نشتريها منها نظير نوع ما من منتجات صناعتنا ،
مستخدمة بطريقة تحقق لنا بعض الميزات .

أكد سميث المنافع المتبادلة من التجارة الأجنبية بقوله :

« اذا تمت تجارة أجنبية بين اى مكانين ، حصل كل منهما
على فائدتين واضحتين . تأخذ تلك التجارة فائض انتاج أرض
وعمل كل منهما الذى ليس له طلب فيهما ، وتجلب بدلا منه شيئا
له طلب . . . وبهذا التبادل لا يعوق ضيق السوق المحلية تقسيم
العمل فى اى فرع بعينه من الفنون أو الصناعة أن يسير الى أعلى
درجات الكمال . واذا ما فتحت دولة ما سوقا أوسع لأى جزء من
انتاج عملها يفيض عن الاستهلاك المحلى فيها ، فانها تشجع بذلك
قوتها الإنتاجية وتحسنها وتزيد فى انتاجها السنوى الى أقصى
حد ، وبدا تزيد فى الدخل الحقيقى والثروة الحقيقية للمجتمع .

يتضح ان سميث كان عقيدا محضا فى تأكيده على حرية
التجارة مع بعض استثناءات أو تحديدات معينة رغب فى ابدالها
لتطبيق هذا المبدأ ، فأشار فى بضع حالات بقوله : «ومن المفيد
عموما القاء بعض الأعباء على الصناعة الأجنبية لتشجيع الصناعة
المحلية . وأول تلك الأعباء ، هو عندما يلزم نوع معين من الصناعة
للدفاع عن الدولة «حتى ولو لم يكن تحقيق ذلك لاسباب اقتصادية
محضة ، لأن «الدفاع أهم بكثير من الرخاء» . ولما كان سميث
يعيش فى دولة محاربة ، فقد سلم بأن الامم الفنية التى من المفيد
لنا أن نتبادل معها التجارة فى وقت السلم تغدو أعداء أشد خطرا
فى وقت الحرب من الدول الفقيرة . كما وافق على أن اصدار
تعريفة جمركية وقائية على «الصناعات الناشئة» يساعدها على
النمو بسرعة أكثر ، ربما الى درجة تسمح بامكان الدفاع عنها
اقتصاديا . وزيادة على ذلك ، أوصى سميث بأن كل تخفيض فى
التعريفة الجمركية يجب أن يتم «بطء وتدرجيا وبعد تحذير

طويل جدا» . وذلك لحماية الاستثمارات النباتية في الصناعة غير القادرة على الصمود أمام المنافسة الأجنبية ، ولتزويد العمال بمهنة يبحثون فيها عن أعمال جديدة . كانت هذه اعترافات راقعية لمجادلات خصوم التجارة الحرة .

إذا رفعت الحكومة أيديها عن الأعمال والصناعة والزراعة ومعظم الأنشطة اليومية للامة ، كما قال سميث ، فما الذي يعتبره وظائف مناسبة للحكومة؟ سيكون نطاق المسؤولية ضيقا . فالوظيفة الأساسية للحكومة تقتصر على صد الهجوم الأجنبي وإقامة العدل، وكذلك يرغب سميث في أن تقوم الحكومة «بتشييد وصيانة أنواع معينة من الأشغال العامة ، وبعض المؤسسات العامة ، التي لا يمكن إطلاقا أن تكون لصالح أي فرد أو لصالح عدد بسيط من الأفراد تشدها وتصونها ، لان الفائدة لأي فرد أو لعدد بسيط من الأفراد، لا يمكن أن تعوض نفقاتها ، ولو أنها كثيرا ماتفيد المجتمع الكبير بأكثر من نفقاتها» . وقد ذكر سميث في القائمة البسيطة التي جردها لوظائف الحكومة ، صيانة الطرق الرئيسية وإضاءة شوارع المدن ، وإمداد الأهالي بالماء . وهكذا رأى آدم سميث هدرا بسيطا لبقاء ما أطلق عليه «الحيوان المراوغ المكار الذي يحمل اسما مبتدلا نسميه : السياسي» خارج المحافظة على الامن الخارجى والنظام الداخلى .

كان سميث في أحد استثناءاته سابقا كثيرا لعصره - اسهام الحكومة في تعليم الشعب ، ويعلق في تدعيم حجته بخصوص التعليم الشعبى ، بقوله :

« الرجل الذى لا ينتفع الانتفاع المناسب بالموهب العقلية للانسان ، يستحق الأزدراء ، ان أمكن ، أكثر من أزدرائنا للجان ، ويبدو مشوها في عضو رئيسى من أعضاء أخلاق الطبيعة البشرية . ورغم أن الحكومة لاتجنى فائدة من تعليم الطبقات الدنيا من

الشعب ، فمما يستحق اهتمامها الا يكونوا غير متعلمين تماما . ومع ذلك ، فلاتجنى الحكومة فائدة كبيرة من تعليمهم . فكلما كانوا متعلمين ، كانوا اقل عرضة للانسياق في تيار الخزعبلات والخرافات التي تسبب افظع حالات الاخلال بالنظام بين الامم الجاهلة . وزيادة على ذلك ، فان الشعب المتعلم الذكي اكثر احتشاما ونظاما من الشعب الجاهل الغبي . يشعر كل فرد منهم بأنه محترم وبأنه جدير باحترام رؤسائه الشرعيين . وعلى ذلك ، يكون اكثر استعدادا لان يحترم اولئك الرؤساء . . وفي الدول الحرة ، حيث يتوقف أمن الحكومة كثيرا جدا على الحكم الذي يكونه الشعب على مسلك هذه الحكومة . ولهذا يكون من المهم جدا الا يكون الشعب ميالا الى الحكم عليها بتهور أو بتعصب .

ان تقدير آدم سميث وكتابه غير المتحيز وقيم المحابي ، معتقد حتى بعد مرور حوالى مائتى عام . فمثلا ، هناك نظرة باكل Buckle في كتابه « تاريخ المدنية » اذ يقول : « ربما كان كتاب ثروة الامم . . . اهم كتاب وضع ، سواء اعتبرنا مايضمه من كمية الفكر الاصلى ، او نفوذه العملى » . ويقول ماكس ليرنر Max Lerner ، ولو انه كان اقل ميلا الى سميث : « ربما فعل كتاب ثروة الامم مثل ما فعله اى كتاب حديث في تشكيل منظر الحياة كله كما نعيشها اليوم » . ابدى ليرنر ملاحظته ببصرة % فقال : « من قرءوا ذلك الكتاب هم الذين ارادوا الافادة من نظرتهم الى العالم - الطبقة الثائرة من رجال الاعمال ولجانهم التنفيذية السياسية في برلمانات العالم ، ولجانهم التنفيذية الدهنية في الاكاديميات . وعن طريق هؤلاء استطاعت تلك الطبقة ان يكون لها نفوذ ضخم على سكان العالم الآخرين ، رغم أنهم عموما ، لم يكونوا معروفين لهم ، وعن طريقهم ايضا كان لهم نفوذ عظيم على الآراء الاقتصادية والسياسة القومية » .

أيد حكم هذين الحجّتين ، العالم الاقتصادي الانجليزي الشهير ج.أ.ر. ماريوت J.A.R. Marriott ، الذي أبدى ملاحظته قائلا . « ربما لا يوجد أى مؤلف فى اللغة كان له ، فى عصره ، مثل ذلك الاثر العميق على كل من الفكر العلمى الاقتصادى وعلى العمل الادارى ، على حد سواء . وهناك أسباب قوية فى انه لايزال له هذا الاثر » . وأضاف عالم اقتصادى آخر هو و.و. سكوت W.R. Scott « كان سميث ، من الناحية الذهنية ، أستاذا فى رؤية الحياة الاقتصادية باستمرار وككل » .

ومن ناحية أخرى ، وجد كثير من المفكرين الاحرار المتطرفين ، انه من الصعب عليهم أن يفتفروا لسميث تماديه فى مبدأ «حرية العمل» الذى مارسه رجال الاعمال ورجال الصناعة الذين اعتبروا مؤلف سميث انجيلهم . هذا ، وان المذاهب التى دافع عنها لحماية العامل والمزارع والمستهلك والمجتمع عموما قد حرقها اناس عديمو المبدأ مغرضون ، الى قذف دنىء لا ضابط له من أجل نفوسهم ، تحت سمع الحكومة وبصرها دون أن تتدخل .

كذلك هناك الجدل القديم عن ايها أسبق ، أهو الكتكوت ام البيضة . هل كان لمبادئ سميث أن تتسع فى نمو التجارة والصناعة لو انه لم يكتب كلمة واحدة ، أو هل كان لكتابه « ثروة الأمم » أن يحدث تلك التغيرات الواسعة التى تلت نشره ، مقدما فلسفة وخطة للحركة الجديدة ؟ ربما كانت الحقيقة فى موضع ما بمنتصف الطريق .

وانا لنعترف بأن آدم سميث اختار العصر الصحيح لميلاده فوقف فى منتصف الطريق بين حقتين تاريخيتين . نادى بالحرية الاقتصادية الجديدة فأصغى اليه عالم متقبل ، وأفاد من مبادئه للحصول على تحول اقتصادى عظيم . وفى اثناء الانقلاب الصناعى ، أدرك رجال الأعمال البريطانيين سلامة مذاهب سميث ، فنبذوا

القيود والامتيازات التجارية . وفي القرن التاسع عشر أبرزت
هذه المذاهب بريطانيا الى العالم كأغنى أمة . وقلما كانت آراء
سميث أقل تأثيرا على كبرى الدول التجارية الأخرى . وقليلون
هم الذين ينكرون أن آدم سميث يستحق بجدارة لقب « أبو علم
الاقتصاد الحديث » .

٤ - أفواه كثيرة

ثوماس مالثوس THOMAS MALTHUS

مقال عن : مبدأ السكان

مما أثار المتعة المحبوبة في أواخر القرن الثامن عشر ، خيالات
العالمين وقدذاك . فقد أوحى المثالية المقترنة بالحركات الثورية
في أمريكا وفرنسا ، الى الخياليين بأن يستنتجوا أن كمال
الإنسان قد لاح فوق الأفق ، واقترب خلق جنه أرضية .

ومن بين أولئك العالمين اثنان ، أحدهما وليم جودوين
William Godwin في إنجلترا ، والماركيز دى كوندورسيه
Marquis de Condorcet بفرنسا . وكان لهدين أتباع
بالقوة الاخلاص ، نادوا بعدد كبير من الأمانى والخيالات لانبثاق
يوم جديد . وقد ذكر جودوين في كتابه « العدل السياسى »
آراء نموذجية بالمتفائلين الراسخين في التفاؤل ، مؤداهم انه
« سياتى يوم تكون فيه ممثلين بالحيوية فلا نحتاج الى أن ننام ،
ومفعمين بالحياة فلا نحتاج الى أن نموت ، ويتغلب تأكيد تنمية

القوى الذهنية على الحاجة الى الزواج . وبالاختصار ، يفتدو الناس كالملائكة » . تغنى بأنه يتوقع ان « تتمشى تحسينات اخرى مع تحسن الصحة وطول العمر . لن تكون هناك حروب ولا جرائم ولا اقامة عدل ، كما يسمونها ، ولا حكومة . وعلاوة على هذا ، لن تكون هناك امراض ولا آلام ولا احزان ولا غيظ . سيسعى كل انسان بحماس شديد الى خير الجميع » .

كتب جودوين لازالة الخوف من مواجهة عدد كبير جدا من السكان مع وجود كميات قليلة جدا من الطعام ، كتب يقول : « قد تمر بلايين القرون ذوات عدد السكان المتزايد باطراد ، والأرض دائبة على اعطاء الطعام الكافي لحياء سكانها » . واخيرا ، فكر في ان النزوة الجنسية قد تضمحل ، كما اقترح كوندورسيه انها قد تتم بغير نسبة عالية من التكاثر .

اغرت هذه الفقايع الجميلة بوخزها ، فأعد الابرة شاب اكليركي سليط اللسان اسمه توماس روبرت مالثوس ، يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، كان زميل كلية يسوع بكامبريدج . كان رده على انصار الكمال الاجتماعى ان أصدر « مقالا عن مبدأ السكان » فى سنة ١٧٩٨ ، صار احد الكتب الكلاسيكية العظمية فى الاقتصاد السياسى .

عاصر مالثوس آدم سميث وتوماس بين ولو انه يصفرهما كثيرا . وهو ثاتى ابناء دانييل مالثوس ، أالرجل الريفى الميسور الحال وصديق روسو Rousseau ومدير مزرعته ، وكان من أشد المعجبين بجودوين . وكان الأب والابن مولعين بالجدال . فكان توماس يهاجم الآراء الخيالية ، بينما يدافع عنها دانييل . واخيرا ، قرر توماس ، تلبية لرغبة والده الملحمة ، أن يبين آراءه كتابه ، فكانت النتيجة ذلك المقال ، وهو كتاب أحدث أثرا عميقا خلال ال ١٥٦ سنة الماضية على الفكر البشرى والحياة البشرية،

وربما لم يكن هذا الأثر واضحا في أى عصر أكثر مما هو في العصر الحاضر . وما عمله آدم سميث قبل ذلك باثنتين وعشرين سنة في استفساره عن طبيعة وأسباب الثروة ، أكمله مalthوس بتحليل فاحص عن طبيعة وأسباب الفقر .

كان «مقال عن مبدأ السكان» وأثره على تحسين المجتمع في المستقبل ، مع ملاحظاته عن آمال المستر جودوين والمركزى دى كوندورسيه وغيرهما من الكتاب الذين نشروا آراءهم دون ذكر أسمائهم ، كان أكثر قليلا من كتيب (٥٠٠٠٠ كلمة) في طبعة سنة ١٧٩٨ ، ومن الجلى انه طبع منه عددا قليلا من النسخ ، لأن النسخ الموجودة الآن من تلك الطبعة نادرة جدا . وقال المؤلف بعد ذلك : « وضعت هذا الكتيب بناء على حافز ذلك الوقت ، وبالمواد القليلة التي كانت في متناول يدي في مركز ريفي » . لم تكن فكرة ذلك المقال جديدة ، لأن كثيرين من كتاب القرن الثامن عشر ، ومنهم بنيامين فرانكلين ، قد ناقشوا مسألة زيادة السكان ، ولكن ما من أحد منهم قدمها بمثل تلك القوة ولا بمثل هذا الحماس ولا يمثل هذه البصيرة الواضحة ، كما فعل مalthوس .

ذكر مalthوس فرضين أساسيين في بداية ذلك المقال :

أولا : الطعام ضرورى لحياة الإنسان ، وثانيا : الغريزة الجنسية ضرورية بين الجنسين ، وستظل في حالتها الراهنة تقريبا .

لم يفكر الخياليون انفسهم في ان الانسان قد يستطيع ، في النهاية ، أن يعيش بغير طعام .

ولكن المستر جودوين أعلن تخمينه بأن الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ستخمد في الوقت المناسب .. وتكونت خير

المجادلات عن كمال الانسان ، من التأمل في التقدم الذي أحرزه حتى الآن منذ حالته الوحشية .. ولم يحدث أى تقدم نحو خمود الفريزة الجنسية بين الذكر والأشى ، ويبدو انها لاتزال الآن بنفس القوة التى كانت عليها منذ الفى سنة أو أربعة آلاف سنة خلت .

واذ افترض ماثوس أن « رسالته » لم تكن قابلة للنقض .
أخذ يضع مبداه الشهر :

« .. أن قوة الانسان أعظم أكيدا من القوة التى فى الأرض لانتاج المادة للانسان . وإذا لم يوقف نمو عدد السكان ، فاهم سيزيدون بمتواليه هندسية ، بينما تزيد خيرات الأرض بمتواليه حسابية ليس غير . وان الامام البسيط بالأرقام ليبن ضخامة القوة الاولى بالنسبة الى الثانية » .

نمق ماثوس اقتراحه افضل من ذلك ، فأبرز قضيته بهذه الطريقة :

« بين الماكتين الحيوانية والنباتية ، نثرت الطبيعة بذور الحياة الى الخارج بيد سخية جدا ، وفى حرية . كانت تقتصد فى المكان والغذاء اللازم لتغذيتهما . فينكمش جنس النبات وجنس الحيوان تبعا لهذا القانون المقيد العظيم ، ولا يستطيع جنس الانسان ، مهما كانت قوة الأسباب ، أن يفلت منه . كانت آثاره بين النباتات والحيوانات ضياع البذور والمرض والموت قبل الأوان . أما بين الجنس البشرى فالبؤس والرذيلة » .

وفى تقدير ماثوس ، وضعت هذه الحقائق الصعبة والواقعية ، عقبات لا يمكن تخطيها فى طريق كمال المجتمع . وما من اصلاح ممكن استطاع ازالة ضغط القوانين الطبيعية ، تلك العقبات التى تمنع « وجود مجتمع ، يعيش كل أعضائه فى

رخاء وسعادة وراحة نسبية ، ولا يشعرون بأى اهتمام نحو تزويد أنفسهم وعائلاتهم بوسائل الحياة » .

اختار مالثوس لتوضيح عمل متواليته الهندسية زيادة عدد السكان في الولايات المتحدة « حيث وسائل الحياة أكثر ملاءمة ، فان اخلاق الناس أكثر نقاء » وبالتالي ، يقل تقييد الزواج المبكر » . . وجد مالثوس أن عدد السكان ، باستثناء الهجرة ، قد تضاعف في مدة ٢٥ سنة . فاستنتج من هذا البرهان انه حيث لا توضع قيود على الطبيعة ، وحيث لا يوجد تحديد للنسل ولا توازن ، يتضاعف عدد سكان الدولة في كل جيل . غير أن النقاد لفتوا النظر الى وجود عيوب في قاعدة مالثوس لأن الظروف التي كانت سائدة في الولايات المتحدة إبان الحقبة التي ذكرها مالثوس ، لم تكن نموذجية لأية حقبة أخرى في التاريخ الأمريكي ، ولا في تاريخ أية أمة أخرى .

استخدم مالثوس مقياسه عن زيادة عدد السكان في إنجلترا ، أي ان عددهم يتضاعف كل ٢٥ سنة ، ثم عرج على مسألة الغذاء ، فاستنتج أنه « باستخدام أحسن سياسية محكمة ، أي بزيادة رفعة الأرض وبتشجيع الزراعة ، يمكن مضاعفة انتاج تلك الارض في الخمس والعشرين سنة الأولى » .

بعد ذلك تبدأ المتاعب تتراكم في الجيل الثاني بينما يتضاعف عدد السكان مرة أخرى ، أي يصير أربعة أضعاف ما كان عليه أولاً بعد مضي خمسين سنة ، « ومن المستحيل افتراض أن الانتاج يمكن أن يصل الى أربعة أضعاف ما كان عليه أولاً . » فخير ما يمكن أن نأمل فيه هو زيادة موارد الغذاء الى ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل . وبالتعبير بالأعداد ، يكون قانون مالثوس لعدد السكان هو : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، . . والغذاء : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، . . الخ .

والنتيجة المنطقية لبحث مalthوس هو وجوب ايجاد وسيلة مستمرة لايقاف ازدياد عدد السكان واطخر الوسائل جميعا هو قلة الغذاء . ومجموعة « الوسائل المباشرة » تقع في مجموعة « ايجابية » ، وتشمل المساكن غير الصحيحة ، والعمل الشاق ، والفقر الشديد ، والأمراض ، وسوء تربية الأطفال ، والمدن العظمى ، والأوبئة والقحط . ومجموعة « مانعة » وهي : الكبت الأخلاقي والرذيلة .

تبع ذلك بنتائج عملية حتمية معينة ، في نظر مalthوس . فاذا كان للمخلوقات البشرية ان يتمتعوا بأعظم سعادة ممكنة ، وجب عليهم عدم القيام بالالتزامات العائلية الا اذا كان بوسعهم ان يمولوا عائلاتهم . أما من ليس لديهم موارد كافية ليعولوا أسرة ، فيجب عليهم عدم الزواج اطلاقا والتزام العزوبة . وعلاوة على هذه ، السياسة الشعبية كقوانين الفقراء التي يجب ان تمنع تشجيع طبقة العمال ومن اليهم على انجاب اطفال لا يمكنهم ان يكلفوهم .

« فالرجل الذي جاء الى العالم ولا يستطيع الحصول على القوت من والديه ، اللذين له عليهما حق عادل ، اذا لم يرغب المجتمع في عمله ، فليس له حق في اقل جزء من الطعام ، وليس له ، في الحقيقة ، عمل حيث يكون » .

كتب هذا ردا على مقال بين بعنوان «حقوق الانسان » . ليست الصدقة ، سواء اكانت خاصة ام حكومية ، مطلوبة ، لأنها تعطى نقودا للفقراء دون زيادة كمية الطعام الموجودة ، وبدا ترفع الأسعار وتخلق النقص في المواد . كذلك خطة الاسكان الشعبي ممنوعة لأنها تحث على الزواج المبكر ، وبالتالي زيادة عدد السكان . ولارتفاع الأجور نفس الأثر الضار . وعلى هذا

تكون الوسيلة الوحيدة للفرار من هذه المعضلة المعقدة ، هي
الزواج المتأخر مع « الكبت الأخلاقي » ، أى ضبط النفس عن
الشهوات .

الواقع ، فى نظر مالثوس ، ان أى مشروع لتحسين المجتمع
وتخفيف انتشار الفقر ، عرضة لأن ينتهى بزيادة المساوىء التى
سعى الى علاجها . وهذا السلك المتعنت المعادى للمجتمع من
جانب ذلك انساب الاكليريكى ، قد غير وجهات نظر علماء الاجتماع
فى جيله والأجيال التالية . ومع ذلك ، تقبل الأغنياء ، فى عصر
مالثوس ، والطبقات القابضة على زمام السلطة ، مذاهبه فى
حماس . اذا يقع اللوم ، فيما يختص بالفقر الواسع النطاق
والمساوىء الاجتماعية الأخرى ، على الزواج المبكر وكثرة النسل
بدلا من وقوعه على سوء توزيع الثروة .

يمكن توضيح مسلك مالثوس نحو برامج المعونة الحكومية ،
فى هذه الفقرة المأخوذة عنه :

« تميل القوانين الانجليزية الخاصة بالفقراء الى زيادة سوء
الحالة العامة للفقراء ، بهاتين الطريقتين : الأولى تميل الى زيادة
عدد السكان دون زيادة كميات الطعام اللازم لهم . قد يتزوج
الرجل الفقير دون ان يدرك انه غير قادر على ان يعول أسرته
معتمدا على نفسه فحسب . وعندئذ يمكن القول بطريقة ما ان
الحكومة تخلق الفقراء الذين تعولهم . ولما كان يجب ، فى حالة
زيادة عدد السكان ، ان توزع موارد الدولة على كل فرد بنسب
صغيرة ، فمن الجلى ان عمل أولئك الذين لا تعولهم معونات
البروشية ، يشتري كمية من الأغذية أقل مما سبق . وهذا
يسوق الكثيرين منهم الى طلب المعونة . والثانية ، تنص على ان
كمية الأغذية المستهلكة فى الملاجئ على فئة من المجتمع لا يمكن
اعتبارها عموما الفئة القيمة ، تنقص من ائصبة الأعضاء الأكثر

قيمة . وهكذا ، بنفس هذه الطريقة يجبر عدد آخر على التواكل » .

يختم مالثوس مقاله بملخص لآرائه :

« ينطبق نفس الشيء على ظروف أخرى . يمكن التأكيد بأن كثرة عدد السكان في أمة يتناسب مع كمية غذاء الإنسان التي تنتجها أو التي يمكنها الحصول عليها ، وتكون سعيدة تبعاً للحرية التي يوزع بها هذا الطعام ، أو الكمية التي يمكن أن يشتريها عمل يوم واحد . والدول المنتجة للقمح أكثر سكاناً من الدول ذوات المراعى . بيد أن سعادتها لا تتوقف على كثرة أو قلة عدد سكانها ، ولا على فقرها أو غناها ، ولا على شبابها أو شيخوختها ، وإنما على النسبة بين عدد السكان وكميات الطعام .

أثار ظهور مقال مالثوس عاصفة من النقد والاحتجاج والظن ، ولا سيما من مصدرين ، هما : المحافظون اللاهوتيون والمتطرفون الاجتماعيون . ويقول أهم كاتب لتاريخ حياته ، وهو بونار Bonar : « امطر ذلك المقال الافتراءات لمدة ثلاثين عاماً . » كان مالثوس أكثر رجل مدموم في عصره ، ووصف بأنه « رجل دافع عن الجدري والرق وقتل الأطفال ، وهاجم المطاعم الشعبية والزواج المبكر ومعونات الأبروشيات ، ذلك الذي بلغت به الوقاحة أن يتزوج بعد أن وعظ عن مساوئ الأسرة ، الذي ظن أن حكم العالم سييء ، وأن خير الوسائل يأتي بأسوأ النتائج وأكثرها ضرراً ، وبالاختصار ، هو الذي سلب الحياة كل مباحها » .

نجد عدد قليل من النقاد جميع مبادئ مالثوس باستخفاف فهذا هازايت Hazliitt « لم يجد ما يكتشفه بعد أن قرأ قوائم سلالة نوح Noah . بعد أن عرف أن الدنيا مستديرة » .

أما ملاحظة كوليريدج Coleridge فتقول : « نحن الآن بحاجة الى كتب ليعلمنا أن البؤس العظيم والرذيلة العظمى ينتجان عن الفقر ، وانه يجب أن يكون هناك فقر في أبشع صورته حيثما يكون هناك أفواه أكثر من الأرغفة ، ورءوس أكثر من الأبخاخ؟ » .

أما المعالمون الآخرون فكانوا أكثر اقداعا فقد كتب وليم نومبسون William Thompson رائد الاشتراكية الانجليزية في أول عهدها ، يقول :

« لا توجه اهانة الى الفقراء أولئك الغالبية العظمى من البشر ، بالافتراءات البراقة ، أنه بواسطة عدد السكان المحدد، أو بعدم تناول البطاطس تكون سعادتهم في أيديهم ، بينما الأسباب باقية ، تلك التي تجعل من المستحيل عليهم ، أخلاقيا وبدنيا ، أن يعيشوا بغير البطاطس والنسل الذي لا طعام له . »

وجاء تعبير عنيف آخر من وليم كوبيت William Cobbett « كيف يستطيع مالثوس وأتباعه المعنفون الأغبياء ، كيف يستطيع أولئك الذين يريدون نيل الطبقات الفقيرة ، ومنع الفقراء الزواج ، كيف تستطيع تلك الفئة الغبية المغرورة أن تنظر في وجه الرجل الكادح وهم ، في الوقت نفسه ، يطلبون منه أن يحمل السلاح ويخاطر بحياته للدفاع عن الوطن ؟ » .

تصادف أن كان كوبيت هو الذي مايز مالثوس بلقب « قسيس » . وقد تحدث كوبيت الى أحد المزارعين ، فقال :

« كم طفلا تريد أن تنجب ؟ »

أجاب المزارع : « لا يهمني العدد ، فالله لا يرسل أفواها دون أن يرسل لحما » .

قال كوييت : « ألم تسمع قط عن قسيس اسمه مالثوس؟ »

« لم أسمع عنه ، يا سيدى . »

« لو سمع قولك هذا ، لثارت ثأثرته ، لأنه يريد من البربر أن يصدر قانونا يحرم على الفقراء أن يتزوجوا في سن مبكرة ، كما يحرم عليهم انجاب عدد كبير من الأطفال . »

دهشت الزوجة قائلة : « يا له من وحش ! » بينما ضحك زوجها وظننى أمرح .

عندما ظهر المذهب المالثوسى لأول مرة ، قام ضده اعتراض يقول انه لا ينطبق وكون الخالق خيرا . واتهم مالثوس باصدار كتاب يتنافى مع تعاليم الدين . وهذا اتهام محطم ضد كاهن كنيسة معترف بها . وبسبب هذا النقد اكد مالثوس في الطبعة الثانية لمقاله ، على « الكبت الأخلاقى » بصفته وسيلة تحتفظ بعدد السكان داخل النطاق المحدد ، بينما حذف البؤس والرذيلة ، وبدا ازال « كل سوء ظن عن مراحم الرب » .

وفى برنامج تخليد الذكرى المئوية لموت مالثوس اى فى سنة ١٩٣٥ ، قام بونار يدافع عنه ضد أولئك الذين اعتقد بونار أنهم اساءوا تمثيل مالثوس ، كما اساءوا قراءته واساءوا ذكر مقتطفات من أقواله واساءوا فهمه . كان مالثوس ، فى نظره ، ايجابيا وليس سلبيا فى تقديم مذهبه . وقرر بونار أن « رغبة قلب مالثوس للجنس البشرى » تتضمن :

- ١ - نسبة وفيات منخفضة للجميع .
- ٢ - مستوى معيشة مرتفعا للفقراء .
- ٣ - نهاية هلاك الأرواح البشرية صغيرة السن .

راى مالثوس بوضوح أن الأمم تمنع سرعة ارتفاع نسبة

المواليد كلما صارت هذه الأمم متحضرة وأكثر تعلما ، واكتسبت مستوى معيشة أعلى . ونتيجة لذلك صارت آراؤه عن مستقبل المجتمع الإنساني ، منافئة ، تدريجيا . لاحظ مالثوس ، انه في إنجلترا نفسها « يجب أن يقنعنا أسرع نظرة سطحية عن المجتمع ، بأن وسائل تحديد النسل بين جميع الطبقات ، تسير بدرجة كبيرة . » والواقع انه تناول مختلف الطبقات الاجتماعية - السادة (الجنتلمان) والحرفيين والمزارعين والعمال وخدم المنازل - كل طبقة على انفراد بسبب اختلاف ظروفهم الاقتصادية فاعتقد ان اللفة على الاحتفاظ بمركز اجتماعي معين ، تمنع الزواج السري . فمثلا :

على الرجل ذى التعليم الحر والدخل الذى لا يكاد يكفى لتمكينه من مصاحبة طبقة السادة (الجنتلمان) ، أن يتأكد تماما ، أنه اذا تزوج وأنجب أسرة ، اضطر ، عند اختلاطه بالمجتمع ، الى أن يخالط طبقة المزارعين المعتدلة وطبقة الحرفيين الاقل . أى يهبط درجتين أو ثلاث درجات فى سلم المجتمع ، وخصوصا عند هذا المستوى من السلم الذى ينتهى عنده التعليم ويبدأ الجهل ، لن يعتبره عامة الشعب عالما وخياليا وحشيا ، بل شرا حقيقيا وأساسيا .

وكما يمكن أن نستنتج من أقوال المعاصرين ، لم يهمل مالثوس أثناء حياته . فالأثر الذى أحدثته الطبعة الأولى من « المقال » ، جعل الحكومة الانجليزية تجرى تعدادا للسكان فى سنة ١٨٠١ ، وهو أول تعدادا حقق نتائج منذ مجيء الأرمادا Armada هذا ، وقد عارضت مقترحات التعداد السابقة على أنها منافية لتعاليم الكتب المقدسة ومنافية للتقاليد الانجليزية وهناك نتيجة ثانية للحقال ، هى تعديل قانون الفقراء الحكومى اجتنابا لبعض أخطاء حدها مالثوس .

كانت وطأة الأفكار المalthوسية على العلوم الطبيعية بالغة الشدة كما كانت على العلوم الاجتماعية . وقد أعلن كل من تشارلز داروين Charles Darwin والفريد رسل والاس Alfred Russell Wallace في حرية ، أنهما مدينان لمalthوس في تكوين نظرية النشوء بالاختيار الطبيعي . فكتب داروين يقول :

في أكتوبر سنة ١٨٢٨ ، أى بعد مضي خمسة عشر شهرا على أبحاثي المنظمة ، تصادف أن قرأت لغرض التسلية مقال عدد السكان لمalthوس . واذ كنت على أتم استعداد لتقدير «تنازع البقاء» (عبارة استعملها مalthوس) الذي يحدث في كل مكان ، وقد شاهدته أثناء ملاحظاتي الطويلة للحيوانات والنباتات ، طرأ على بالي في الحال ، أنه تحت هذه الظروف ، تميل بعض الأنواع الصالحة الى أن تبقى بينما تتلف غير الصالحة . وينتج عن هذا جنس جديد . وأخيرا ، استوعب نظرية يمكن أن أعمل بمقتضاها .

وفي اتجاه مشابه ، كتب والاس :

كان «المقال» أول مؤلف قرأته ، حتى ذلك الوقت ، ويتناول أى مشكلة في علم الأحياء الفلسفي ، وبقيت مبادئه الرئيسية في ذهني كمعلومات مستديمة وبعد ذلك بعشرين سنة ، أمدتني بالحل الذي طال بحثي عنه فيما يختص بعامل فعال في نشوء الأجناس العضوية .

عندما خرجت طبعة سنة ١٧٩٨ لذلك «المقال» ، قوبلت بالاحتجاجات الغاضبة من رجال الدين والتمرديين الاجتماعيين . ولكن مalthوس لم يهتم بكل ذلك ، بل أعجب بموضوعه وعقد العزم على أن يستمر فيه الى أبعد من ذلك . ولتقوية أدلته طاف بأوروبا في سنة ١٧٩٩ بحثا عن مادة لمؤلفه . «طاف خلال السويد

والنرويج وفنلندة وجزء من روسيا ، وكانت هذه هي كل الدول المفتوحة أمام السياح الانجليز في ذلك الوقت» . ثم قام بجولة أخرى في فرنسا وسويسرا ابان فترة السلم القصيرة لسنة ١٨٠٢ . ونشر في خلال هذه المدة كتيبا عنوانه «بحث أسباب ارتفاع أسعار المواد الغذائية في الوقت الحاضر» ، متخذاً وجهة نظره أن الاسعار والارباح تقدر مبدئياً تبعاً لما أسماه «الطلب الفعال» .

بعد مضي خمس سنوات من ظهور الطبعة الاولى «للمقال» ، خرجت من المطبعة طبعة ثانية كبيرة جداً عبارة عن مجلد بحجم الكوارتو (ربع فرخ) يتكون من ٦١٠ صفحات . وكان ينقصها حماس الطبعة الاولى وأسلوبها الطلي وتأكيداتها الفتى ، وصارت على هيئة رسالة اقتصادية دراسية مثقلة بالمستندات والحواشى ، ولو أنها باستثناء تطور فكرة «الكبت الاخلاقى» فان المبادئ الأساسية لم تتغير . ظهرت اربع طبعات أخرى اثناء حياة ذلك المؤلف . وفي الطبعة الخامسة كان «المقال» عبارة عن خمسة اجزاء تبلغ في مجموعها ١٠٠ صفحة . والمؤلف الكبير الوحيد الذى وضعه مalthus بالاضافة الى «المقال» ، لانشغاله بتنقيح هذا الاخير ، كان عنوانه هو :

« مبادئ الاقتصاد السياسى من وجهة نظر تطبيقها» ،
الذى نشر في سنة ١٨٢٠ .

كانت حياة مalthus الشخصية هادئة وآمنة نسبياً . كان حراً في مزاولته دراساته الاقتصادية وكتاباته ، مع قليل من المسؤوليات الاخرى حتى سنه عندما تزوج وهو في الثامنة والثلاثين من عمره . وفي السنة التالية عين استاذاً للتاريخ الحديث والاقتصاد السياسى في الكلية الجديدة لشركة الهند الشرقية بمدينة هيليبورى Hailybury ليقوم بتعليم موظفى تلك

الشركة المدينين ، المعلومات العامة . كان هذا اقدم كرسى للاقتصاد السياسي أسس في كلية او جامعة انجليزية . فبقى مالثوس في هيليبورى لمدة ثلاثين عاما حتى مات في سنة ١٨٣٤ وقد أنجب ثلاثة اولاد ، بلغ اثنان منهم ، ولد وفتاة ، سن الرشد .

لم تخمد جنوة النار التي أشعلها مالثوس، اذ ظلت المجادلات المناصرة والمعارضة على أشدها . فبرزت عناوين حديثة تؤيد نظرية مالثوس، منها : «النضال عن مستقبل الانسان» و «الطريق الى البقاء» و «حدود الارض» و «كوكبنا المغتصب» ضمن مقالات عناوينها : «خيال المقات المالثوسى» و «كل بشهية» و «الشر المالثوسى» و «لن تجوع البشرية» . وماهى وجهة النظر الحديثة المبنية على نظريات مالثوس اليوم ؟

ظهر عامل في مشكلة الانفجار السكانى ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهو الاقبال المتزايد على طرق منع الحمل ، التى نشأ عنها تحديد منظم لعدد أعضاء الاسرات ، باستثناء الذين ينقصهم الوعى ومن تمنعهم الوسوس الدينية . وظهرت حركة عرفت بأسماء مختلفة ، منها : «المالثوسية الجديدة» و «تحديد النسل» و «الأمومة المخططة» فأطلق عليها عموما اسم «أعظم حركة لاحصاء الشعوب فى العالم الحديث» . غير أن مالثوس نفسه اشماز من فكرة منع الحمل ، نوعيا ، واستقبحها ، واعتبرت فى عصره شيئا «سيئا وقرىبا وغير طبيعى» . ومع ذلك ، فقد صارت احدى الطرق الرئيسية لوقف التضخم السكانى فى المجتمع الحديث ، وبذا أضاف مالثوس عاملا رابعا الى الثلاثى الخاص به : الرذيلة والبؤس والكبت الاخلاقى .

وفى سنة ١٨٠٠ عندما كان مالثوس يكتب مؤلفه ، قدر تعداد العالم بليون نسمة . وفى المائة والخمسين عاما الماضية واصل تعداداه الى بليونين ونصف البليون . وهذه نسبة عالية فى النمو

السكاني نتجت عن زيادة طول العمر أكثر منها عن أية ظاهرة في ارتفاع نسبة المواليد ، ففي الأمم المتقدمة من العالم ، أنقذت حياة الكثيرين بسبب التغيرات الطبية والصحية والاجتماعية وجاء الانقلاب الصناعي في إنجلترا بزيادة كبيرة في إنتاج السلع المصنوعة ، فبدل على هذه بالأطعمة والمواد الخام من الدول غير الصناعية ، وتحسنت جميع وسائل النقل لتزيد في سرعة التحرك . فانتقل فائض السكان بالهجرة الى القارات الناشئة حديثا . وتأخر ، على الأقل ، تكهنات مالثوس البغيضة ، وربما أجلت الى ما لا نهاية ، فيما يختص بالعالم الغربي .

ومع ذلك فهناك مساحات شاسعة من الكرة الأرضية تمثل تماما نظريات مالثوس . . يتميز الشرق الأدنى ومعظم قارة آسيا وغالبية دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية بدرجة عالية من الخصب الجنسي تناظرها نسبة وفيات عالية . فالأرواح التي ينقدها الطب والوسائل الصحية في تلك المساحات ، عرضة لأن يهلكها الفقر والمجاعات .

وعلى عكس نظرية هذا الموقف ، دخلت بعض أمم الأرض البالغة التحضر والثقافة ، عصرا من الاستقرار أو تناقص عدد السكان ، وأهمها فرنسا والسويد وأيسلندا وأستراليا وإنجلترا وويلز وإيرلندا . جاء هذا الاستقرار نتيجة انخفاض درجة الخصب الجنسي ونقص عدد الشباب وزيادة طول العمر .

زاد إنتاج الأطعمة زيادة كبيرة منذ عصر مالثوس ، وتتفق الدول على أنه سيصير بالإمكان زيادتها أكثر من ذلك بطرق إنتاج أكثر فاعلية ، كالري وإصلاح الأراضي البور والاستعاضة بالأطعمة النباتية بدل الأطعمة الحيوانية ، وبمقاومة أفضل ، للآفات الزراعية الحشرية . ويمكن أن يكون فائض المحاصيل في الولايات المتحدة وكندا ، دليلا على خطأ في المبدأ المالثوسي . ولكن ، على الرغم من

انتاجنا الضخم من الغذاء ، هناك مئات الملايين من البشر ، في الشرق وفي أماكن أخرى ، تقف على حافة الموت جوعاً ، أو في مستوى القوت الضروري . ولكن كون ثلثي سكان العالم يقاسون سوء التغذية والفحط واعتلال الصحة والمرضى ، يجعل النظرية التي أثارها مالثوس منذ قرن ونصف قرن ، حقيقية وحيوية ، اليوم ، كما كانت وقتذاك .

وحتى أولئك النقاد ، الذين يقولون ان نظرية مالثوس اضعفت في نواح معينة بالتطورات التي لم تحدث في عصر مالثوس ، والتي لم يستطع مالثوس أن يتكهن بها ، حتى هؤلاء النقاد يوافقون على أن نتائج عظمى نشأت عن أفكاره . وكما لاحظ هوبهاوس Hobhouse بشدة : « كانت نظرية مالثوس أحد الأسباب في هزيمة مائنيات به هي نفسها . كان الاعتقاد بأن عدد السكان يزداد بسرعة كبيرة هو الذي عمل بطريقة غير مباشرة لايقاف ذلك » .

لم يعط أحد من المعلقين الكثيرين عن مقال مالثوس (مقال عن مبدأ السكان) ثناء أكثر عدلاً ولا أقوى بصيرة ، من جون ماينارد كينيس John Maynard Keynes ، الذي اعتقد أنه :

« يحق لهذا الكتاب أن يتبوا مكاناً بين تلك الكتب التي كان لها تأثير عظيم على تقدم الفكر . لقد تغلغل عميقاً في التقاليد الانجليزية للعلوم البشرية - في تقاليد الفكر الاسكتلندي والانجليزي الذي كان فيه على ما ظن ، استمرار خارق للشعور اذا صح لى أن أعبر عنه هكذا ، منذ القرن الثامن عشر الى الوقت الحاضر - تلك التقاليد التي اقترحتها الاسماء : لوك Locke وهيوم Hume وآدم سميث وبالي Paley وبنثام Bentham وداروين وميل Mill ، تقانيد تتميز بحب الحقيقة والوضوح الأعظم نبلا ،

- وبسلامة عادية خالية من كل عاطفة أو ميتافيزيقيا ، وبعدم المتعة
العظيمة والروح الشعبية . هناك استمرار في تلك العبارات ،
ليس عن الشعور فحسب ، بل وعن المادة الواقعية . الى هذه
الصحبة ينتمى مالثوس .

٥ - حالة الفرد المختصرة

هنرى دافيد ثورو HENRY DAVID THOREAU

العصيان المدنى

يرسم اسم دافيد هنرى ثورو فى المخيلة شخصا دقيق الملاحظة فى الطبيعة ، محبا للعزلة وحياة الخلاء ، ونموذج الحياة البسيطة ، وشاعرا متصوفا ، وأستاذا لاسلوب النشر الانجليزى .

كثيرا مايتذكر الناس ثورو كمؤلف لبعض من اشد التقارير تطرفا فى التاريخ الامريكى ، وكمحام ، كما يصفه احد كاتبي تاريخ حياته ، «اعظم المذاهب العلنية للمقاومة ، سبق أن ظهر فى هذه القارة» . وقد تمادى الى أكثر مما قاله توماس جافرسون Jafferson . « خير حكومة هى التى تحكم بأقل ما يمكن » . ولكن ثورو استنتج أن «خير حكومة هى التى لاتحكم اطلاقا» . كانت هذه الالفاظ مقدمة مقالة ثورو الشهيرة «العصيان المدنى» التى ظهرت أولا كمجلة دورية غامضة قصيرة الاجل ، وهى

مجلة اليزابيث بيبودى Elizabeth Peabody بعنوان :
«صحف فلسفة الفنون» ، في مايو سنة ١٨٤٩ ، وكان اسمها
الاصلى «المقاومة المدنية للحكومة» ثم غير هذا العنوان الى «عن
واجب العصيان المدني» ، ثم مجرد «العصيان المدني» . وعندما
نشرت لأول مرة ، لم تسترعى كثيرا من الانتباه ، وقراها قليلون .
وفي اثناء المائة سنة التالية ، قراها الوف ، واثرت في حياة ملايين
البشر .

هل كان ثورو فوضويا فلسفيا في معتقداته ؟ وتحليل مقاله
«العصيان المدني» ، أساسه وماضيه ، نحصل على اجابة لهذا
السؤال المعقد .

اما عن ثورو نفسه ، فلاشئ في بدء حياته يمكن أن ينتج
متمردا اجتماعيا . ولد من أبوين أحدهما فرنسى والآخر
اسكتلندى في بلدة كونكورد Concord بولاية ماساشوزتس
Massachusetts في سنة ١٨١٧ شب في بيئة محافظة فقيرة
وحسنة التربية ... قضى أربع سنوات في هارفارد Harvard
لم تتمير بشئ ، ولو انه كانت هناك لمحة عن مستقبل
ذلك الشخص غير المنتمى الى الكنيسة السائدة في انه
كان يرتدى معظفا أخضر في الكنيسة «اذ كانت الانظمة تتطلب
معظفا أسود» . كان يقضى كثيرا من الوقت في مكتبة الكلية . وتدار
متعة ثورو في الكتابة بواسطة اثنين من خيرة الاساتذة : ادوارد
ت . تشاننج Edward T. Channing وجون فيرى John Very .
واذ كان ثورو سعيدا بعودته الى حقول كونكورد الخضراء
وغاباتها ، لم يغادرها بعد ذلك الا لزيارات قصار . فقام بعدد من
الاعمال المختلفة . فبعد ان اشتغل مدة قصيرة يعلم في مدرسة
شعبية لم يسعد فيها بحال ما ، قضى ثلاث سنوات شريكا مع
أخيه جون في ادارة مدرسة خاصة بهما . وتلا ذلك مدد متقطعة

ساعد فيها أباه في عمل الأسرة لصناعة الأقلام الرصاص ، وقام بعمل موظف عام في المجتمع ، ومساحا في البلدة ، والقاء المحاضرات من آن الى آخر ، وحاول أن يصير مؤلفا محترفا .

عاش ثورو فترتين قصيرتين في بيت رالف والدو اميرسون Ralph Waldo Emerson حيث تعرف على أعضاء النادي الراقى ، وأسهم بنشاط في مناقشات هذه الجماعة الشهيرة من الكتاب والمفكرين في ولاية نيو انجلاند New England وقد كان تأثير اميرسون قويا على نموه الذهني ، ويشمل تزويده ببعض الآراء لكتابه «العصيان المدني» .

لم يطمح ثورو ، بحال ما ، الى جمع ثروة او القيام بأى عمل سوى مايمده بأقل ضروريات الحياة . كان شغفه دائما الحصول على وقت فراغ للامور ذات الاهمية الاساسية ، كما يراها هو ، وهي التجول في حقول كونكورد ودراسة الطبيعة على الطبيعة والتفكير والقراءة والكتابة - وعمل الاشياء التي يرغب في عملها . كان يوسع الحصول على حاجاته البسيطة دون شغل نفسه في حياة الاعمال الشاقة ، التي رأى جيرانه يقومون بها . فبدلا من آية التوراة القائلة بالعمل ستة أيام والراحة يوما واحدا ، أثر ثورو ان يعكس النسبة - مكرسا اليوم السابع فقط للعمل . وبالاختصار كان يسير على عكس تعاليم آدم سميث والحكم التي ذكرها فرانكلين في كتابه «مسكين ريتشارد» ، والمثل الامريكية التقليدية التي تحث على العمل الشاق والثراء السريع .

ولتمثيل فكرة ثورو عن الحياة البسيطة الخالية من جميع السطحيات ، فضى سنتين في والدين بوند Walden Pond بالقرب من كونكورد حيث بنى كوخا وعاش يزرع القول والبطاطس

ويأكل أبسط الاطعمة (وأهمها الارز ودقيق القمح والبطاطس
والعسل الأسود) . وعاش منفردا بعيدا عن المجتمع .

كانت فترة تفكير وتدوين أفكاره ، فانتج كتابا من أعظم
الكتب في الأدب الامريكى بعنوان : « الغابة Walden » أو
« الحياة في الغابات » (١٨٥٤) .

وبكل فخر ، كان كتاب « الغابة » سجلا لحياة ثورو في عزلته
الريفية ، وزاحرا بالأوصاف التذكارية للفصول والمناظر الطبيعية
وحياة الحيوان حوله . ولكن « الغابة » كان أكثر من ملاحظات عالم
طبيعى ، مثلما كان كتاب اسحق والتو Izaak Walton
« صياد السمك الكامل » أكثر من كتيب عن صيد السمك . بل
يعلق على السطحيات وحدود المجتمع والحكومة ، فصار ذا أهمية
عالية . وبمرور الاعوام جذب النقد الاجتماعى كثيرا من القراء ،
كما فعلت الاجزاء التى تتناول التاريخ الطبيعى . وبالطريقة
الخاصة التى وضع بها كتاب « الغابة » ، فهو وثيقة متطرفة مثل
الكتاب المنشور قبل ذلك « العصيان المدنى » الذى يحمل له مشابهة
كبيرة .

بينما كان ثورو يزور كونكورد فى سنة ١٨٤٣ بعد اقامته فى
والدين بوند ، قبض عليه وسجن لعدم دفعه ضريبة الرأس . وقد
حدا ، فى رفضه دفع الضريبة هذا ، حدو برونسون الكوت
Bronson Alcott ، والد « السيدات الصغيرات » ، الذى
قبض عليه قبل ذلك بسنتين لنفس التهمة . استعمل كل منهما
هذه الوسائل احتجاجا على مساندة الحكومة لتجارة الرقيق .
سجن ثورو لمدة ليلة واحدة فقط ، اذ تدخلت عمته ، رغم
معارضته ، فدفعت الضريبة .

لم يذكر ثورو قصة احتكاكه بالحكومة لرفضه سداد ضريبة
الرأس ، لم يذكرها فى مقاله « العصيان المدنى » الا بعد مرور عدة

سنوات . كتب ذلك المقال أصلا في ١٨٤٨ كمحاضرة . وخرجت
النسخة المطبوعة ، من المطبعة ، في العام التالي . . كانت الحرب
المكسيكية لسنة ١٨٤٦/٤٧ قد انتهت منذ مدة قصيرة ، وكانت
تجارة الرقيق نتيجتها الملهبة . وكان قانون العبيد الهاريين ،
الذي أثار حنق ثورو بنوع خاص ، على وشك أن يصدر . أضف
الى هذه الامور معركة ضريبة الرأس ، فكانت حافزا أوحى اليه
بكتابة «العصيان المدني» .

كانت أية حرب بغيضة لمثل ثورو ، فما بالك بالحرب
المكسيكية التي مقفها أشد المقت ، لان هدفها الوحيد ، حسب
اعتقاده ، هو مد تجارة الرقيق الزنوج ، التي كان يملكها ، الى
مناطق جديدة . فتساءل ثورو : لماذا ندعم بالمال حكومة «مذبذبة»
بمثل هذه المظالم والغباء ؟ وهنا كان مولد مذهبه عن العصيان
المدني . قرر ثورو ، وهو السياسي بقلبه وقلبه ، ان الوقت قد
حان لاختبار طبيعة الدولة وحكومتها . ماذا يجب ان تكون عليه
علاقة الفرد بالحكومة ، وعلاقة الحكومة بالفرد ؟ ومن اعتبارات
هذه المسائل ، برزت فلسفة ثورو ، بوفائه الشخصي ومركزه
الانساني في المجتمع .

كتب ثورو يقول : «ليست الحكومة في خير صورها الا
وسيلة . بيد ان معظم الحكومات ليس وسائل أحيانا . والمعارضات
التي أثرت ضد الجيش القائم ، وهي كثيرة وبالغلة الاهمية ،
وتستحق ان تثار ضد الحكومة القائمة » .

اعلن ثورو، ان الحكومة الامريكية كانت حسنة نسبيا .

غير ان هذه الحكومة لم تنفذ أى مشروع من تلقاء نفسها ،
ولكنها تبدى نشاطا وسرعة حركة في ازالة ذلك المشروع من امامها
لم تحافظ على حرية الدولة ، ولم تنسو مسألة الغرب ، ولم تنشر

التعليم . فالاخلاق الكريمة التي فطر عليها الشعب الامريكى هي التي أنجزت كل ماتم من مشروعات ، وكان بوسعها ان تنجز اكثر منه لو لم تتدخل الحكومة احيانا . لان الحكومة وسيلة ينجح بها الناس في ترك كل واحد وشأنه . وكما قلت من قبل ، عندما تكون الحكومة في اقصى كونها وسيلة ، فان المحكومين يصبحون في اقصى حالات تركهم وشأنهم بواسطة تلك الحكومة .

بعد ان قدم ثورو قضية « الا تكون هناك حكومة » ، مباشرة تقريبا ، أدرك أن الانسان لم يصل بعد الى درجة الكمال حيث يكون من المحتمل عدم وجود حكومة على الاطلاق ، فبدأ يعدل رأيه ، قائلا :

ولكى أتكلم من الناحية العملية ، وك مواطن ، بعكس الذين يسمون أنفسهم رجال «عدم الحكومة» ، فاني لأطلب في الحال عدم وجود حكومة ، بل أطلب في الحال حكومة أفضل . وعلى كل فرد أن يوضح نوع الحكومة التي تحظى باحترامه ، وستكون هذه خطوة الى الامام نحو الحصول عليها .

أكد ثورو على حقوق الاقليات في الحكم ، والمغالطة التي تطلب حكم الاغلبية ، فقال : «تحكم الاغلبية ، ليس لكونها عرضة لان تكون على صواب ، ولا لان هذا يبدو اكثر انصافا للاقلية ، ولكن لانها الافوى طبيعيا . ولكن الحكومة التي تحكم فيها الاغلبية ، في جميع القضايا ، لا يمكن ان يكون حكمها مبنيا على العدل ، حتى وأو كان على حد مفهوم البشر» . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أن المواطن لن يتخلى عن ضميره للمشرع . . . يجب ان تكون رجالا اولاً ، ثم رعايا بعد ذلك . ليس من الضروري ان نمنى احترام القانون ، كما نمنى احترام الحق » .

تذردى ثورو السياسيين كطبقة ، فقال : «يخدم معظم

المشرعين والسياسيين والمحامين والوزراء وموظفي الحكومة ،
الدولة برعوسهم غالباً . وبما أنهم قلما ، يبدون أى تمييز أخلاقى
فإنهم يعملون الى خدمة الشيطان كاله دون وعى منهم . ويخدم
قلة قليلة ، كالأبطال والمتحمسين للوطن والشهداء والمصلحين
والرجال بمعنى الكلمة الدولة بضمائرهم أيضا ، ولذا فمن
الضرورى أن يقاوموا الحكومة فى أغلب الاحوال ، ولهذا تعاملهم
الحكومة عموما كأعداء .

بعد ذلك أخذ ثورو يهاجم الحكومة الامريكية لعصره ، قائلا:
«لا يمكننى الاعتراف لحظة واحدة بأن تلك المؤسسة السياسية
هى حكومتى ، التى هى حكومة العبيد ايضا» . من واجب المواطن
أن يقاوم الشر فى الحكومة الى حد عصيان قوانينها علنا وعمدا .

إذا تعهدت أمة بأن تكون ملجأ للحرية ، وكان سدس عدد
سكانها عبيدا .. فأعتقد أن الوقت ملائم للأشراف من شعبها أن
يتمردوا ويثوروا .. يجب أن يكف هؤلاء الناس عن امتلاك العبيد
وعن شن الحرب على المكسيك ، حتى ولو كلفهم هذا وجودهم
كبشر .

وكذلك رثى ثورو للمواطن الذى يظن انه قد أدى واجبه
كاملا بمجرد الأدلاء بصوته .

كل تصويت نوع من المقامرة ، كالضامة والطاولة ، مع إضافة
مسحة أخلاقية بسيطة اليها . انه لعب بالحق والباطل ، بالمسائل
الأخلاقية والمراهنة التى تصحبها بطبيعة الحال . ليست أخلاق
المصوتين فى خطر .. وحتى التصويت على الحق لا يعمل شيئا من
أجله . انه انما يعبر للناس عن رغبتك فى سيادة الحق ... ليس
هناك سوى قليل من الفضل فى أعمال جموع البشر .

ناقش ثورو الطريقة الصحيحة لعمل المواطن حيال القوانين

غير العادلة . هل الافضل : الانتظار حتى تعمل الغالبية على تغيير القوانين ، أم رفض طاعتها على الفور ؟ كان جواب ثورو القاطع هو : «إذا ارادت الحكومة منك أن تكون عاملها في انزال الظلم بشخص آخر ، فعندئذ أقول لك : اكسر القانون . . . مايجب على أن أفعله هو أن أرى أنني لا أغير نفسي ، بأية حال ، الى الظلم الذي أمقته وأحاربه .

قال ثورو ، انه من خصائص الحكومة أن تقاوم كل تغير وكل اصلاح ، وتساءل : «لماذا تصلب المسيح دائماً ، وتحرم كوبرنيكوس Copernicus ولوثر Luther وتصف واشنطن وفرانكلين بالتمرد ؟»

أكد ثورو على انه ينبغي لمن يقاومون تجارة الرقيق أن «يسحبوا دعمهم في الحال ، الشخصى والمادى ، من حكومة ماساشوزتس ، والا ينتظروا حتى يصيروا غالبية عظمى ، قبل أن يروا سيادة الحق بواسطتهم . وأعتقد انه يكفي أن يكون الله في جانبهم ، دون انتظار لتلك الغالبية . وزيادة على ذلك ، فكل رجل أكثر احقاقاً للحق من جيرانه ، هو غالبية في حد ذاته » .

وكشعار للعصيان المدني ، الذى هو طريق مفتوح أمام كل مواطن ، أشار ثورو بأن يرفض المواطن دفع الضرائب . فاذا عبر الف شخص أو أقل عن امتعاضهم من الحكومة بتلك الطريقة ، فلا بد أن يتبع الاصلاح ذلك ، حسب رأى ثورو . وحتى اذا كانت مقاومة السلطات تعنى العقاب ، «ففى ظل الحكومة التى تسجن أى فرد ظلماً ، يكون المكان الصحيح للانسان العادل هو السجن أيضاً . . اذا خيرت الحكومة بين ايداع جميع العادلين فى السجن وبين ترك الحرب وتجارة الرقيق ، فانها لن تتردد فى الاختيار» . فاذا دفع المواطن الضرائب لحكومة غير عادلة ، فانه انما يتجاوز عن المظالم التى تقوم بها تلك الحكومة .

ورغم هذا ، رأى ثورو أن طبقة أصحاب الاملاك تخاطر كثيرا اذا تمردت ، لان «الرجل الغنى - دون عمل مقارنات تشير الغضب - يباع دائما للمؤسسة التي جعلته غنيا . وبتعبير مركز ، كلما زاد المال قلت الفضيلة ، اذ يقف المال دائما بين الرجل وأهدافه ، ويحققها له » .

وأذ لم يكن ثورو غنيا ، كان يوسع ان يقاوم . «يكلفنى عصيان الحكومة أقل ، بجميع المعانى ، مما تكلفنى طاعتها . احس باننى اساوى أقل فى هذه الحالة الاخيرة» .

كذلك كان ثورو واقعيا فى رؤيته قيمة الاعتراضات الاقتصادية التى منعت حكومة ماساشوزتس من القيام بعمل ضد تجارة الرقيق .

اذا تكلمنا من الناحية العملية ، فان المعارضين للاصلاح فى ماساشوزتس ، ليسوا مائة الف سياسى فى الجنوب ، بل مائة الف تاجر ومزارع هنا ، يهتمون بالتجارة والزراعة اكثر من اهتمامهم بالانسانية . وليسوا مستعدين للوقوف الى جانب تحريم تجارة الرقيق ومعارضة الحرب مع المكسيك ، «مهما تكلف الامر» .

تمسك ثورو بمبادئه لمدة ستة أعوام ، وقرر انه لم يدفع أية ضريبة رأس . ولم تزحزحه مدة سجنه القصيرة عن اتهاماته للحكومة ، بل جعلته لايهتم بالسجن .

رايت ان الحكومة نصف ذكية ، وانها جبانة كامرأة تركت وحيدة مع ملاحظها الفضية ، وانها لاتعرف أصدقاءها من أعدائها، ففقدت كل ماتبقى عندى من احترام لها . وهكذا ، ان تواجه الحكومة قصدا مشاعر الانسان الذهنية ولا الاخلاقية ، بل تواجه جسمه فقط وليس مشاعره . ليست الحكومة مسلحة بذكاء سام

ولا بأمانة ، وإنما هي مسلحة بقوة بدنية فائقة ، لم أولد لأجبر ، سأتنفس كما يطيب لى .

فرف ثورو بين الضرائب : «لم أتأخر ابدا» عن دفع ضريبة الطرق ، ولا ضريبة المدارس ، لأننى أرغب فى أن أكون جارا طيبا ، بقدر ماأنا رعية سيء» . أنه يدعم تجارة الرقيق والحرب بدفع الضرائب العامة « أريد ، ببساطة ، أن أرفض التحالف مع الحكومة ، وأن انسحب وأقف بعيدا عنها بطريقة فعالة» ، فى هذه الامور .

لم تكن هناك رغبة من جانب ثورو للوقوف كشهيد او قديس ، بل قال :

« لا أرغب فى العراك مع أى رجل او أية امة ، ولاأريد ان أقوم بالتمييز بين شخص وآخر ، او اضع نفسى فى موقف افضل من جيرانى ، بل أسعى الى عذر يجعلنى اتمشى مع قوانين البلاد . اننى على اتم استعداد للسير تبعاً لها . والحقيقة أنه لدى سبب للشك فى نفسى فيما يختص بهذا الامر . وفى كل عام ، عندما يأتى وقت اجباية الضريبة ، أجد نفسى مستعدا لاستعراض القوانين وموقف الحكومة العامة وحكومة الولاية وروح الشعب لاكتشف حجة لتتمشى مع القوانين » .

وزيادة على ذلك ، اعترف ثورو أنه على الرغم من هبوط القوانين عن المستوى المثالى فان «الدستور ، مع كل اخطائه ، جيد جدا ، والقانون والمحاكم محترمة . وحتى حكومة هذه الولاية والحكومة الامريكية رائعتان فى كثير من النواحي ، ونادرتان الدرجة أننا ندين بالشكر من أجلهما » .

ورغم استفاده قاعدة الغالبية ، فهو يؤمن ، بعض الشيء ، بحكم الشعب . وفى نظره ، فالتشريع ينقضه الفدررة على أن يعالج

سجاح «الموضوعات المتواضعة نسبيا ، للضرائب والمالية والتجارة والصناعة والزراعة . واذا كان كل ائكالنا على عبارات المشرعين فى الكونجرس ، لكى تقودنا ، دون أن تصححها التجارب الموسمية أو شكاوى انشعب الأثررة ، فان تحتفظ أمريكا بمركزها بين الامم لمدة طويلة » .

ويختتم ثورو مقاله « العصيان المدني » بعبارة من فكرته عن الحكومة الكاملة ، وتأكيدده الملح على اعتقاده بكرامة الفرد وقيمه .

ولكى تكون سلطات الحكومة عادلة بالمعنى الحرفى . . . يجب أن تحصل على موافقة المحكومين وبركتهم . لايمكن أن يكون لها حق مطلق على شخصى أو على ممتلكائى الا بقدر ماوافق عليه . والتقدم من ملكية مطلقة الى ملكية محددة ، ومن الملكية المحددة الى الديمقراطية تقدم نحو احترام حقيقى للفرد . وهى الديمقراطية كما نعرفها هى التحسن الاخير الممكن فى الحكومة) ليس بالامكان أن نخطو خطوة نحو الاعتراف بحقوق الانسان وتنظيمها . لن تكون هناك ولاية حرة بحق ، ومستنيرة بحق الا اذا اعترف مجلس الشيوخ بالفرد كقوة عليا مستقلة ، يستمد منها كل قوته وسلطته ، ويعامل ذلك الفرد على هذا الاساس . وانى لأمتع نفسى بأن اتخيل حكومة ، فى النهاية ، يمكنها أن تكون عادلة ازاء جميع الناس ، وتعامل الفرد بالاحترام على أنه جار لا يظن من الملائم لراحته أن يعيش القليلون بعيدا عن الحكومة ولايتدخلون فى شئوننا ولاتحتضنهم تلك الحكومة التى أدت واجبها نحو الجيران والزملاء . فالحكومة التى تنتج مثل هذا النوع من الثمار وتدعه يسقط بمجرد نضجه ، ستمهد الطريق لحكومة أكثر كمالا ومجدا ، وقد تخيلت هذه أيضا ، ولكنى لم أرها فى أى مكان .

وبالاختصار ، كان خصام ثورو للحكومة فى كتابه « العصيان

المدنى» هو أن الحكومة تعيش للأفراد ولا يعيش الأفراد لأجل الحكومة . يجب ألا تخضع الاقلية للاغلبية اذا وجب تصحيح المبادئ الاخلاقية لتفعل هذا . ثم انه ليس للحكومة الحق في اهانة الحرية الاخلاقية باجبار المواطن على دعم المظالم . يجب أن يكون ضمير المرء دائما هو روجه المرشدة العليا .

يمكن اهمال اثر «العصيان المدنى» في عصر ثورو . . لم يترس اليه معاصروه من الكتاب في مؤلفاتهم . واذ كانت الحرب الاهلية بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر قليلا ، فيمكن افتراض أن ذلك المقال قد مر وترا شعبيا حساسا . ومن الجلى أنه دفن تحت التيار المكتسح لأدب أنصار الالغاء ، وظل غامضا ومنسيا الى القرن التالى .

والآن ينتقل المنظر الى جنوب أفريقيا والهند . ففي سنة ١٩٠٧ وقعت نسخة من كتاب «العصيان المدنى» في يدي محام هندى فى أفريقيا اسمه مهانداس كاراتشانند غاندى Mohandas Karamchand Gandhi كان غاندى يفكر من قبل فى ميزات المقاومة الايجابية كدفاع لشعبه . وهاك سردا لهذا الحدث كما ذكره المهاتما بعد ذلك باثنتين وعشرين سنة لهنرى صولت Henry Salt أحد كاتبى تاريخ حياته المبكرين :

كان اول لقاء لى مع مؤلف ثورو ، على ماأظن ، فى سنة ١٩٠٧ ، أو بعد ذلك ، لما كنت فى معمعان نزاع المقاومة الايجابية . ارسل لى أحد أصدقائى نسخة من مقال عن «العصيان المدنى» ، فترك فى نفسى اثرا عميقا . فترجمت جزءا منه لقراء صحيفة «الرأى الهندى فى جنوب أفريقيا» التى كنت احررها وقتذاك ، ونقلت بعض فقرات منه للقسم الانجليزى من تلك الصحيفة . يبدو أن ذلك المقال مقنع وصادق للدرجة أننى شعرت بالحاجة الى

معرفة المزيد عن ثورو . فعثرت على كتابك عن تاريخ حياته ، وعلى كتابه «الغابة» ، وبعض المقالات القصيرة الاخرى ، وقرأتها جميعا بمتعة بالغة ، وفائدة مماثلة .

وهناك قصة أخرى تختلف قليلا عن هذه ، رواها أحد الاصدقاء المقربين لغاندى فى جنوب أفريقيا وهو هنرى بولاك
: Henry Polak

لاستطيع الآن (١٩٣١) أن أتذكر انه فى سنة ١٩٠٧ ، هل كان غاندى هو الذى عثر على نسخة من مقال ثورو (نشرته مكتبة سكوت Scott) ام أنا الذى عثرت عليها . ولكن كلامنا تأثر به غاية التأثير ، لمطابقة معنى مبادئ المقاومة الايجابية ، والعصيان المدنى . . فى مقال «عن واجب العصيان المدنى . وبعد التشاور مع المستر غاندى ، كتبت المقال فى اعمدة صحيفة «الرأى الهندى» وترجم الى اللغة الجيجاراتيه Gujarati التى كانت تلك الجريدة تظهر بها ، كما تظهر باللغة الانجليزية ايضا . وبعد ذلك ، نشر ذلك المقال فى صورة كتيبات او نشرات . وفى السنة نفسها ، نظمت جريدة «الرأى الهندى» مسابقة فى مقال عن «الفلسفة الاخلاقية للمقاومة الايجابية ، مع اشارة خاصة الى مقال ثورو ، الذى جذب انتباه المستر غاندى .

لما كان غاندى غير راض عن المصطلح «المقاومة الايجابية» ، وفى الوقت نفسه لم يجد مصطلحا بديلا ملائما ، وافق من فوره على استعارة «العصيان المدنى» لوصف حركته . قرر ان هذا المصطلح تعبير عن مبدأ الصلابة فى غير عنف ، مع تمسك بالحقيقة والعدالة - وهذه سياسة دبلوماسية تنطبق تماما وفلسفة غاندى . فصار «العصيان المدنى» فى يدى المهاتما غاندى انجيلا لعدم المقاومة . . صاغ غاندى لاتباعه الهندوكيين مصطلحا معادلا «ساتيجراها Satygraha» ويتكون من كلمتين سانسكويتيتين

ترجمتهما «قوة الروح» أو «القوة المولودة من الحقيقة والمحبة ،
أو عدم العنف» .

يقول كريشنالال شريدهاراني Krishnalal Shridharani وهو أحد كتاب تاريخ حياة غاندى : «ان نضال ثورو ضد تجارة الرقيق في الولايات المتحدة ، قد شبع غاندى بالايامن بأن عدد المقاومة ليس هو مايمهم في «قوة الروح» وإنما الذى يهم هو نقاء روح التضحية» . وقرر غاندى :

الأوامر مستحيلة عندما تنحصر في عدد قليل من المتعضين ،
وهى متعبة عند وجوب تنفيذها ضد الكثيرين من ذوى النفوس
السامية ، الذين لم يقترفوا اثما ، والذين يرفضون دفع
الضريبة دفاعا عن مبدأ . وعندما يلجأ الافراد العزل الى هذه
الطريقة للتعبير عن احتجاجهم ، فقد لا يسترعون كثيرا من الانتباه .
بيد ان الامثلة الظاهرة تنتهج طرقا غريبة لمضاعفة انفسها . انها
تتحمل الاعلان ، وبدلا من أن تعانى الكراهية ، تحظى بالتهانى . .
حقق أناس ، أمثال ثورو ، الفاء تجارة الرقيق بمثلهم
الشخصية .

بهذه العبارات كان غاندى يردد الفاظ ثورو عن قوة الاقلية
الصغيرة ذات العزيمة الثابتة . وبدا ، كما علق شريدهاراني «ام
يصنع ثورو سلاح العصيان المدنى الذى هو قاعدة هامة في مقال
غاندى «قوة الروح» ، لم يصنع ثورو هذا فحسب ، بل وأبرز
قوة عدم التعاون التى كبرها غاندى بعد ذلك كوسيلة لتحطيم
حكومة فاسدة» .

بقى غاندى في جنوب افريقيا طوال عام ١٩١٤ يقوم بمعركة
مع قوات الحكومة التى يقودها الجنرال جان سميثس

Jan Smuts ، وقد تميزت تلك الحملة بالاضطهاد والعنف المتعدد الصور ، والسجن وجميع الوسائل الاخرى المتوفرة لدى حكومة قوية لمحاولة قمع اقلية غير شهيرة . . افادت طرق غاندى من عدم التعاون وعدم المقاومة والعصيان المدني او «قوة الروح» ، وفي النهاية وافق رئيس الوزراء سمطس وحكومته ، على كل طلب هام للهنود ، ومن ذلك الغاء قانون بصمات الاصابع ، والغاء ضريبة الثلاثة الجنيهات على الرأس ، والتصديق على صحة زواج الهندوس والمسلمين ، وازالة القيود المفروضة على هجرة الهنود المتعلمين ، والوعد بحماية الحقوق الشرعية للمواطنين الهنود .

وقرر اندوز Andrews ، وهو كاتب آخر لتاريخ حياة غاندى ، انه يجب اعتبار حملة جنوب افريقيا « ليس المثال الاول فحسب ، بل والمثال الكلاسيكى لاستخدام عدم المقاومة بواسطة جموع الناس المنظمة لدفع المظالم » .

وتبعاً لما قاله شريدهارنى ، كان تفسير غاندى للعصيان المدني هو أن :

بوسع أولئك الراغبين في طاعة القانون وحدهم . . . أن يكون لهم الحق في ممارسة العصيان المدني ضد القوانين غير العادلة . ويختلف هذا الامر تمام الاختلاف عن مسلك طريدى القانون ، لانهم يمارسونه علنا وبعد سابق انذار مناسب . . . لم يكن من اللائق ، اذن ، تنمية عادة كسر القانون او خلق جو من الفوضى . وانما يلجئون اليه فقط عندما تخفق جميع الوسائل الاخرى كالشكاوى والمفاوضات والتحكيم ، في دفع الظلم .

عاد غاندى الى الهند في اوائل سنة ١٩١٥ ، وبقي هناك حتى قتل في سنة ١٩٤٨ ، اغتاله مجرم هندوكى ، وهو يقود القوات التى جلبت الحرية للهند وباكستان . وحدث شغب

ومذابح وأحكام بالسجن لمدد طويلة وكبت للحريات المدنية وتوانين ظالمة للنضال بها . وكثيرا ما استخدم العصيان المدني ابان هذه السنين ، وشجذه غاندى حتى جعله سلاحا ذا اثر عجيب . كانت الخطوات الاولى اضطرابات ومظاهرات ومفاوضات ، وان امكن تحكيمها . واذا لم تات هذه بنتائج ، كانوا يلحثون الى الطرق الاقتصادية كالاضراب والمقاطعة التجارية والاعتصام . ومن الطرق الأخرى عدم دفع الضرائب .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٧ منحت بريطانيا الهند الهندوكية وباكستان الاسلامية حق تقرير المصير .

لا شك فى أن المستقبل سيمرى فوائد اخرى لاستخدام مبادئ العصيان المدني كما وضعها ثورو ونقحها غاندى . وان قوى الشعوب المظاومة فى كل مكان ، حتى فى الدكتاتوريات الحديثة الوحشية ، تستطيع بهذه الوسائل ارغام السلطات على الاحساس بها . ومن الامثلة السائرة نضال شعوب جنوب أفريقيا الملونة ضد حكومة ستريجدون Strijdon وهو تحديد لنضال غاندى .

قال غاندى : « فحتى أكثر الحكومات استبدادا لا يمكن أن تقوم الا بموافقة المحكومين ، تلك الموافقة التى كثيرا ما يحصل عليها المستبد باستخدام القوة . وعلى الفور تكف الرعية عن الخوف من انقوة المستبدة . لقد ذهب ربح ذلك المستبد ، وتعوضت القلوب من رعبها منه ، الجراة عليه » .

نبد ثورو الحكومة التسلطية والحكومة المطلقة فى أية صورة من صورهما . كانت مذاهبه ، على طول الخط ، ضد الشيوعية والاشتراكية ، او أى مذهب آخر يجعل الحكومة فوق حقوق الفرد . ويجب التنويه عن أن اتجاه الحكومة فى منتصف القرن العشرين ، يدل على أن أفكار ثورو تقاثل فى حرب خاسرة . ومع

ذلك ، ففي العالم عموماً ، نجد مسألة علاقة المواطن بحكومته -
أى طبيعة ومدى طاعته لها - لم تكن عاجلة أكثر من هذا .

كتب باريجتون Parrington يقول : « ان فلسفة الفردية
في القرن الثامن عشر ، والإباحية القوية التي أطلقها جان
جاك روسو Jean Jacques Rousseau وقد بلغت ذروتها في ميوانجلاند
عن طريق ثورو . كان التجسد الكامل لرد فعل مبدأ «حرية
التعامل» على النظام الاجتماعي المدعم بالقوة العسكرية ، وأقصى
ناقد للاقتصاديات الدنيا ، التي تحبط أحلام الحرية البشرية .
بأعشابه ، وكان سعيد الحظ في عدم تكهنه بمقدار بعد ذلك
المستقبل ، مستقبل الاحرار ، الذي ثبت عليه آماله » .

٦ - مغامرة من أجل المساكين

هاريت بيتشرستو HARRIET BEECHER STOW

كابينة العم توم

اتفق نقاد « كابينة العم توم » ، من مادحين وقادحين ، في نقطة واحدة . فقد اذترفوا جميعا ، بغير استثناء ، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره ، وبنفوذه القوي في التحريض على الحزب الأهلية . وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين ، هندا المؤلف بأنه : « تشويبه وحشى أوحى به التعصب لالغاء الرق » ، وأنه موضوع لاثارة الشقاق بين الأقسام » . وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتاب ، في أوائل القرن الحالى ، ملاحظته بقوله : « أحدث كتاب ، كابينة العم توم ، ضرا للعالم يفوق ما فعله أى كتاب آخر » .

وعلى نقيض هذين ، عبر عددا كبير من المعجبين ، عن عاطفتهم بخطاب، جاء من لونها يصف كتاب كابينة العم توم ، بأنه : « أحد الانتصارات العظمى التى سجلها تاريخ الأدب علاوة

على أثره الأخلاقي » . وقرظ آخرون ذلك الكتاب على انه
« انتصار للحقيقة » و « خالد » وأن المؤلف « سيدة نابغة بدون
جدال » .

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا أحسن توقيتا
وظيفيا . . زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق . وزاد في
حدتها التصديق على قانون العبيد الهاربين - ظل المطالبون بالغاء
الرقيق عشرين سنة يصعدون من إثارة الرأي العام ضد الرق ،
وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين ، بتزايد المعارضين للرق
من رجال الدين - من الشمال والجنوب - وهم يصيحون من
منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة استخدام العبيد وامتلاكهم .
وبلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز
العالم كله ، وقد زودهم كتاب كابينة العم توم بهذه الشرارة .

لم يكن الوقت مناسباً فقط ، بل ظلت الوراثة والبيئة
تشكلان الشخص الملائم بالضبط لاثارة المغامرة ضد استرقاق
البشر .

وإذ كانت هاريت بيتشرستو ابنة رجل من أشهر الناس
قداسة في القرن التاسع عشر ، وهو لايمان بيتشر
Layman Beecher وشقيقة واعظ أكثر عاطفة من أبيه وهو هنري
وارد بيتشر Henry Ward Beecher وزوجة واعظ ، وشقيقة
ووالدة واعظ آخرين ، قضت حياتها كلها في جو ديني
بحت . وزيادة على ذلك ، كان تعليمها الديني كلفينيا متعصبا ،
متمسكة بروح جونان ادواردز وصموئيل Jonathan Edwards
هوبكنز Samuel Hopkins وغيرهما من متصوفي نيو إنجلاند ، كما
أحاط بها باستمرار منذ نعومة أظفارها تعاليم لاهوتية « كالتار
والكبريت » . . فلما كانت هاريت تستطيع إلا أن تكون واعظة -
أن لم يكن من منبر ، فعلى الأقل بالقلم . تجلى الأساس الديني

في جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كابينة العم نوم ، يحفزها الى الحماس الانجيلي وقصاحة التعبير بالآيات المقدسة .

ولدت هاريت بيتشر ستون ليتشفيلد Litchfield بولاية كنتيكت Connecticut في سنة ١٨١١ ونالت قسطا من التعليم في هايرتفورد Hartford أفضل مما جرت العادة أن تناله النساء في عصرنا . وكان حوالى ثلثي تعليمها دينيا في طبيعته . وكانت مولعة بالقراءة . وزيادة على علم اللاهوت ، كان المؤلفان المفضلان لديها هما بايرون Byron وسكوت Scott اللذين كان لهما تأثير كبير في أسلوب كتابتها .

انتقل لايمان بيتشر ، الكثير التنقل ، مع أسرته من ليتشفيلد الى أبروشية في بوسطن Boston ، وكانت هاريت عندئذ في الرابعة عشرة من عمرها ، وبعد ذلك ببضع سنين انتقل ثانية الى سنسناتي Cincinatti حيث استدعى رئيسا للجمع اللاهوتي في لين Lane حيث بقيت هاريت الى سنة ١٩٥٠ تقوم بالتعليم في مدرسة هناك ، وتزوجت عضوا من كلية ذلك المجمع ، هو كالفين ستو Calvin Stowe ، فأنجبت سبعة من أطفالها السبعة . وبين آن وآخر ، كانت ترسم وتكتب القصص للنشر في المجالات هناك .

كانت السنوات التي قضتها في سنسناتي شكلية في كثير من النواحي . وتقع سنسناتي هذه على نهر أوهيو Ohio في مواجهة مزارع شاسعة يفلحها العبيد في ولاية كنتكي Kentucky وكانت مركزا لحركة ثائرة ضد الرق . وكان الرعا المعارضون لالغاء الرقيق يجوبون شوارعها يحطمون المطابع المضادة للرق ، وينسيئون معاملة الزوج الأحرار . فألقيت الخطب العنيفة لابطال الرق . كما كانت سنسناتي مليجا للعبيد الهاربين ، وهم في

طريقهم الى الشمال بالسكة الحديدية تحت الارضية الى البحرية،
في كندا . وكان المجمع نفسه مربى للعاطفة المناوئة للرق ، ولم
يحمه من هجوم الرعاع الا موقعه في شارع وعمر موحل يبعد عن
المدينة بمسافة ميلين . وقد اوى بيت لايمان بيتشر الهاريين في
عدة مناسبات . وصل الى اذنى هاريت ، مباشرة ، من افواه
العبيد الهاريين قصص عن عائلات تفككت ، عن قسوة ملاحضى
عمل العبيد ، وفضائع مبنى المزاد ، وأهوال مطاردة الهاريين .

رات مسز ستو بعينى رأسها ، مرة واحدة ، العمل في
أنظمة الاحتفاظ بالعبيد . ففي زيارة قصيرة مع بعض الاصدقاء
لمدينة ماينفيل Maysville بولاية كنتكى ، سنة ١٨٣٣ ،
شاهدت عددا من المزارع بها عدد كبير من البيوت الريفية وعنابر
العبيد . هنا وجدت نموذج المزرعة التى تخيلتها لكتاب « كايينه
العم توم » وهى مزرعة شلبى Shelby . كما حصلت على
أفكار عملية لنظام عمل العبيد . وزادت ذخيرتها من عند أخيها
شارلز الذى يعمل رجل أعمال ويسافر الى نيو أورليانز
New Orleans وريف النهر الأحمر ، اذ جاءها بقصص
بشعة عن الرق فى أقصى الجنوب . كانت هاريت مدينة لشارلز
بنموذج بطل كايينة العم توم ، وهو سيمون لجرى Simon Legree
الذى يتميز بوحشية ملاحظ العبيد ، وقد التقى به شارلز على
ظهر سفينة فى نهر المسيسى Mississippi

وفى السنوات التى قضتها هاريت ستو فى سنسناتى ، ام
تكن من مجبذى الغاء الرق المتحمسين ، وربما شاركت ابناها رايه
فى أن الالغاء يتكون من « الخل وحامض النتريك وزيت الزاج
(حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتى ،
ليتفجر فتتأثر المادة الاكالة . » والواقع أن مسز ستو كانت
متفرجة اكثر منها بطلة عاملة فى معركة الرقيق ، حتى عادت الى

نيو انجلاند اذ عين كالقين ستو استاذا بكلية بودوين Bowdoin
بولاية مين Maine ، فانتقل اليها مع أسرته في سنة ١٨٥٠ .

كانت نيو انجلاند كلها نائرة حنقا على اقرار قانون العبيد
الهاربين وخصوصا ضد أحداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون في
بوسطن . فأصحاب العبيد في الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد
الهاربين داخل الولايات الحرة مع الزام موظفي هذه الولايات
بمساعدهم في استعادة مملوكيهم . وزيادة على ذلك ، فان الزوج
الذين نعموا بالحرية قانونا منذ مدة طويلة ، جمعوا وأعيدوا
الى أصحابهم السابقين ، وغالبا ما انفصلوا عن عائلاتهم في هذه
العملية .

تسلمت هاريت ستو خطابا من زوجة أخيها مسز ادوارد
بيتشر ترجوها فيه ان تكتب شيئا يجعل أمة بأسرها تشعر
بفظاعة الرق « . وتبعا لتقاليد أسرة ستو ، قالت هاريت :
« بمساعدة الرب سأكتب شيئا ان أحياني الله » . وفي تلك
الآناء ، كان أخوها ادوارد نائرا ضد الرق في كنيسة بوسطن :
بينما يعقد أخوها الآخر هنرى وأرد ، مزارات في كنيسته بمدينة
بروكلين Brooklyn لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية :

كان القسم الاول من كتاب « كابينة العم توم » ، الذى كان
ما يزال في طور التأليف ، هو غاية الموضوع ، ويصف موت توم .
وبينما كانت مسز ستو حاضرة في كنيسة برنسويك Brunswick
أثناء توزيع الديبحة المقدسة ، استرجعت كافة المناظر المتجمعة
في عين ذهنها . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت الى
حجرتها وأقفلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفذ ما لديها
من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البنى اللون واكملت فيه
قصتها . وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذى عنوانه
« الشهيد » فى كتاب « كابينة العم توم » . ولما قرأته لأولادها

وزوجها تأثروا جميعا تأثرا عميقا . ويقال ان كالفين ستو ، صاح
يقول : « أى هاتي ، هذه ذروة قصة الرق التى وعدت شقيقتى
ايزابيل بكتابتها . ابدئى من البداية حتى تصلى الى هذه ،
تحصلى على كتابك » .

بعد أسابيع قليلة ، كتبت هاريت ستو الى جامايل بايلى
Gamaliel Bailey محرر صحيفة « العصر القومى » ، وهى
جريدة مناصرة لانغاء الرق تصدر فى واشنطن ، وكان بايلى
يعرف أسرة بيتشر فى سنسنتاى حيث كان يصدر جريدة أخرى
مناهضة للرق عنوانها « الخير » ، حتى طرد من هناك فى كثير من
العنف . ذكرت مسز ستو فى خطابها انها تعزم كتابة قصة اسمها
« كايينة العم توم » من « الرجل الذى كان شيئا » (وهذا عنوان
غير فيما بعد الى : (الحياة بين المساكين) فى صورة حلقات تصل
الى ثلاث أو أربع . فعرض عليها بايلى ثلثمائة دولار لحقوق
النشر ، وبدأت صحيفة « العصر القومى » تنشر الحلقات فى
شهر يونية سنة ١٩٥١ .

توقعت مسز ستو أن ينتهى ذلك المؤلف فى شهر ، ولكنه
امتد باستمرار فى مناظر وأحداث وشخصيات ومحادثات كانت
مكدسة فى ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالأكوام .
بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسا . امتدت
الحلقات الاسبوعية لمدة سنة تقريبا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة
من الوصول الى خاتمة كتابها . بعد ذلك ، أصرت على أن الله
نفسه هو الذى كتبه ، ولم أكن أنا سوى أداة فى يده ، .

لم تكن الخطة الأصلية لقصة « كايينة العم توم » معقدة ،
ولو أنها تتضمن عدة شخصيات . ففى المنظر الافتتاحى : لى
يسدد المستر شلبى ، وهو صاحب عبيد خير من كنتكى ، ديونه ،
اضطر الى أن يبيع بعضا من خيرة عبيده ، ومنهم العم توم ، الى

نحاس في نيو أورليانز اسمه هيلي Haley . فاسترقت السمع فتاة نصف زيجية اسمها اليزا Eliza فعرفت ان طفلها هارى سيباع أيضا . وفي ديجور الظلام ليلا ، هربت مع ابنها وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبا للحرية في كندا . وكان زوجها جورج هاريس George Harris عبدا في مزرعة قريبة ، فهرب هو أيضا ولحق بها . وأخيرا ، وبعد عدة مفامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التي طاردتهم ، وبمساعدة أعضاء جمعية الأصدقاء التي أسسها جورج فوكس ، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم ، على طول الطريق ، وصلوا الى كندا : ثم بعد ذلك الى أفريقيا .

أما العم توم فكان سييء الحظ ، اذ رفض الهروب . لثلا يربك سيده ، وفصل عن زوجته وأولاده . وابتان الرحلة في نهر المسيسيبي الى نيو أورليانز ، انقذ توم حياة الصغيرة ايفا Eva ولكي يعبر أبوها سانت كلير St. Claire عن شكره لتوم ، اشتراه من النحاس . . كانت السننتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخادم في بيت سانت كلير المنيف في نيو أورليانز مع الطفلة القديسة ايفا ورفيقها الزنجي الصغير توبسى Topsy . ثم ماتت ايفا ، وفي ذكراها ، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين ، ولكن سانت كلير قتل فجأة وهو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين ، فأمرت زوجته بارسال توم الى سوق الرقيق ليباع بالمزاد العلني ، فاشتراه مزارع متوحش سكير من متعقة النهر الاحمر اسمه سيمون تجرى . وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبدله كل جهد لارضاء سيده القاسي ، فان لجري سرعان ما بدأ يمقت توم ، وكان يسوطه كثيرا . وحدث ان اعتزمت اثنتان من الاماء كاسي Cassy واملين Emmeline الهرب من المزرعة والاختباء في مكان ما . فاتهم لجري توم بمساعدتهما واشتبه في أنه يعرف أين تختبئان . وعندما رفض

توم الافضاء بأية معلومات ، ظل لجرى يسوطه حتى فقد وعيه .
وبعد ذلك بيومين ، جاء جورج شلبي الصفيير ابن صاحب نوم
السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان ، اذ مات توم
متأثراً بجراح ضربه الوحشى القاتل . فما كان من جورج الا ان
ضرب لجرى فطرحة أرضا ، ثم عاد الى كنتيكي فاعتق جميع
العبيد باسم العم توم ، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية الغاء
الرق .

رغم ان توزيع صحيفة « العصر القومى » لم يكن ضخما .
فقد حظى كتاب « كابينة العم توم » باقبال حماسى فى خلال بضعة
أشهر . وقبل ظهور الباب الأخير اخرج وليد أفكار مسز مستر
من المطبعة فى صورة كتاب . تعهدت مؤسسة جون ب . جيويت
John P. Jewett لى بوسطون بهذا العمل فى خوف عظيم
بسبب طوله ، من جهة ، وكون مؤلفته امرأة ، من جهة اخرى ،
وعدم شعبية موضوعه . ولكى يحتاط جيويت ضد أى خسارة
مالية ، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف
تكاليف الانتاج . ولكن ، بدلا من ذلك ، اختارت أسرة ستو أن
تحصل على ١٠٪ من ثمن النسخ المبعة - فأضاع عليهم هذا القرار
ثروة .

لم يكن كل من الناشر والمؤلفة متفائلا من نجاح « كابينة العم
توم » . فعبرت مسز ستو عن أملها فى أن يأتيها ذلك الكتاب
بما يكفى لشراء ثوب جديد من الحرير . كانت الطبعة الأصلية
٥٠٠ نسخة من جزئين ، وقد رسم على وجه الغلاف صورة
كوخ زنجى .

بيعت ٣٠٠٠ نسخة فى اليوم الاول للنشر ، وبيع الباقى كله
فى اليوم التالى ؛ بينما تدفقت الطلبات . وفى خلال أسبوع بيعت
١٠٠٠٠ نسخة ، وفى نهاية السنة الاولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠
نسخة فى الولايات المتحدة وحدها . كانت ثمانى آلات طباعة آلية

تعمل ليل نهار لسد المطلوب ، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم . ورغم هذا ، كان الناشر لا يزال فى حاجة الى ألوف من النسخ لسد الطلبات . « ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة فى الدولة قد قرأ هذا الكتاب .

كانت شهرة « كابيننة العم توم » فى الخارج تزيد على المبيعات فى الولايات المتحدة نفسها . أرسل موظف صغير لدى بوتنام Putnam نسخة الى ناشر انجليزى ، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه . فظهرت عدة طبعات مسروقة ، إذ لم تكن هناك حماية دولية. لحق التأليف . وسرعان ما كانت هناك ثمانى عشرة مؤسسة انجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة . وقدر أنه فى خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة فى بريطانيا العظمى والمستعمرات . ولم تحصل مسز ستو على أى شىء من ثمن كل هذه المبيعات وفى الوقت نفسه ، كان الناشر الأوروبيون مشغولين بجنى ثمار ذلك المحصول الذهبى . فقد ترجم هذه الكتاب الى اثنتين وعشرين لغة على الأقل ، ولقى النجاح فى فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا والدول الأخرى بمثل النجاح الذى لقيه فى الدول المتكلمة بالانجليزية .

وزيادة على ذلك ، حولت هذه الرواية الى مسرحية وصارت واحدة من أشهر المسرحيات التى مثلت فى المسارح الأمريكية ، وظهر منها عدد لا يحصى من الطبعات قام بها جماعات مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضى . ومرة أخرى ، لم تكسب مسز ستو شيئاً مالياً ، إذ أن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذى كان سائداً فى سنة ١٨٥٢ لم يعطها اشرافاً على تحويل روايتها الى مسرحية . وعلى أية حال ، لم تستحسن مسز ستو تحويلها الى مسرحية ، ورفضت أن تطلب تصريحاً بتحويل كتابها الى مسرحية .

وبالجملة ، فان ما أجرزه كتاب « كابينة العم توم » من شهرة وربح ، لم يحرزه أى كتاب آخر فى تاريخ النشر ، فيما عدا التوراة الذى شرب الرقم القياسى فى المبيعات . صار هذا الكتاب ملكنا للملايين فى شتى صوره : الخيالية والمسرحية والشعرية والموسيقية ، كما طاف حول الكرة الأرضية .

كان تأثير كتاب « كابينة العم توم » على الراى والعواطف المعاصرة هائلا مثل ضخامة مبيعاته . وفيما بعد وصف ابن مسز ستو وحفيدها اقبال الناس ، بقولهما : « كان مثل اشغال حريق ضخم ، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذى اكتسح أمامه كل شئ وعبر المحيط الشاسع نفسه ، حتى بدا أن العالم كله قلما كان يفكر فى شئ او يتحدث عن شئ سواه » .

بيد انه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والانكار والقدح ، انصبت على مؤلفة « كابينة العم توم » . وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور . وامتلات أعمدة فى الصحف من النقد المفصل بقصد اظهار أخطاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق . ومن التعليقات النموذجية ، تقرير صحيفة « الرسول الأدبى الجنوبى » القائل بأن ذلك الكتاب « بفاء اجرامى لوظائف الخيال السامية » ، وأن مسز ستو ، اذ اقترفت اثما بتأليفه ، « قد وضعت نفسها خارج نطاق العلاج الطيب على يدي النقد الجنوبى » . وتسلمت مسز ستو شخصيا ، ألوقا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب . . وفى البداية ، أنتشر توزيع كتاب « كابينة العم توم » فى الجنوب بحرية ، غير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير ، صار مجرد حوزة نسخة من هذا الكتاب ، خطرا أى خطر .

ومن قبيل التهكم ، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بأن روايتها

« كابينة العم توم » قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذى طال امده . وبعد أن قرأ أحد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب ، كتب اليها يقول : « سيكون كتابك مصلحا عظيما يوحد بين الشمال والجنوب » . . حاولت مسز ستو فى كتاب « كابينة العم توم » أن تقدم فى عدل طرفى النزاع فى جدال الرق - التصورى والدينى من ناحية ، والقاسى المتشائم من جهة أخرى . صور اثنان من أصحاب العبيد فى ذلك الكتاب ، هما المستر شلبى وأوجستين سانت كلير ، وهما أخوان من الجنوب عظيما الفضل . وربما كانت أيضا الصغيرة ، ابنة سانت كلير أكثر الاطفال ملائكية فى الأدب كله . أما ألوغد الأعظم سيمون لجرى فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت Vermont . كما يتحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين أخريين من نيو انجلاند هما مس أوفيليا Miss Ophelia وماركس Marks . وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالى الشمال ينقصهم الوعى الكافى بصفة قاطعة عن الزنوج ، ومع ذلك ، فقد يعطفون عليهم فى شىء من الغموض .

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لأرضاء استياء الجنوب . فقد توالى الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق . مثال ذلك : أشير الى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة أزاء قتل العبيد مثلما هى صارمة أزاء قتل البيض ، وتحرم اللوائح عادة فصل الاطفال ، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، عن أمهاتهم . هذا ، والعبيد كمتلكات بالغو القيمة فلا يجب اساءة معاملتهم اساءة خطيرة .

أما فى الشمال ، فاستقبل كتاب « كابينة العم توم » استقبالا مختلطا : فحتى البعض ، الذين يمقتون الرق ، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يشير حربيا أهلية . كما ذمه أهل الشمال

المستثمرون أموالا فى أعمال قطن الجنوب خشية أن يعرض استثماراتهم للخطر . وعبرت صحيفة التجارة النيويوركية عن وجهة نظرهم هذه فى نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو . ومع ذلك ، فعموما ، تقبل القراء الشماليون « كابينة العم توم » على أنه انهام حق لنظام الرقيق . ولما لم يعمل شيء غير ذلك ، تحرك الضمير القومى والفرائز الانسانية فاثارت هذه القصة واصابت نفمات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول ارواحا بشرية .

ومن الآثار المباشرة لكابينة العم توم ، استحالة التصديق على قانون العبيد الهاريين . فكان عدم التعاون مع القانون اجماعيا خارج الجنوب . والأشد من ذلك ، أن ذلك الكتاب ألهب مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق، وربما جعل من المحتم نشوب حرب أهلية وبالتأكيد ، كان هذا الكتاب السبب الاكبر فى ذلك الالتحام المنتهى بكارثة ، كما أدرك ابراهام لنكولن Abraham Lincoln وهو يصافح مسز ستو عندما زارت البيت الأبيض فى سنة ١٨٦٢ ، وقال عنها انها « السيدة الصغيرة التى كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة . » وأبدى تشارلز سمنر Charles Sumner ملاحظته بأنه « اذا لم يؤلف كتاب « كابينة العم توم » ، فما كان لابراهام لنكولن أن ينتخب رئيسا للولايات المتحدة » .

أما القبة الأدبية لكابينة العم توم ، فلم تلق الا اهتماما سطحيا فى بادئ الأمر ، رغم أن النقاد جميعا ناقشوها فيما بعد . ولاحظ المؤرخ جيمس فورد رودز James Ford Rhodes أن « الأسلوب عادى ، واللغة ، فى أغلب الأحوال ، مبتدلة وقبح انيقة ، وتنقلب أحيانا الى اللغة العامية ، والدعاية متكلفة » . وناقش أحد النقاد الجنوبيين وهو ستارك ينج Stark Young

استخدام مسز ستو للهجة الزوج ، فيقول : « رات كثيرا من السود ، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون . اذنها مستحيلة ، ليس لديها احساس بوقع لغتهم أو حيويتها. » ويشير فان ويك بروكس Van Wyck Brooks الى « عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية . » ورغم هذا ، يصفه بأنه « وثيقة انسانية عظيمة » . وتعتقد معلقة حديثة أخرى ، هي كاثارين أنتوني Katharine Anthony ان « كابينة العم توم قصة وصورة للاخلاق الامريكية . . وتستحق التقدير السامى بغير ماريب . ومن الجلى أن مسز ستو مولعة بالجنوب . فبينما هي تمقته لأنه في جانب أرق ، رايها تصور جوه بحرارة وعطف . كانت طليعة الكتاب الامريكيين في تناول مسألة الزوج بجدية ، وبتخييل قصة بطلها رجل اسود . ورغم أنها كتبت لغرض أخلاقي ، فقد نسيت المؤلفه الغرض الأسمى أحيانا في متعة انسياقها في سرد قصتها . » اما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظيمة كوثيقة اجتماعية أكثر منها عمل فنى أدبى أو كلاسيكى . وبالتأكيد هي أكثر من مجرد قصة ، كما وصفها قلم «كاو» فيقول انها : «مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات » .

اكسب كتاب « كابينة العم توم » مسز ستو ، فى الحال ، شهرة عالمية . وفى السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات الى الخارج ، زارت فيها انجلترا واسكتلندة ، حيث التقى ورحب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة المالكة وعلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت وديكنز Dickens وجورج إليوت George Elliot وكنجزلى Kingsley ورسكين Ruskin وماكولى Macaulay وجلادستون Gladstone وفى رحلتها المظفرة هذه ، استقبلها ، بحماس بالغ ، عامة الشعب

الذين رأوا فيها بطله المساكين وفي ادنبره Edinburgh قدموا لها هدية بنسا قوميا بلغت حصيلته الف جنيه ذهبي لمساعدتها في محاربة الرق ٠٠ لم يسبق قط أن مؤلفا أمريكيا خلق مثل هذه الاثارة البالغة ، ولا استقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار في الجزر البريطانية .

وقد حاولت مرارا البرهنة على ان صورة الرق المرسومة في كتابها ليس فيها اية مبالغة ، ولا هي « وليدة الأكاذيب » كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحا لكابينة العم توم ، التي قالت انها « ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التي ستبنى عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة العم توم » . وينقسم هذا المؤلف الى أربعة أقسام تبدأ بوصف الشخصيات لتثبت أنهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية . ويشمل القسم الثاني قوانين العبيد مبينا أن اللوائح القائمة لا تحمي العبيد ، ثم يأتي سرد حياة العبيد كأفراد ، واخفاق الرأي العام في حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقي للرق على الأعمال الحرة في الجنوب . وأخيرا ، وجه اتهام للكنايس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق .

كانت نشرة « المفتاح » ضعيفة ، وعيبتها الخطير انها جمعت مادتها بعد ظهور « كابينة العم توم » ، وكان الكثير من تلك المادة مبنيًا على الشائعات . وعلى ذلك لم تحرز نجاحا مع الشعب ، ولم تضيف الا القليل من القوة لاتهام رواية « كابينة العم توم » . وكمثال للعدل الالهي ، قام الناشر الانجليزي الذي سرق « كابينة العم توم » وطبعها في انجلترا ، بطبع خمسين ألف نسخة من نشرة « المفتاح » متوقعا ضربة حظ اخرى ، ولكن هذه الأخيرة كانت سبب افلاسه .

كتبت مسز ستو بقلمها الكثير التصانيف ، مؤلفا آخر عن الرق ، هو رواية « دريد Dred » ، التي نشرت في سنة ١٨٥٦ ، ويبيع منها مائة الف نسخة في أربعة أسابيع ، رغم انها لم تصل الى شهرة « كابينة العم توم » كانت فكرة المؤلفة في « دريد » هي الأثر السيئ لنظام الرق على الرجل الأبيض - كل من المالك ، ومستأجر المراعى الأبيض الفقير . كان الخلط بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص ، مسرحيا . ورواية « دريد » هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء ، والوعاظ المطالبين بانعاش الفقراء ، وحيات المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة ، مثل العم توم ، لتحظى بعطف القارىء .

أنتجت مسز ستو ، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة ، سيلا لاينتهى من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية . ولدت ثلاثين عاما تقريبا ، كان متوسط انتاجها كتابا واحدا في كل عام . ولكنها تركت موضوع الرق في معظم انتاجها . وفي أثناء الحرب الاهلية ، كان أهم ما أسهمت به خطابا الى نساء انجلترا تذكرهن باستجابتهن الشاملة والمحبذة لكتاب « كابينة العم توم » ، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة اعوام ، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنوب ، وأعمالهن بعد نشوب الحرب . ونتيجة لذلك الخطاب ، عقدت اجتماعات كبيرة في الجزر البريطانية بقصد تغيير الراى الانجليزى الحاكم نحو قضية الاتحاد . وعلى هذا ، فربما لعب خطاب مسز ستو دورا هاما في منع التدخل الانجليزى ، في وقت كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالى للخطر .

عند تقدير مركز هاريت بيتشر ستو في التاريخ ، قال كيرك مونرو Kirk Monroe : « انها لا تقف فقط في مقدمة

الصف الامامى بين نساء العالم ، بل وفي تشكيل مصير الشعب الامريكى ، فى فترة حرجة اشد الحرج فى تاريخهم ، كان نفوذها اقوى من نفوذ أى فرد آخر ٠٠٠ وبالطبع لايمكن لأى فرد انجاز منع الرق وحده ، ولايمكن ان يقوم به أى شخص واحد .
وأشار مونرو وهو يستعرض العناصر التى حققت النصر النهائى ، قائلا : «ولكن أعظم هذه العناصر كلها ، وأقواها تأثيرا هو «كابينة العم توم» .

ربما كان التقدير النهائى لكتاب «كابينة العم توم» ، والذى أمكن ذكره بعد قرن ، هو ماقررتة مؤلفة أخرى أسماها كونستانس رورك Constance Rourke ، إذ قالت : « ولو أنه تهشم من فرط الهياج الذى صاحب حياته المستقبلية ، ورغم عيوبه فى بعض الامور الأساسية ، فمازال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة ، صفات تفند التهمة السهلة العادية ، وهى المبالغة . والواضح ان هذا الكتاب يفتقر الى الواقعية الحقيقية ، ولكن ربما كان من الواجب الا نحكم عليه بالواقعية اطلاقا . ومن الجلى أنه ينقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصين بالكتابة العظيمة . ليست عاطفيته حرة قط ، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار ، انها تجرى فى سباق لانهاية له ، ويبدو ان الهستيريا قد خلقت هذا السباق . بيد ان القوة السليمة لتلك العاطفة أنتجت اتساعات فى امتدادها ، واتزان غير محسوبة ، ويذكر امتصاصها المتدفق بالنتيجة الضخمة للعمل ، ومجموعاتها المفككة للاقدار المتشابكة ، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم . كما أنها تتصف ، قبل كل شئ ، بالحركة المؤثرة نحو أهداف مجهولة على مسافات طويلة

تغدو الفكرة التي لاتقاوم للسرد الاعظم ، المذكور هنا بالعواطف العميقة ، لان المخامرة ليست حرة ابدا ، وانما تقطع دائما عند نهايتها ، او تساق الى الخطر .

وقد اكد فان ويك بروكس Van Wyck Brooks ان «كابينة العم توم» قد نقل من الجوّ الذي كتب فيه ، ورغم ذلك ، بقى صورة شعبية عظيمة لعصر ولأمة » .

٧ - عراف طبقة العصامين

KARL MARX كارل ماركس

DAS KAPITAL رأس المال

قال فريدريك انجلز Friedrich Engels في وراثته لكارل ماركس : « كان ماركس ، قبل كل شيء ، ثوريا هدفه العظيم في الحياة أن يتعاون بهذه الصورة أو تلك ، لقهر المجتمع الرأسمالي ومؤسسات الحكومة التي خلقها» . بهذه الألفاظ لخص معاون ماركس وتلميذه وأخلص أصدقائه ، في إيجاز ، القوة الدافعة في حياة ذلك المتمرد الاجتماعي الشهير .

ولد ماركس في عصر كثير الشغب . كان الجو مشحونا بالتمرد والقلق . كانت ذكرى الثورة الفرنسية مازالت عالقة بالأذهان ، وثورة أخرى قريبة . وتميزت السنوات العشر التالية بمرارة عامة واسعة النطاق ، وبالهدم والنقد ضد الحكومة القائمة . وفي سنة ١٨٤٨ نمت هذه الحالة الى قوة متفجرة ، ونشبت الثورات خلال أوروبا . وحتى في إنجلترا ، قامت حركة

العمال مطالبين باشتراكهم فى السياسة ، وهددت الحكومة القائمة وقتذاك . سرى الضغط فى كل مكان لتخفيف حدة سوء المعاملة الناتج عن مبدأ العمال الجديد ، والفناء بقايا الاقطاع . كان الوقت مناسباً جداً لميول كارل ماركس الهدامة والناهضة للكنيسة .

درس ماركس الصغير القانون والفلسفة فى بون **Bonn** وبرلين بهدف الحصول على منصب أستاذ ، ولكن الباب أقفل فى وجهه بسبب آرائه المتوترة والمتزايدة بأطرواد ، فاتجه نحو الصحافة . تأسست صحيفة دورية جديدة اسمها *Rheinische Zeitung* ، فى سنة ١٨٤٢ ، فصار ماركس أول مكاتب لها ، ثم مالبت أن صار رئيس تحريرها . وبسبب الهجوم المتكرر لتلك الصحيفة على حكومة بروسيا *Prussia* ، واتجاهها المتطرف عموماً ، أوقفت من الصدور وعمرها لايزيد على السنة الا قليلاً .

انتقل ماركس الى باريس ليدرس الاشتراكية ، ويكتب فى جريدة أخرى قصيرة الاجل اسمها *Franco-German Year Books* فتعرف هناك على أهم ممثلى الفكر الاشتراكى والشيوعى . وأهم حادث فى حياته ومستقبله هو بداية صداقته التى استمرت طول حياته مع فريدريك انجلز وهو زميل المانى غنى نسبياً، وابن صاحب مصنع للقطن ، ومن أنصار المثل الاشتراكية ، مثل ماركس نفسه . وضع انجلز أساس كتاب ماركس « *Das Kapital* أى رأس المال » فى سنة ١٨٤٥ مع نشر كتابه «حالة الطبقات العاملة فى انجلترا» .

وإذ أستمروا ماركس فى إثارة الآراء ضد الحكومة البروسية ، طرده السلطات الفرنسية على أنه أجنبى غير مرغوب فيه . فلجأ الى بروكسل *Brussels* وبقي فيها ثلاث سنوات ثم عاد الى ألمانيا لمدة قصيرة ، ونفى ثانية فعاد الى باريس ابان

ثورة ١٨٤٨ ، وفي تلك السنة ، بالاشتراك مع انجلز ، كتب ونشر
كتيبه «الشيوعي البين» الشهير ، وهو أحد الأعمال الأدبية المتطرفة
ذات الأثر القوي والبالغة العنف ، التي أخرجتها المطابع . ويختتم
هذا الكتيب كلامه بصيحة تحريض على الثورة :

« يعتبر الشيوعيون أنه من الأمور السطحية أن يخفوا
آراءهم ونواياهم . أنهم يقررون في صراحة أن أهدافهم لا يمكن
تحقيقها إلا باستخدام العنف في قلب النظام الاجتماعي المعاصر
كله . فلترتجف الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية . لن
يخسر العمال غير فيودهم . وأمامهم العالم كله ليربوه . أذن ،
فاتحدوا بأعمال العالم ! »

أينما ذهب ماركس ، كان بالغ النشاط ومثيرا عدائيا ، ينظم
حركات العمال ، ويرأس تحرير الصحف الشيوعية ، ويثير
التمرد .

جعل تدهور الثورات الأوروبية ١٨٤٨ - ٤٩ الدنيا ضيقة
جدا لا تتسع لماركس . هاجر إلى إنجلترا في صيف عام ١٨٤٩ وهو
في الحادية والثلاثين من عمره ، وقضى آخر حياته في لندن ،
وتزوج قبل ذلك جيني فون وستفالين Jenny von Westfalen
ابنة موظف بروسي ، بقبت معه حوالي أربعين سنة شريكته الوفيه
تقاسمه فترات الفقر المدقع والحرمان وسوء الحظ لم يعيش من
أولادهما الستة غير ثلاثة . ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان . ومما
لاشك فيه ، أن ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لونت آراء
ماركس ، وتعد مسؤولة عن الحقد والمرارة في كتابته . ولم ينقذ
أسرة ماركس من الموت الحقيقي جوعا سوى المساعدات المالية ،
في كثير من المرات ، من فريديريك انجلز . وكان دخل ماركس الوحيد
مما يكسبه ، جنبها واحدا في الأسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك

تريبيون New York Tribune ، وبعض الأجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة .

ورغم البؤس والدائنين الملحين ، والمرض والحاجة ، التي أحاطت به باستمرار في منطقة سوهو Soho القدرة ، التي أقام بها في لندن . . كان كمادته دائما ، لا يكل في تقدمه في القضايا الاشتراكية سنة بعد سنة . كان يذهب الى المتحف البريطاني لفترات تصل اثنى ست عشرة ساعة في اليوم ، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفه الذي سيكون عنوانه Das Kapital أى رأس المال . ومع عدم حساب فترات التعطل عن التأليف بسبب الأعمال الأخرى والمرض استغرق إعداد هذا الكتاب أكثر من ثمانى عشرة سنة . أما انجلز الذي كان يعول أسرة ماركس في تلك الاثناء ، فقد ينس من إكمال الكتاب ، وقال : « اليوم الذي تذهب فيه النسخة الخطية الى المطبعة ، سأسكر طينة » . كما أشار اليه هو وماركس بقولهما : « ذلك الكتاب اللعين » ، واعترف ماركس بأنه « كابوس حقيقى » .

كان أعظم حادث في حياة ماركس أبان هذه السنين هو تأسيس أول جمعية دولية للعمال الرجال في سنة ١٨٦٤ ، والتي تعرف الآن باسم الدولية الأولى . انها مجهود لضم الطبقات العاملة في العالم كله معا في جمعية دولية . هذا ، ورغم أن ماركس كان متقاعدا أمام الجمهور ، فقد كان القوة المحركة وراء العرش ، وكان يكتب معظم مستندات الجمعية وعناوينها ولوائجها وبرنامجها . غير أن العراك الداخلى والمنافسة على الرئاسة والنزاع الذى وقعت فيه الجمعية بعد فشل تمرد باريس في سنة ١٨٧١ ، كل هذه أدت الى حل الجمعية . وبعد ذلك أعقبتها الجمعية الدولية الثانية ، وتمثل الجماعات الاشتراكية الغربية .

تم الجمعية الدولية الثالثة أو الكومنترن Comintern للعالم
الشيوعي .

وأخيرا انتهت مدة تأليف كتاب « رأس المال » . ففى أواخر
سنة ١٨٦٦ ، أرسلت النسخة الخطية للجزء الاول الى هامبورج
Hamburg . وفى اوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من
المطبعة باللغة الألمانية . ولم تكن هناك ترجمه انجليزية له الا بعد
حوالى عشرين سنة . وأول ترجمة الى لغة أخرى على ضوء
أحداث المستقبل - كانت باللغة الروسية فى سنة ١٨٧٢ .

كانت إنجلترا فى عصر ماركس ، المعرض الأول لأعمال
النظام الرأسمالى . وعلى ذلك أخذت الأمثلة الموضحة لنظرياته
الاقتصادية ، كلها تقريبا ، من تلك المملكة . كانت الأمثلة المروعة
كثيرة ، لأن تنظيم الرأسمالية فى منتصف العصر الفيكتورى كان فى
أسوأ حال بها فكانت الأحوال الاجتماعية بين عمال المصانع سيئة
بما يعجز عنه الوصف . واذ بنى ماركس أبحاثه على التقرير
الرسمى لمفتشى الحكومة . فقدم الحقائق دقيقة فى كتاب « رأس
المال » . قامت السيدات بجر القوارب فى الترع بالجبال المربوطة
فى اكتافهن ، طوال الطريق . وربطت السيدات الى العربات كما
تربط دواب الحمل ، لنقل الفحم الى خارج المناجم البريطانية .
أما الأطفال فكانوا يعملون فى مصانع النسيج عندما يبلغون التاسعة
أو العاشرة من العمر ، ولمدة خمس عشرة ساعة فى اليوم . ولما
جاءت أدوار العمل ليلا ، كانت الأسرة التى ينام فيها الأطفال
دافئة دائما لا تبرد اطلاقا ، اذ كانت تستعمل بالدور ، وقد أنشب
السل وغيره من أمراض الأماكن المزدحمة أظفاره فيهم وقتلهم فى
نسب عالية .

لم تكن الاحتجاجات على هذه الأحوال الفظيعة قاصرة على

ماركس بحال ما ، فان الكتاب الرقيقى القلوب المختصين بالأمور
الانسانية أمثال تشارلز ديكنز وجون رسكين واثوماس كارليل ،
كتبوا كثيرا فى حماس شديد ، يطلبون الاصلاح . واثير البرلمان
أخيرا الى اصداث تشريع اصلاحي .

زها ماركس كثيرا بشرحه العلمى للمسائل الاقتصادية
والاجتماعية . وكما قال انجلز : « كما ان داروين اكتشف قانون
التطور فى الطبيعة العضوية ، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور
فى التاريخ الانسانى . » ذكر ماركس ان الظواهر الاقتصادية
« يمكن ملاحظتها وتسجيلها بالدقة الملائمة للعلوم الطبيعية . »
ويشير كثيرا الى مؤلفات علماء الاحياء والكيمياء والفيزياء
(الطبيعية) . ومن الجنى انه كان يأمل فى ان يصير « داروين عالم
الاجتماع » أو ربما « نيوتن الاقتصاد » . وبالتحليل العلمى
للمجتمع ، اعتقد ماركس انه اكتشف كيف يمكن تحويل العالم
الرأسمالى الى عالم اجتماعى .

اسهمت طريقة ماركس « العلمية » كثيرا فى تفهم الناس له
على نطاق واسع ، لأن فكرة التطور فى جميع المجالات قد جذبت
خيال القرن التاسع عشر . ويربط نظريته عن التنازع التاريخى
بنظرية داروين عن النشوء أو التطور ، فأضفى الوقار على آرائه ،
وفى الوقت نفسه جعلها ، حسب اعتقاده ، غير قابلة للدحض .

فى رأى ماركس واتباعه ، ان اسهامه البالغ فى دراسة
الاقتصاد والتاريخ وغيرهما من العلوم الاجتماعية الأخرى ، كان
تقدما لمبدأ أطلق عليه « المادية الجدلية » وهو مصطلح غامض
عسير الفهم ، ولو انه مشروح شرحا وافيا فى كتابات سابقة ، فان
كتاب « رأس المال » يستخدم هذه النظرية بالتفصيل .

أخذ ماركس الطريقة الجدلية عن الفيلسوف الالمانى هيجيل
Hegel ، وتقول فى جوهرها أن كل شىء فى الدنيا فى حالة تغير

مستمر . وينحقق التقدم بتفاعل القوى المتعارضة ، كل مع الأخرى . فمثلا : بتعارض النظام الاستعماري الانجليزي مع الثورة الامريكية نتجت عن ذلك الولايات المتحدة . وكما عبر عن ذلك لاسكى Laski بقوله : « قانون الحياة هو تجارب المناقضات ، وينتج عنها النمو » .

قاد هذا التمهيد ماركس الى تكوين نظريته عن « المادية التاريخية » او «التفسير الاقتصادي للتاريخ» قال ماركس وانجلز في جدالهما : « ما تاريخ كل المجتمع الحاضر سوى تاريخ نضال الطبقات : الحر والعبد ، والنبلاء والعوام ، السيد والمسود ، رئيس المؤسسة وعامل المياومة ، وبالاختصار ، وقف الظالم والمظلوم ، كل منهما في مواجهة الآخر ، ونشبت بينهما حرب مستمرة » .

قال انجلز وهو يقرظ ماركس :

« لقد اكتشف الحقيقة البسيطة المختبئة تحت «الأعشاب» الفكرية ، وهى ان الكائنات البشرية يجب أن تحصل على الطعام والشراب والملبس والسكن ، أولا وقبل كل شيء ، وقبل أن تجد المتعة فى السياسة والعلوم والفن والدين ، وما الى ذلك . وهذا يتضمن أن انتاج النوازم الضرورية للحياة ، وطور التقدم الاقتصادي الحالى لامة أو لحقبة من الزمان ، تكون الأساس الذى بنت عليه الحكومة نظراتها القانونية والأفكار الفنية والدينية لأولئك المختصين » .

وقصارى القول ، أن التنازع من أجل الطعام والمأوى نزاع بالغ القوة ويقرر كل شيء آخر من الأمور البشرية .

وتاريخ البشرية ، تبعا لماركس ، هو أولا ، قصة استقلال طبقة لأخرى . وفى عصور ما قبل التاريخ ، كان هناك مجتمع

قبائلى أو مجتمع لا طبقي . أما فى العصور التاريخية فيقول
ماركس : « تكونت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية ،
أولا عبيدا ثم خدما (الحالة الاقطاعية) ثم عبيدا بالأجر لا يمتلكون
شيئا (العصر الرأسمالى) » . وبتطبيق نظرية « المادية الجدلية » ،
اقتنع ماركس أن الخطوة الحتمية بعد ذلك هى تمرد العمال
و « دكتاتورية الطبقة العصامية » يتبعه الملكية الشيوعية والعودة
الى نظام المجتمع اللاتبقى .

طور ماركس ، فى كتابه « رأس المال » قضيته ضد النظام
الرأسمالى ، ليبرهن ، فى تقديره ، على أن هلاكه أخيرا واختفائه
أمران لا مفر منهما . وهنا كون مايعتبره الشيوعيون عموما اسهامه
الثانى البالغ الأهمية فى العلوم الاجتماعية ، وهى نظرية قيمة
العمل . كذلك لم تكن هذه أصلا نظرية من تفكير ماركس . فاذ
سار على نهج علماء الاقتصاد الأكبر منه سنا ، وهما آدم سميث
وديفيد ريكاردو ، أكد أن العمل مصدر كل القيم . وذكر ماركس
فقرة من بنيامين فرانكلين ، الذى لاحظ ، منذ قرن مضى أن
« التجارة ليست الا مبادلة عمل بعمل . وتقاس قيمة كل شيء
بالعمل . » وأخذ عن سميث تعريف رأس المال بأنه « كمية معينة
من العمل مكتلة ومحفوظة فى صورة احتياطي » كما أن ريكاردو
اقترح أن ثمن أية سلعة وقيمتها يجب أن يقدر بكمية العمل
الداخلة فيها .

اتخذ ماركس هذه الأقوال كمقاييس بنى عليها نظريته عن
« قيمة الفائض » . فذكرها أولا فى مقاله «نقد الاقتصاد السياسى»
(سنة ١٨٥٩) ، ثم نقحها وذكر الصورة المنقحة فى كتابه « رأس
المال » . ولما كان العامل لا يملك شيئا ، فليس لديه غير سلعة
واحدة ليبيعها - وهى عمله . ولكى يتحاشى الموت جوعا ، يجب
عليه أن يبيعها . وتبعا للنظام الاقتصادى السائد، يشتري صاحب

العمل هذه السلعة بأقل ثمن ممكن . اذا ، فالقيمة الفعلية للعمل تزيد كثيرا على الأجر المدفوع . فالعامل الذى يدفع له صاحب العمل أربعة شلنات فى اليوم ، يكسب هذا المبلغ فعلا فى ست ساعات ، ولكن يطلب منه أن يعمل عشر ساعات ، اذن فصاحب رأس المال يسرق من العامل تلك الساعات الاربعة الزائدة . واذ فسر الأمر على هذا النحو ، فان الأرباح ، وفوائد المبالغ والاوراق المالية ، وايحار المساكن ونحوها ، مشتقة كلها من قيمة كد العمل الزائد المسروق من العمال . اذن ، يمكن أن نستنتج منطقيا أن نظام صاحب رأس المال ليس سوى طريقة شريرة وضعت لاستغلال طبقة العمال وسرقتهم .

ولو أن نظريات ماركس عن القيمة وقيمة الفائض كانت قيمة لأغراض الدعاية والتحريض على الثورة ، فان علماء الاقتصاد عموما يعتبرونها الآن غير صحيحة وعديمة الأهمية . ومن العوامل التى جعلتهم يبدونها ، ازدياد استخدام الآلات التى تنتج أنواعا كثيرة جدا من كميات العمل المطلوب لمختلف السلع . وقال فريهوف Freehof ، « يكتشف الكيميائى اكتشافا واحدا عن خصوبة التربة ، فيضاعف مائة مرة إنتاج عشرة ملايين من العمال الزراعيين . اذا ، فالكيميائى هو الذى خلق قوة الإنتاج . » وقال ناقد آخر فى دحض هذه النظرية : « يفوض الناس من أجل اللألىء لأنها عظيمة القيمة . وليست اللألىء ذات قيمة عالية لأن الناس يفوضون من أجلها . » لم يعلن ماركس أن العلم أو التكنولوجيا أو الفن أو التنظيم ، يضيف شيئا الى القيم والأسعار .

والواقع ان علماء الاقتصاد لم يتفقوا ابدا على طريقة لقياس القيمة رغم قرنين من التفكير والكتابة عن هذا الموضوع . ويبدو أن الطلب والمنفعة هما المعايير الأكثر قبولاً على نطاق واسع .

وكما علق بارزون Barzun : « حطم علم الاقتصاد الحديث نظرية ماركس ، ولكنه لم يقدم نظرية علمية لتحل محلها » .

اما نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادته الى الخطوه التالية في فرضه . فلكي يقابل كل رأسمالى المنافسة الوحشية ، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى ، مثل : اطالة ساعات العمل ، أو تخفيض الأجور أو استخدام طريقة المد « Stretch out » . ويستخدم مزيدا ومزيدا من الآلات لتقلل العمل وتسرع الانتاج . وباستخدام الآلات التي تحتاج في ادارتها ، الى قوة بدنية أقل . ويمكن استبدال الرجال بعمل النساء والاطفال الأرخص اجرا . ويصف ماركس نتيجة ذلك ، هكذا :

انهم يشوهون العمل الى جزء من رجل ، وينزلونه الى مستوى قطعة زائدة بالآلة ، ويحطمون كل بقية من الجمال في عمله ويحولونه الى كد مقيت . ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم في ذلك العمل كقوة مستقلة . ويشوهون الظروف التي يعمل فيها ويعرضونه اثناء عملية العمل الى استبداد مقيت جدا لوضاعته ، ويحولون عمره الى وقت عمل ، ويجرون زوجته وطفله تحت عجلات تمثال رأس المال .

وهكذا يلجح ماركس بأن استخدام الآلات لاسراع الانتاج وزيادته ، لا يفشل فقط في تسهيل حظ العامل ، ولكن له آثارا ضارة ، مثل خلق البطالة ، وزيادة انتاج السلع على القدر المطلوب ، وقتل لذة العامل في عمله ، ويستطرد ماركس قائلا :

« الآلات امضى سلاح لقمع الاضرابات التي هي التمرد الدورى للطبقة العاملة ضد السلطة المطلقة لرأس المال . . كانت الآلة البخارية ، منذ البداية ، خصما مكن الرأسمال من أن يطا تحت قدميه المطالب المتزايدة للعمال الذين هددوا نظام المصانع

المولود حديثا ، بأزمة . من الممكن كتابة تاريخ بأكمله عن المخترعات التي ظهرت منذ عام ١٨٣٠ لغرض وحيد هو تزويد رأس المال بسلاح ضد تمردات طبقة العمال . »

وبتحريف، نظرية مالثوس تحريفا معينا ، يقول ماركس ان زيادة عدد السكان يتبع دائما طريق الرأسمالية . يحتاج هذا النظام الى « جيش صناعى احتياطى » لعصور امتداد الانتاج الضخم عند خلق صناعات جديدة او احياء صناعات قديمة . وفى طبيعة الأشياء ، يجب على قوة العمل الفائض ان تتحمل مددا طويلة من البطالة بعد ذلك تظهر اعظم لعنة للرأسمالية : الكساد والنصر . فيما ان العمال يتقاضون أجورا لا تكاد تفي بما يسد الرمق ، فلا يستطيعون شراء جميع ما تنتجه المصانع ، فتكتظ الأسواق بالبضائع ، وتقل قوة العمل ، ويتبع ذلك كساد عنيف .

ولكى يبحث الرأسمالى عن مخارج للبضائع الكثيرة المكدسة فى مخازنه ، يتجه الى المجالات الأجنبية فيحاول ايجاد اسواق فى الدول المتخلفة فى الخارج ليشحن اليها السلع التى لا يستطيع عماله شراءها . وهذه المحاولة والبحث عن المواد الخام التى تمكن مصانعه من الاستمرار فى العمل بغير انقطاع، تؤدى الى الالتحاقات الدولية والحروب الاستعمارية .

اعتقد ماركس ان النتيجة النهائية لنضال الرأسمالى وشغبه هى زيادة التركيز والاحتكار، لأن «أحد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائما . » تختفى الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم . وأخيرا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جوع العصاميين . وعندما يأتى ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم ، وتصف احدى فقرات كتاب «رأس المال» الأكثر حيوية والجديرة بالتذكر ، الخطوات المؤدية الى حل المشكلة :

« بينما هناك انكماش مستمر في عدد النبلاء الرأسماليين ، فانه يقابله ازدياد في عدد الفقراء وفي الظلم والاستعباد والانحلال والاستغلال . غير انه ، في الوقت ذاته ، تزداد باطراد حدة غضب طبقة العمال ، تلك الطبقة التي يزداد عددها ، وهي مطيعة وممتحدة ومنظمة بنفس ميكانيكية طريقة الرأسمالى للانتاج . وان احتكار الرأسماليين ليغدو قيذا يغل طريقة الانتاج التي ازدهرت به وحته . هذا ، وتصل مركزية وسائل الانتاج واشترائية العمل ، الى نقطة تبرهنان عندها على عدم ملاءمتها لبقاء الرأسمالية . ينفجر هذا ، ويدق ناقوس موت ممتلكات الرأسمالى الخاصة ، اذ ان المالكين السابقين صاروا مملوكين سابقين . »

ينتهى صراع الطبقات بانتصار العصاميين .

لما استولى العصاميون على الحكومة ، نبتوا دكتاتوريتهم . ومع ذلك ، فقد نبتا ماركس بأن هذه المرحلة « لبست الافترة انتقال الى الفناء جميع الطبقات ، وخلق مجتمع من الأحرار المتساوين . » لم يحدد الوقت اللازم لاستمرار الدكتاتورية - وهذه نقطة اعتبار ممتعة في نظر الثمانى والثلاثين سنة في روسيا السوفيتية التي ظلت في القبضة الحديدية لنظام سلطة لا تبدى اية علامة على ارخاء تلك القبضة . والحقيقة ان ماركس غامض تماما في وصف طبيعة مجتمع طبقاته . ويعد ان تقوم الدولة بدورها في التعليم والتنظيم ، ستدبل الحكومة ، ولن يكون هناك اية قوة أو اتصال وسيسود السلام والرخاء لكل فرد . وسيكون الهدف الرئيسى للمجتمع هو : «التطور الكامل الحر لكل فرد . » وسيكون المبدأ المرشد هو ، « لكل شخص حسب مقدرته ، ولكل فرد حسب حاجاته » .

علق كثير من النقاد على تناقض هذا الحلم الخيالى الجميل ، ذلك التناقض البراق وغير المطابق للحقبة السابقة ، حقبة حرب

الطبقات الدموية والوحشية . وعلى اية حال ، فكما كتب هاليت
Hallett

ان « المجتمع اللاطبقى » لماركس ، مجتمع غامض غموض
سماء الفكتوريين الارثوذكس ، ويوحى بقليل من الثقة وقليل من
الحماس . فما ان تطرد الثورة العالمية الى الخلف ، حتى يكون من
الصعب ان تجد شيئاً في عظام الماركسية الجافة ، يثير حماس
الناس او يسوقهم الى قوة احتمال جديدة ، او محاولات جديدة .

ورغم هذا ، فالماركسية لها قوة الدين لملايين الشيوعيين
المنصرين للشيوعية . ، اما المادية الجدلية فيمكن ان تكون عقيدة
تفوق كل العقائد الأخرى . ويقول ماركس ان الديانات القديمة مثل
المسيحية ، تعلم ايماناً ايجابياً بنصيب الانسان المقسوم له في
الحياة ، كما تمجد الاذعان والوداعة والهوان . اذن فهي تملك
« كافيون الناس » تعمي العصاميين وتقودهم الى حتفهم ، وتضع
عقبات ضخمة في طريق الثورة .

الى اى حد يصدق ماركس ؟ هذا سؤال شغل الكثير من
العلماء الاجتماعيين واللاهوتيين وغيرهم من الكتاب والمفكرين طوال
القرن الماضى . ففي كثير من الأساسيات ، أظهر الزمن أخطاء
جوهرية في نظرياته وتكهناته ، وما عاد اى عالم اقتصادى غير
ماركسى يأخذ ، بعين الجسد ، نظرياته عن العمل فيما يختص
بالقيمة وقيمة الفائض ، وهذه نقطة اساسية في الفكر الماركسى .
ولم يحدث ، فى اية دولة ، نزاع بين الطبقات أدى الى ثورة
العصاميين ، كما تنبأ ماركس . وأكد أحد أتباع ماركس
المشهورين ، وهو سيدنى هوك Sidney Hook ، ان هذا
المذهب ايضا ، أساسى للعقيدة الشيوعية ، لأنه كتب يقول :

« اذا أمكن اعتبار حقائق نزاع الطبقات بنجاح ، فان جميع
الهيكل النظرى لماركس يتهدم ويسقط أرضاً . » .

اتبع النظام الرأسمالي طريقا مخالفا تماما ، على الأقل ، في الأمم الأقل استنارة ، لما تنبأ به ماركس . فبدلا من البؤس والفقر والآلام بين طبقة العمال ، حدث العكس تماما . فامت اتحادات عمل قوية ، وأنظمة حكومية ، لتوقف فائض المنافسات الرأسمالية ومنافسات المشاريع . ورغم احتقار ماركس « لعلماء الاقتصاد والخيرين ، ومن يعلقون على الانسانية ، ومن يعملون على تحسين احوال طبقة العمال ، ومنظمى الصدقات ، وأعضاء جمعية الرفق بالحيوان ، والمتعصبين للاعتدال ، والمصلحين الباحثين من كل نوع يطرا على المخيلة . » نجح أمثال هؤلاء الناس في تخفيف أسوأ شرور الرأسمالية وجعلوا النظام يسير بسهولة معقولة يمكن أن تتوقعها في أية لحظة مؤسسة بالغة التعقيد من صنع الانسان . وكما علق تقرير حديث في القرن العشرين كتبه فنند Fund « من بين جميع الأمم الصناعية العظمى ، ان الأمة التي تشبثت بالرأسمالية الخاصة ، جاءت اقرب الى الهدف الاشتراكي الذي يوفر الرخاء للجميع في مجتمع لا طبقي ، وهذا مستوى من الرفاهية المادية فوق ما تدركه الغالبية العظمى لسكان العالم » .

علق ماركس آمالا قوية على اضعاف الروابط القومية بين العصاميين بقصد ان بعد لهم احساسا بالتضامن الدولي بين العمال في كل مكان . وقد ثبت فشل الحصول على هذا الهدف المرغوب في حربين عالميتين ، وبواسطة الحماس القومي المتمثل في منظر العالم الحالي - ليس أكثر وضوحا مما هو في روسيا والصين وغيرهما من البلاد الشيوعية . وتبعاً لحكم ماركس ، تحدث ثورة العصاميين أولاً في الأمم الأكثر تحولا الى صناعية ، مثل انجلترا والمانيا والولايات المتحدة بينما روسيا أقل نضجا للتمرد - وهذا تكهن آخر لم تتمخض عنه الأحداث التالية .

اثرث الطريقة الجدلية التي استخدمها ماركس تأثيرا بالغ

القوة على المؤرخين اللاحقين ، ولو أنه كما علق وليم هنرى
تشمبرلين William Henry Chamberlin بقوله :

« تفشل طريقة المادية التاريخية لماركس في أن تكون السبب
في الاختلافات الواضحة بين الناس الموجودين في نفس مستوى
النمو الاقتصادي . أهمل ماركس في حساب بعض العوامل
الحيوية مثل : الجنس والدين والجنسية . لم يحسب الأهمية
العظمى للشخصية البشرية . ومن المشكوك فيه ما إذا كان يمكن
تفسير حادث تاريخي واحد تفسيراً صحيحاً بمصطلحات هذه
النظرية » .

ومع ذلك ، فبينما ندرس المفالطات في أفكار ماركس ،
نجد من الصعب التغلب على تأثيره في عصرنا . وقد كان تأثيره
على العالم الرأسمالي مفيداً ، في نواح معينة هامة . فيتأكد
عيوب النظام الصناعي ، وبخداع خطر ثورة العمال ، حدثت
اصلاحات أساسية . وبالاختصار أجبر تكرار الشيوعيين
والاشتراكيين المستمر لعيوب الرأسمالية ، على تصحيح كثير من
تلك الشرور . وبذا قلل كثيراً ، ان لم يمنع تماماً ، إمكان تمرد
العصاميين الذي تنبأ به ماركس .

أما غزو الماركسية لروسيا والصين وغيرها من المناطق
الواسعة الأخرى ، جارفة في طريقها حوالى تسبعمائة مليون
شخص ، فكان هو المشكلة الأكثر إلحاحاً في العالم الحديث .
ومن قبيل التهكم : كان ماركس يضمّر احتقاراً بالفا للروس
عموماً ، وللثوريين خصوصاً . فان استنتاجاته فيما يختص
بالحكم القيصري في عصره ، لتليق بروسيا الشيوعية : « سياسة
روسيا لا تتغير . قد تتغير طرقها وتكتيكها ومناوراتها ، ولكن
النجم القبطي لسياستها (سيادة العالم) نجم ثابت » .

الواقع الآن ، ان روسيا تنفذ القليل من آراء ماركس ومثله
عن الشيوعية . وكما لاحظ الرئيس ترومان Truman
في عام ١٩٥٠ ، ليست روسيا دولة شيوعية ، ولم يكن ستالين
Stalin شيوعيا احمر . فمثلا هناك دكتاتورية في الحزب
الشيوعي ، أو بالحري ، سلطة كهنوتية ، أكثر منها دكتاتورية
حقيقية للعصامين .

يقول ماركس ، سرعان ما « ستبدل » الحالة السياسية ،
ولكنها ازدادت قوة أكثر فأكثر بمرور الزمن . فابتداء من لينين
I. Lenin ، وجد القادة الشيوعيون أن الوعظ بمبادئ
ماركس أسهل من ممارستها . فبينما هم دائبون على ذكر
الفلسفة الماركسية شفويا ، عدلوا العقيدة التي ورثوها عن
ماركس تبعا لمتطلبات الأحوال السياسية والوسائل الملائمة .
وإذ رأى ماركس نشاط أتباعه ، قال ذات مرة : « لست ماركسيا »
ويبدو من المحتمل أنه ربما خالجه شك في استخدام نظرياته في
منتصف القرن العشرين . ومن الأمثال الاشتراكية المحبوبة :
« لو عاش ماركس أثناء حكم ستالين لما عاش طويلا » .

لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الأول من « انجيل
الطبقات العاملة » ، فبعد موته في سنة ١٨٨٣ أخذ انجلز مذكرته
الخطية غير الكاملة وغير المرتبة بنظام ، للجزءين الثاني والثالث .
فظهر الجزء الثاني في سنة ١٨٨٥ والثالث في عام ١٨٩٤ قبل
موت انجلز بعام واحد . ويضمن تنقيحات واستعمالات
للنظريات الأساسية الخاصة « بتداول رأس المال » و « عملية
الانتاج الرأسمالي ككل » . وترتكز شهرة ماركس على الجزء
الأول أما الجزءان الآخران فلم يقرأ الا قليلا . ورغم هذا فإن
مؤلفا آخر عن « نظرية قيمة الفائض » التي كانت مخصصة
للجزء الرابع من كتاب « رأس المال » تعهد به كارل كاوتسكي

Karl Kautsky ، من مخطوطات ماركس ، ونشر في المانيا
(١٩٠٥ - ١٩١٠) .

حقيقة ، ان كتاب « رأس المال » صعب القراءة ، ويصفه الناقد بارزون بأنه « ردىء التأليف وسيء الترتيب ويفنقر الى النظام والمنطق وتناسق المواد » . ويقول ناقد آخر (كروس Croce) انه لاحظ « التأليف الغريب لهذا الكتاب والخلط في النظرية العامة ، والجدل والتهكم المريرين والصور التاريخية أو الانحرافات » . ويعتبر هذا المؤلف غير متماثل وسيء الترتيب ومعدوم التناسب . « بينما يقرر ناقد ثالث (ستاندين Standen) ان « خطة الأجزاء الثلاثة رائعة على نطاق واسع » ، نراه يقول « طريقة تقديم كتاب رأس المال ممله في انحرافاته المطواة ، وبطئه المتعب » .

ومن المشكوك فيه وجود شخص في التاريخ أوحى بأراء أكثر تناقضا عنيفا من كارل ماركس . فمن الناحية العلمية ، ليس به عرض وسط بين الرأي الذي يجعله « يهوديا أوحى اليه الشيطان فخطط لسقوط الحضارة » وبين صورته المضادة تماما « كقديس محبوب انكر ذاته وكرس نفسه لطبقة العالم غير الموروثة في القرن التاسع عشر » . وبدأ ناقد لاذع حديثه بقوله : « باسم التقدم الانساني ، أقرر أن ماركس قد سبب موتا وبؤسا وتدهورا ويأسا أكثر مما سببه أى شخص آخر عاش على ظهر البسيطة »

إذا ، فما هو السر في نفوذه وقوته على الملايين من سكان الأرض ، وانجذابهم اليه ؟ واقترح نيل Neill أن ماركس هو القائد الرمزي لمن لا يملكون شيئا في نضالهم ضد من يملكون ويعتقد بارزون أن « قوة ماركس هي بالضبط في أنه شارك المقبولين مشاعرهم . وان تعصب المساواة ليكن في اعماق كبده ، يرتبط به الطموح والغيرة من السلطة وكلاهما على

استعداد لتحطيم النظام الأخلاقي الحاضر باسم نظام أسمي يراه هو . « ويأتى تفسير آخر من هارولد لاسكي : « العاطفة الرئيسية الكامنة في أعماق نفسه ، والتي تحركه ، هي شغفه بالعدالة . ربما يكون قد مقت بشدة ، ولكنه كان غيورا وكان فخورا . ولكن المحرك الرئيسي لحياته هو أن يرفع عن كواهل الناس ذلك العبء الذى ظلمهم . » ويأتى تقدير تفهمى آخر من فريهوف ، إذ كتب يقول : « أن هدية كارل ماركس الانشائية العظمى الى المجتمع الحديث، سواء أكان اشتراكيا أو رأسماليا، على حد سواء ، هي صورة ضرورة وجود مجتمع ينعدم فيه الفقر والمعاناة . صار هذا المثل الأعلى تحديا لكل نظام اجتماعى . وحتى أى نظام اجتماعى، مثل نظامنا، الذى ينبذ نظرياته الاقتصادية ، لابد أن يقبل ذلك المثل الأعلى بطريقته الخاصة . وهكذا ، فإن ذلك الرجل الذى عاش هو نفسه فقيرا ، قد وهب العالم أملا فى انعدام الفقر تماما . هذا هو انجاز كارل ماركس . وهذه هي الطريقة التى غير بها عقلية العالم الحديث . »

٨ - عملاق بحرى ضد فيل

الفريد ت . ماهان ALFRED T. MAHAN

اثر القوة البحرية على التاريخ

عندما وصف ناقد معاصر كتاب القائد البحري الفريد ت . ماهان ، الذى عنوانه « اثر القوة البحرية على التاريخ » بأنه « كتاب مدهش ، ولكنه اعظم قبلة حارقة ، فى العصور الحديثة . » اذ ابدى بصيرة رائعة . صور ماهان القوات البحرية الحديثة للعالم بأكثر مما صورها أى فرد آخر . « واطلق على قلمه « الأقوى من أى أسطول » ، بينما كانت البوارج العاتية الضخمة اطفاله ، وليس قصف مدافع عيار ١٦ بوصة غير صدئ صوته . « وبالتأكيد ، ما من مؤرخ آخر قد أحدث بكتابته مثل ذلك التأثير المبائر الواسع النطاق ، مثلما فعل ماهان .

أوضح ماهان ، طوال التاريخ المسجل ، أن القوة البحرية هى العامل الحاسم فى السيطرة العالمية . فالسيطرة على البحر ضرورة لكل أمة تصبو الى القيام بدور أعظم فى الشؤون العالمية ،

وتحصل في الوقت نفسه على أكبر قدر من الرخاء والأمن في وطنها . فالقوة البرية غير المتصلة بالبحر ، مهما كانت عظيمة ، فمصيها الانهيار والزوال ، لأن البر ، كما أشار ماهان « هو تقريبا كل العقبات، بينما البحر هو تقريبا كل السهل المفتوح . » فالأمة القادرة على السيطرة على هذا السهل بقوتها البحرية ، والاحتفاظ بأسطول تجارى قوى ، يمكنها استغلال ثروة العالم » .

أى نوع من الرجال كان ذلك « القبلة الحارقة ماهان » ؟ ربما كان آخر رجل يختاره المرء كشورى أو غير استقرارى من الطراز الاول ، أو مقلق للسم . ولد ماهان في سنة ١٨٤٠ ، ابن مهندس حربى ومدنى ، في وست بوينت West Point وتخرج في جامعة أنابوليس Annapolis ، وقضى مدة طويلة من حياته على وتيرة واحدة كضابط بحرى يتناوب العمل بين البحر والبر ، باستثناء عمل محدودا إبان الحرب الأهلية الأمريكية . . لم يمارس قط أى التحام مسلح . واتسعت خبرته بالعمل في البرازيل والشرق والرحلات خلال أوروبا .

مرت خمس عشرة سنة بعد تلك الرحلات دون أى عمل مميز ، فيما عدا تأليف كتاب صغير عنوانه « خليج المياه الساحلية » ، خاص بالتاريخ البحرى للحرب الأهلية ، الذى عهد الى ماهان بكتابته في سنة ١٨٨٣ . جاءت بعد ذلك الفترة التى أبرزت شهرته وأحدثت تغييرا متطرفا في مستقبل حياته . . دعا القائد البحرى ستيفن ب . لوس Stephen B. Luce ماهان ليحاضر عن التكتيك والتاريخ البحرى في الكلية الحربية المنشأة حديثا في نيويورك Newport

هذا بالضبط هو نوع الفرصة التى كان ماهان ينتظرها . واذ لم ينجح قط كضابط بحرى شهير ، ومل الروتين البحرى ،

وما زال برتبة كابتن (رقى الى قائد مؤخرة الأسطول بعد تقاعده) . بدأ أن المهمة الجديدة مرسله من عند الله . منح اجازة مدتها سنة للقراءة والتفكير قبل الذهاب الى نيويورك . وبعد ذلك ، في سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، بدأ سلسلة من المحاضرات في مجموعة صغيرة من الضباط ، تلك المحاضرات التي قدر لها أن تنشر بعد ذلك بأربع سنوات في صورة منقحة باسم « أثر القوة البحرية على التاريخ » (١٦٦٠ - ١٧٨٣) .

ذكر ماهان في خطاب بعث به الى ناشره الانجليزي انه اختار المصطلح « القوة البحرية Sea power » كعنوان لكتابه كي « يجذب الانتباه ويحظى بالتداول » . وقال « لقد نبذت تماما الصفة (بحرية maritime) لضعفها في جذب انتباه الناس أو الالتصاق بأذهانهم » . ومن الجلي أيضا أن كلمة « قوة power » تضرب على وتر حساس في عصر البخار والكهرباء والقوة السياسية . إذن ، فقد اختير العنوان « أثر القوة البحرية » بعناية ليحدث انطبعا خاصا في أذهان القراء . وان هذا الكتاب الشهير ، الذي تتوقف عليه ، قبل غيره ، شهرة ماهان ، هو في جوهره سرد وتفسير لسمو وتقدم القوة البحرية البريطانية من منتصف القرن السابع عشر الى نهاية الحروب النابليونية .

يبدأ ماهان بتتبع تقدم وتدهور القوة البحرية العظمى في خطوط عريضة ، مستعرضا بالتفصيل تلك العناصر اللازمة لامة تهدف الى بلوغ القوة في البحر . ويختصر ماهان هذه الظروف الى ستة ، هي : الموقع الجغرافي ، والملاءمة الطبيعية (ومنها الإنتاج الطبيعي والجو) وامتداد الحدود ، وعدد السكان ، ونوع الشعب ، ونوع الحكومة .

أخذ ماهان يتناول « عناصر القوة البحرية » ، فأوضح في كل مثال كيف تغلبت بريطانيا على خصومها . وتبعنا لتفسيره ،

تكون القوة البحرية أوسع بكثير من « القوة الحربية البحرية » إذ لا تتضمن الأولى الأسطول الحربى فحسب ، بل والسفن التجارية وقاعدة قوية فى الوطن . فكتب ماهان يقول : « بينما يضم تاريخ القوة البحرية فى اكتساحه العريض كل ما من شأنه أن يجعل الأمة عظيمة فى البحر أو بجانب البحر ، فهو فى أكثر معانيه تاريخ حربى . » ومع ذلك ، فقد أكد دائما ، أن القوة البحرية الحربية ، والحملات والمعارك ليست إلا وسائل لتحقيق هدف . لا يمكن أن تزدهر البحرية التجارية ، ولا تنجح البحرية الحربية ، كل منهما بغير الأخرى . يتوقف الرخاء القومى على المجموعة المكونة من الاثنتين معا .

وبدراسة الموقع الجغرافى ، وهو أمر ذو أهمية أولية ، أكد ماهان على الزايبا البالغة الكامنة لدى أمة ذات موقع «لايجبرها على الدفاع عن نفسها برا ، ولايجريها على توسيع رقعة أرضها عن طريق البر . . بالقياس الى أمة أحد حدودها قارى . » « ومن أمثلة ذلك إنجلترا فى ناحية ، وفرنسا وهولندا فى الناحية الأخرى . فمنذ وقت مبكر فى تاريخ هولندا الحديث ، انهكت قواها لاضطرارها الى الاحتفاظ بجيش ضخيم ليحارب من أجل المحافظة على استقلالها . كما أن فرنسا ضعفت بتقسيم ثروتها وقوتها البشرية بين بناء قوة حربية بحرية ، وبين مشاريع التوسع . كذلك كان موقع فرنسا أكثر تعرضا للهجوم ، لوجود سواحل لها على كل من المحيط والبحر المتوسط ، الأمر الذى يمنعها استخدام أسطول موحد . فأشار ماهان الى أن موقع الولايات المتحدة على محيطين ، يجعلها فى نفس المركز من الضعف . وأن المركز المتوسط ذا الموانئ القريبة من طرق التجارة العظمى ، وإذا القواعد القوية للعمل ضد الأعداء الأقوياء ، رأس مال استراتيجى عظيم . ثم أن إنجلترا ، بسيطرتها على طرق التجارة

في بحر المانش وفي البحر الشمالى تمكنت من أن تحظى بالسيادة البحرية .

حلل ماهان عنصره الثانى ، وهو الملازمة الطبيعية ، فقرر ان « ساحل الدولة هو احدى جبهاتها . وكلما سهلت هذه الجبهة الوصول الى المنطقة التى وراءها ، وهى البحر فى هذه الحالة ، سهل اتصال هذه الدولة ببقية العالم ، بواسطة هذه الجبهة . » ورغم هذا ، فالمرافئ العديدة العميقة ذات أهمية حيوية لها . فاذا لم تعامل الطبيعة انجلترا وهولندا بسخاء من ناحية التربة والمناخ ، اضطرتا الى الاتجاه نحو البحر ، بينما حويت فرنسا « بأرض خصبة جميلة » . وكذلك بوركت الولايات المتحدة ، فلم تجدا مايفريهما شطر البحر .

والعنصر الثالث ، وهو آخر العناصر الطبيعية المؤثرة فى نمو الأمة كقوة بحرية ، هو امتداد الحدود . . لم يقصد ماهان بهذا المصطلح « عدد الاميال المربعة التى تتألف منها مساحة هذه الدولة ، ولكنه يقصد طول ساحلها ، وطبيعة مرافئها . » كذلك عدد سكان أمة بالنسبة الى طول ساحلها ، ذو أهمية عظمى . ومثل لذلك من الحرب الأهلية الأمريكية :

« لو كان عدد شعب الجنوب مثل مقدرته الحربية ، وكان لدى ذلك الجنوب قوة بحرية حربية تتناسب مع مواردها الأخرى ، لكان امتداد ساحلها البحرى العظيم ومداخله الكثيرة ، عنصرا عظيم انقوة . . . أما الجنوب ، فليس فقط ، انه لا يملك بحرية حربية ، وليس فقط أنهم لم يكونوا قوما ملاحين ، ولكن . . لم يكن عدد سكانها متناسبا فى طول ساحلها البحرى ، الذى كان يجب على هؤلاء السكان أن يدافعوا عنه .

بعد أن استعرض ماهان الشروط الطبيعية الثلاثة المؤثرة

في القوة البحرية ، وهي : الموقع الجغرافي والملاحة الطبيعية وامتداد الحدود ، عرج على تناول السكان وحكومتهم . وهنا أكد على عدد السكان في ناحية خاصة ، لأنه « ليس مجموع السكان الكبير هو الهام ، وإنما عددهم المشتغل بالملاحة البحرية ، أو على الأقل ، الممكن استخدامه على ظهور السفن ، وفي صنع الأدوات البحرية . » وأخذت الأمثلة التاريخية من إنجلترا وفرنسا . كان عدد سكان فرنسا يزيد كثيرا على عدد سكان إنجلترا ، ولكن ميول سكان الأخيرة نحو البحرية والتجارة كانت ميزة لها على سكان فرنسا ذوى الميول الزراعية . واستنتج ماهان أن « عدد السكان الكبير ، ذوى الميول البحرية هو الآن ، كما كان من قبل ، عنصرا عظيما في القوة البحرية . » ووجد أن الولايات المتحدة « متخلفة في هذا المضمار » .

أما النقطه الخامسة لماهان فهي تأثير الصفة القومية الملائمة ، على تكوين القوة البحرية . فكتب يقول ان التاريخ يبين انه « بدون استثناء تقريبا ، صلاحية القوم للاغراض التجارية ، يجب ان تكون ظاهرة مميزة للامم التي كانت في وقت ما عظيمة في البحر » وعلى الرغم من أن الانجليز والهولنديين وصفوا كثيرا بأنهم « شعوب تجارية » فانهم حققوا مكاسب دائمة وأساسية من تجارتهم البحرية ، أكثر مما ربح الباحثون عن الذهب من الاسبان والبرتغاليين أما الفرنسيون المسرفون غير الراغبين في المخاطرة باستثمار أموالهم في التجارة الخارجية . وقد أبدى ماهان ملاحظته بأن « الميل الى التجارة ، ويشمل ضرورة انتاج شيء ما للمتاجرة به ، هو الصفة البالغة الأهمية في تكوين القوة البحرية » .

اعتقد ماهان أن للدكاء أو النبوغ القومى اثرا أيضا بالقدرة على تكوين مستعمرات صحية . ففي هذا المجال يتفوق الانجليز

على الفرنسيين لأن «المستعمر الانجليزي يستقر طبيعيا ومباشرة في وطنه الجديد ، ويربط مصالحه بمصالح ذلك الوطن ، ورغم انه يذكر بالخير دائما ووطنه الأصلي ، فانه لا يشق الى العودة اليه . » !ما الاسبان فلم يكونوا مستعمرين ماهرين ، لانهم يهتمون أولا بالاستغلال السريع لثروة الدولة الجديدة أكثر من التنمية الكاملة لخيراتها .

واخيرا ، يتناول ماهان نوع الحكومة واداراتها بالنسبة لنمو القوة البحرية . وقد اعتقد ماهان أن نوع الحكومة وصفة الحكام « لهما اثر عظيم على نمو القوة البحرية . » وبينما هو يفضل عمليات الحكومات الديمقراطية ، نراه يذكر ان « قوة الاستبداد المستخدمة في حكمة وثبات قد تخلق في وقت ما تجارة بحرية ضخمة وقوة بحرية حربية ، بقيادة اعظم مما تحققه العمليات الأبطال للشعوب الحرة . والصعوبة . . هي ضمان المثابرة بعد موت المستبد . » ولما كانت انجلترا قد وصلت الى الذروة في القوة البحرية ، فوق كل امة حديثة ، فان ماهان يعتبر أن دراسة الحكومة هناك ملائمة بنوع خاص . ويتجه تأثير الحكومة الانجليزية على عدة دول ، نحو السيطرة على البحر . وبغض النظر عن الملك الحاكم ، أو عن الأحزاب السياسية ، ادرك الانجليز الأهمية الأساسية لاحتفاظ الأمة بالسيادة البحرية .

وبعد استعراض تاريخي مطول عن أعمال مختلف الحكومات فيما يختص بالحياة البحرية لشعوبها ، قرر ماهان أن نفوذ الحكومة يعمل بطريقتين : أولا ، في أوقات السلم :

« تستطيع الحكومة بسياستها أن تحبذ النمو الطبيعي لصناعات الشعب وميوله الى السعى وراء المغامرة والربح عن طريق البحر ، أو يمكنها محاولة تنمية بعض الصناعات وبعض الميول نحو الأبحار . واذا لم يوجد هذان طبيعيا ، فان الحكومة ،

بنوع الخطأ ، توقف التقدم الذي تركه الناس لأنفسهم ، او تفرض عليه القيود .

ثانيا ، في اوقات الحرب ، تقدر البحرية بميل الحكومة الى خلق وتسليح اسطول ، والاحتفاظ «ببحرية من حجم يتناسب مع نمو سفنها وأهمية الميل اليها» . وبالمثل ، من الضروري «الاحتفاظ بمحطات بحرية ملائمة ، في تلك الاجزاء النائية من العالم ، ويجب ان تتبع السفن المسلحة السفن التجارية الى تلك المحطات» . وقد وجد ماهان ان الولايات المتحدة كانت ضعيفة في عدم وجود قواعد أجنبية لها ، اما ذات طابع استعماري ، او ذات طابع حربي .

وهكذا ، بعد ان فحص ماهان العوامل الستة الاساسية المؤثرة على القوة البحرية ، وفكر فيها مليا ، صار على استعداد للانتقال الى التحليل التفصيلي للحروب البحرية الاوروبية في المدة من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٧٨٣ وتبلغ بالتقريب قرنا وربع قرن . ثم خصص بقية كتابه الى هذا الاستعراض التاريخي . وكنقطة بداية ، وصف ماهان الظروف العامة السائدة في أوروبا في اواخر القرن السابع عشر ، مشيراً ، بنوع خاص ، الى اسبانيا وفرنسا وهولندا وانجلترا - وهي الدول الرئيسية التي يمكن ان تشتبك في حروب بحرية مستقلة . وفي نظر ماهان ، كان تاريخ أوروبا ابان السنوات التالية الصاخبة سباقا بين القوى الغربية للسيطرة على البحر . فبدأ بحثه بالحرب الهولندية لشارلز الثاني ، وأكد على المدى الذي بلغت مصالح إنجلترا التجارية في حرب السيادة الاسبانية التي برزت منها إنجلترا كقوة في البحر المتوسط ، فاستولت على جبل طارق وميناء ماهون Port Mahon . وفي حرب السنوات السبع ، كان نجاح وولف Wolfe ممكنا بواسطة الاسطول الذي فتح سانت لورانس St. Lawrence ،

ومنع وصول النجندات من فرنسا . ومرة أخرى ظهر المعنى الرئيسى للقوة البحرية ابان الثورة الامريكية عندما فشلت انجلترا بقوات بحرية مقسمة ، فى مواجهة القوة المتحدة لفرنسا واسبانيا ، وهكذا استطاعت المستعمرات الامريكية أن تنال حريتها .

كانت قضية ماهان الرئيسية طوال كتابه هى أن الحصار البحرى المستمر هو الحاسم دائما بين القوة البحرية والقوة البرية ، أكثر من الجيش البرى الذى لا يقهر .

وفى سرده تفاصيل تكتيك مختلف المعارك ، علق أهم كاتب لتاريخ حياته وهو الكاتبين و . د . بولستون W.D. Puleston بقوله : «بذل ماهان كل جهد لتوخى الدقة . واذ أخذ أمثلته من عصر السفن الشراعية ، حاول جاهدا أن يلم بتكنولوجيا الإبحار والمعنى الدقيق للمصطلحات البحرية القديمة ، التى بطل استعمالها فى عصره الملاحى» .

وفى ذكر ماهان لتاريخ حياته ، هو نفسه ، وصف الوسيلة الميكانيكية التى استخدمها ، مثل نماذج السفن الورقية ، لتمثيل وإعادة تصوير المعارك البحرية للسفن الشراعية .

كان هدف ماهان الرئيسى من كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، كما أخبر هو القائد لوس ، الضابط الذى كان رئيسه السابق ، مايرخذ من قوله : «هدفى أن أكتب تاريخا حربيا ناقدا عن الماضى البحرى ، وليس تاريخا للأحداث البحرية» . وكان بوسعه أن يضيف أيضا ، أن من أهدافه أن يوضح العلاقة بين التاريخ البحرى والتاريخ السياسى اذا اقتنع تماما بأن القوة الاقتصادية التى ذهبت مع السيطرة على البحر ، منحت مالكةها مركزا ثابتا فى شئون العالم . وهكذا ، كما لاحظ برات Pratt

«لأن انجلترا كونت قوة بحرية ، بينما أهمل خصومها ذلك ، استطاعت احباط خطط لويس الرابع عشر وناپليون لاكتساحها . واعتقد ماهان اعتقادا راسخا ، انها بذلك انقذت الحضارة ممن ارادوا تدميرها» .

ذاعت شهرة كتاب «اثر القوة البحرية في التاريخ» عالميا فور نشره مباشرة - ولو ان شهرته في الخارج كانت اعظم بكثير من شهرته في الولايات المتحدة . وبعد فترة وجيزة ، ظهرت تراجم هذا الكتاب الى الالمانية واليابانية والفرنسية والهندية والروسية والاسبانية . وفي كل مكان ، كان هذا الكتاب ذخيرة لعصر التوسع البحري العظيم الجارى في العالم ، وخصوصا في بريطانيا العظمى والمانيا وامريكا .

وكما ابان عدة نقاد ، يبقى هناك دائما سؤال عما اذا كان كتاب ماهان ، لو ظهر في عصر آخر وفي منطقة اخرى ، فهل كان يحظى بنفس ذلك الاثر البالغ ؟ لاريب في ان عصره كان ملائما جدا وسقطت أقوال ماهان عن أهمية القوة البحرية الحربية ، على ارض خصبة ، فوافقت تماما الميول الى الحرب في ذلك العصر . كانت القوى العظمى تستعرض عضلاتها لتصير دولا بحرية ساحقة وتقوم بفزو مستعمرات وممتلكات جديدة . اذن ، فمن الطبيعي ان تعتبر الامم ماهان نبيا . فبراهينه المدعمة بالمستندات القائلة بأن السيطرة على البحر هي المطلب الاساسي لمصالح اية امة ، قد اثبتت تلك البراهين صحة السياسات التي اعتنقت من قبل ، او التي هي موضع الدراسة . وكما عبر عنها احد الكتاب البريطانيين ، كانت تعاليمه «مثل البترول يصب على لهب التوسع الاستعماري الجارى في كل مكان» .

قرظ النقاد البريطانيون كتاب ماهان ، فوصفوه بأنه « انجيل عظمة انجلترا» . وقال بولستون : «ربما كتبه بناء على طلب من

الوزارة البريطانية . فقد دعم بوضوح كل جدالهم» . وأكد أحد القواد البحريين أنه من أجل تحسين مركز البحرية الحربية البريطانية بعد سنة ١٩٠٠ فاننا «لأندين بالشكر للمحافظين ولا للحرار ، وانما لماهان ولا لأى أحد سواه» . وتقديرا لماهان عند موته في سنة ١٩١٤ ، كتبت جريدة لندن بوست London Post تقول : « ان بريطانيا لمدينة لذلك الامريكى العظيم بدين لا يمكن سداه ، لأنه كان أول من صاغ فلسفة القوة البحرية لبريطانيا في دقة وبطريقة مفهومة» .

ستقدر هذه التعليقات تقديرا أكثر عندما ندرك أنه في الوقت الذى كتب فيه ماهان كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» كانت البحرية الحربية الانجليزية «تعانى من اهمال مالى منذ مدة طويلة فاختصر موظفوها الى حجم الهيكل فحسب ، وسرعان ما تفوقت على قوتها السفن الفرنسية والاطالية الاكثر حداثة . ووصفت الفوه الحربية الانجليزية بأنها تشبه «معرضا للسفن العتيقة ذات الأشكال المتنوعة الغريبة» . وكان أكثر من ثلثها غير مسلح . اذا فقد جاءت نصيحة ماهان لتكوين أسطول انجليزى حديث قوى ، فى اوانها المناسب تماما ، فأسرعت كثيرا حركة اعادة تنظيم القوة البحرية الحربية وتقويتها .

اظهرت انجلترا اعجابها وتقديرها لماهان اثناء زيارتين قام بهما لبريطانيا فى سنة ١٨٩٣ وسنة ١٩٠٤ ، كان ضيف الشرف فى حفلات العشاء الرسمية التى اقامتها الملكة فكتوريا ورئيس الوزراء . وكان أول ضيف شرف اجنبى كرمه نادى الجيش والبحرية . ومنحته كل من جامعتى أكسفورد وكامبريدج درجات فخرية فى بحر اسبوع .

ولكن ، بما ان كتابه «اثر القوة البحرية على التاريخ» لم ينشر كما اقترح أحد النقاد بلغة يفهمها الامريكىون والانجليز وحدهم ،

فان اثره على الالمان واليابانيين كان يمثل قوة اثره على البريطانيين . فقال القيصر ولهم الثانى Kaiser Wilhelm II «انى لأقرأ الآن كتاب الكابتن ماهان ، وانما التهمه . انه موجود على ظهر جميع سفنى . . يتوقف مستقبلنا على المياه ، ويجب أن يكون النرمح الثلاثى الشعاب فى قبضة يدنا» . وهكذا صار كتاب ماهان موحيا ببحرية المانية جديدة . . وقال أحد كتاب تاريخ حياته (تاييلور Taylor) : « هناك دليل معقول على أنه فى الأشهر القليلة الأخيرة من حياة ماهان ، كان يعانى من ائمة عقلية عن الحرب (الحرب العالمية الاولى) والدور الذى لعبه ، ولو أنه لم يسبق أن فكر فيه من قبل اطلاقا ، فى اثاره نمو البحرية الالمانية» .

وكذلك الامر فى اليابان ، فقد زود كل ضابط بحرى ، وكل سفينة حربية بنسخة من كتاب ماهان ، وكجزء من الامتعة . وقد تلهف اليابانيون الى تعلم الطرق الغربية ، وبدعوا يستجيبون لماهان ، على نطاق واسع ، فى بناء القوة البحرية الحربية ، وعبارة المدافع وغير ذلك من الامور البحرية الاخرى . ورفض ماهان دعوة اليابان بأن يكون مستشارها البحرى الرسمى . ورغم هذا ، اتخذوا آراءه رائدة لهم ، وشرعوا يعملون ليصيروا القوة البحرية العظمى فى الشرق الاقصى .

من بين الدول العظمى التى تاق ماهان الى أن يؤثر عليها ، كانت الولايات المتحدة وحدها هى البطيئة فى قبول تعاليمه . واقتنع ماهان بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدخل فى منافسة عنيفة مع قوات اخرى فى أسواق اجنبية ، فتنبنى بحرية حربية ضخمة ، وتكسب قواعد بحرية فى أعالي البحار ، وتتسع بامتلاك مستعمرات خارج نصف الكرة الغربى . وأشار بأن جزيرة هاواى Hawaii يجب أن تضم وتستعمل كقاعدة أمريكية . كما

أشار الى أن البحر الكاريبي Caribbean . يجب أن تكون علاقتنا به كعلاقة أوروبا بالبحر المتوسط ، وترداد أهميته للولايات المتحدة باتمام قناة بناما . أولى ماهان طوال كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» انتباها خاصا الى الولايات المتحدة ، ولاحظ امكانياتها كقوة بحرية . وقال الكابتن بولستون : «ألف ماهان كتابه لاعادة اشعال حماس مواطنيه السابق ومتعتهم في أن يصيروا قوة بحرية . اعتقد أن الامريكيين مشغولون بتطوير داخل القارة وبدا قذفوا بمراث عظيم بعيدا دون داع . لم يرغب ماهان في أن يحذو وطنه حذو فرنسا أبان حكم لويس الرابع عشر ويصبح قوة برية قبل كل شيء» .

سببت حجج ماهان تحول اثنين في المراكز الرئيسية ، هما: ثيودور روزفلت ، وهنرى كابوت لودج Henry Cabot Lodge تحمس روزفلت في البيت الابيض ولودج في مجلس الشيوخ لتكوين بحرية حربية أمريكية عظيمة . وجد روزفلت تعبيرا كاملا لفلسفته عن «العصا الغليظة» فيما كتبه ماهان . واستخدم نظريات القوة البحرية لتساعده في كسب الرأي العام الامريكى نحو سياسة التوسع عبر البحار . وأن اثر ماهان ، على البرنامج الضخم لاقامة بحرية حربية في الولايات المتحدة ، الذي بدأ في التسعينات من القرن التاسع عشر ، واضح وملحوظ .

جرى تلم ماهان الكثير التصانيف في طريق نجاحه العظيم الشهير ، فأخرج سيلا من الكتب ومقالات المجلات فبلغ عدد مجلدات الكتب والمقالات التي جمعت ، حوالى عشرين ، يلحق بها عشرات من مقالات الصحف . وكانت اضافاته الى «سلسلة القوة البحرية» بالغة الاهمية ، ولاسيما «أثر القوة البحرية على الثورة والامبراطورية الفرنسيين» في سنة ١٧٩٣ - ١٨١٢ ، الذي اعتبره النقاد مؤلفا أكثر شمولا ومدعما بالمستندات بعناية أكثر

من «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، وتواريخ حياة فراجوت Faragut وبلسون ، والقوة البحرية في علاقتها بحرب سنة ١٨١٢ .

اعترف ماهان صراحة بأن آراءه عن القوة البحرية ليست أصيلة ، وأشار مثلا الى ما كتبه باكون Bacon ورالى Raligh عن نفس الفكرة قبل ذلك بثلاثة قرون . وحتى قبل ذلك بوقت أطول عرف الإقدمون أمثال ثوكيديس Thucydides وكسيركسيس Xerxes وثيرموسنوكليس Themostocles ، أهمية هذه الفكرة . نجح ماهان، في نطاق واسع ، أكثر من أى كاتب سابق في موضوعه الخاص ، الذى كان كما قال هو حرفيا : « تحليلًا للتاريخ في محاولة لأبين سر الأحداث الجارية خلال سلسلة طويلة من السنين ، وبالضبط ، أثر السيطرة على البحر، في أحداث معينة . واذا ترك هذا المجال شاغرا ، أعطانى فرصتى » . ورغم انه ، كما قال كثير من المعلقين ، كانت نظرة ماهان الى التاريخ ضيقة جدا ، فتجاهل الكثير من العوامل الحيوية ، وخلق نظرة جديدة الى السياسة والاقتصاد .

وإذا سلمنا جدلا بأن مذهب ماهان كانت سليمة منطقيا ، لعصره وللقرون السابقة ، فهل صارت بائدة بواسطة التقدم التكنولوجى للقرن العشرين ؟ وبنوع خاص ، هل تفوقت القوة البحرية في عالم اليوم ؟ اختلف الخبراء في آرائهم . ففى الحرب العالمية الثانية ، لعبت القوة البحرية دورا بارزا ، ولكن كان عليها أن تتعاون تماما مع القوة الجوية ، لان السفن التى لاتحرسها طائرات فى الجو ، عرضة جدا للدمار . وان التطور الذى حدث بعد الحرب وتمخض عن «قنبلة الجحيم» قد ألقى ظلًا على مستقبل القوات البحرية . فبوسع هذه القنبلة أن تشل تماما قدرة أسطول

مكتل . ومع ذلك فان صنع روسيا السوفيتية لاسطول عظيم من الغواصات وتأييد أمريكا على حاملات الطائرات ، لدليل قاطع على ان القوة البحرية مازالت تحتفظ بمكانتها حتى في عصر ذرى .

وفي رأى العلماء وحكمهم ، ان منزلة ماهان الدائمة كمؤرخ ، لن تتعادل مع شهرته المعاصرة . فنجاحه الباهر كان من قبيل الدعاية . وفي وقت وفاته بلغت الولايات المتحدة الاهداف التي رسمها لها ، وهى :

بناء بحرية حربية عظيمة ، وشق قناة بناما ، واقامة القواعد فى البحر الكاريبى والمحيط الهادى . لقد شاهد انتصار فلسفته القائلة بان «من يحكم الامواج يحكم العالم» . هذا ، وان الدول العظمى لمشغولة فى سباق جنونى من أجل القوة البحرية . وكما لاحظ ناقد لاذع :

« ما من شخص واحد قد اثر مباشرة وبعمق فى المذاهب البحرية والسياسة القومية لمثل هذه الامم الكثيرة» ، بينما قرر خبير بحرى فرنسى ، ان ماهان «عدل تعديلا عميقا ، فى فترة حياته ، عدل تاريخ العصر الذى عاش فيه» .

٩ - قلب القارة والجزيرة العالمية

السبي هالفورد ج . ماكندر Sir Halford J. Mackinder

((المحور الجغرافي للتاريخ))

في خلال فترة تزيد قليلا على عشر سنوات ، بعد أن برهن القائد البحري ماهان ، بطريقة مقنعة ونهائية على عدم امكان تهمر القوة البحرية عبر التاريخ . غير أن امكان استخدام مذهبيه في المستقبل ، قد نسف بدرجة خطيرة ، ان لم يكن قد فند صحته ، وذلك بماملين جديدين : الاول من المملكة المادية وهو اولى التجارب الناجحة للاخوين رايت Wright في سنة ١٩٠٣ بطائرة قوية .
واما العامل الثانى ففى مملكة الافكار : ورقة علمية كتبها فى سنة ١٩٠٤ العالم الجغرافى الانجليزى هالفورد ماكندر ، الذى اشتهر بعد ذلك باللقب «أبو السياسة الجغرافية» .

لم يعرف العالم ، على الفور ، فى أية حالة من هاتين تقح .
الاهمية المثيرة لهذين الحداثين ، ومع ذلك ، فان وجه الكرة الارضية يجب أن يتغير بهما تغيرا مستديما .

لم يعد من غير المحتمل تفكك النظريات الثورية .. في ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤ قرأ ماكندر ورقته المشهورة «المحور الجغرافي للتاريخ» ، في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . وتقع تلك الورقة في ٢٤ صفحة مطبوعة ، أى أنها لاتزيد على نشرة عادية . غير ان تحليلها الرائع للعلاقة المتبادلة بين الجغرافيا والسياسة في الماضى والحاضر خلال العالم كله ، كان افكاره جديدة غزت تفكير القادة السياسيين الحربيين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا والمؤرخين في كل مكان .

في نهاية الحرب العالمية الاولى ، عدل ماكندر نظريته بتفصيل مطول جدا عن « المثل العليا الديمقراطية والحقيقية » . ورغم أنه لم يتم بتعديل اساسى على قضيته الاصلية ، فهذا الكتاب وموضوعه السابق هما حجر الزاوية في العلم الحديث للسياسة الجغرافية ، وهو ادماج الجغرافيا والعلوم السياسية معا .

كان ماكندر في الرابعة والثلاثين عندما ألف محاضراته الشهيرة . كان ابوه طبيبا ريفيا أرسله الى كلية اسوم Epsom في سنة ١٨٧٤ ، ومنها الى اكسفورد حيث كان سجل دراسته جافلا بالالعية ، عين بعدها محاضرا متجولا لجامعة اكسفورد في علم الجغرافيا لمدة سنتين ، ثم عين معيدا للجغرافيا في اكسفورد حيث جذب اليه مئات الطلاب بطرق تعليمه الحركية . وكان للاحاحه على الجمعية الجغرافية الملكية اكبر الاثر في تمويل هذه الجمعية لاول مدرسة بريطانية في علم الجغرافيا باكسفورد سنة ١٨٩٦ ، وجعلت ماكندر مديرها . كما وجد متسعا من الوقت في تلك السنوات ليحظى بشهرة في تسلق الجبال . فقام بأول مقامرة صعودا الى جبل كنيا Kenya بشرق افريقيا . ومع استمراره في منصبه باكسفورد ، عمل معيدا للجغرافيا الاقتصادية في جامعة

لندن ، ذلك المنصب الذى أدى الى تعيينه مديرا لمدرسة الاقتصاد بلندن فى سنة ١٩٠٣ . واذ اولع دائما بعلوم الاقتصاد ، انتخب ، لعدة مرات ، فى البرلمان من سنة ١٩١٠ - ١٩٢٢ . ومع ذلك ، كانت حياته العملية كلها ، اولا وقبل كل شيء ، فى الدوائر الاكاديمية . فكرس نفسه لتقدم الدراسة العلمية للجغرافيا ، وخصوصا الجغرافيا من حيث «وجهة النظر الانسانية» .

قدم ماكندر فى كتابه « المحور الجغرافى للتاريخ » ، الذى قدر له مثل رد الفعل الواسع ذاك . قدم اولا نظريته عن الفضاء المقفل ، وهى فكرة اشتهرت بعد ذلك بأربعين سنة بواسطة وندل ويلكى Wendell Willkie فى مقال «عالم واحد» . اعتقد ماكندر ان «الحقبة الكولومبية» وهى حقبة اربعة قرون من الاكتشاف والتوسع الجغرافيين ، قد انتهت عند بداية القرن العشرين . فكتب يقول : «امت حدود خريطة العالم فى اربعمائة سنة ، بدقة تقريبية» .

تبع ماكندر نفس الفكرة فى «المثل العليا الديمقراطية ، والديموقراطية» ، فقال :

« وصلنا اخيرا الى القطب الشمالى فوجدناه فى وسط بحر عميق ، والى القطب الجنوبى فوجدناه فوق هضبة عالية . وبهذين الاكتشافين الاخيرين ، ختم كتاب الرواد . لم تلق هذه المغامرة جزاءها بالعشور على سهل واسع من الارض الخصبة او سلسلة جبال هامة ، او نهر من الطراز الاول . وزيادة على ذلك ، ماكادت خريطة العالم ترسم قبل تمام ثبوت الملكيات السياسية لجميع اجزاء اليابسة . . سار مبعوث الارساليات والغازى والمزارع ومستغل المناجم ، وحديثا المهندس ، سار هؤلاء جميعا يتبعون من كئيب خطى الرحالة ، حتى ان الدنيا فى أقصى حدودها قلما اكتشفت قبل ان تقرر ملكيتها الحقيقية الكاملة . فقلما توجد

منطقة في أوروبا او في أمريكا الشمالية او في أمريكا الجنوبية ، او في أفريقيا او استراليا ، لم تثبت ملكيتها الا نتيجة لحرب بين القوى المتحضرة او نصف المتحضرة .

في تسعينات القرن الثامن عشر ، عبز مؤرخ امريكى بارع اسمه فردريك جاكسون ترنز Frederick Jackson Turner عن فكرة مشابهة ، ولو أن ذلك كان بطريقة محدودة ، عن الفضاء المقفل ، بأن كتب عن الجبهة الماضية وأهميتها في التاريخ الامريكى .
والآن ، يقرر ماكندر أن تلك الجبهة قد اختفت خلال العالم .

وصف ماكندر الآثار المحتملة لتمهيد ترنز ، بقوله :

«من الآن فصاعدا ، سيكون علينا ثانية ، في العصر بعد الكولومبى ، أن نتناول النظام السياسى المقفل ، وسيكون أحد المجالات العالمية . فكل انفجار في القوى الاجتماعية ، بدلا من أن يدوب في دائرة الفضاء غير المعروف المحيطة به ، وفي الفوضى البربرية ، فانه سيرتد بحدة من الجانب البعيد للكرة الارضية ، وستتخطم نتيجة لذلك ، تلك العناصر الضعيفة في الكيانين السياسى والاقتصادى للعالم . . نحس الآن بكل صدمة وبكل كارثة أو فائض ، كما يحس بها من يعيشون في الجزء المقابل لنا من الكرة الارضية . وقد ترتد الينا ممن يعيشون قبالنا وهكذا يرتد صدى كل فعل انسانى ، ويرجع صدها ثانية . . . حول العالم .

وفي النظام المقفل الخاص بعصرنا ، وخفة الحركة غير المحدودة المساحة له برا وجوا ، نرى القوة البحرية السائدة ، قد انقضى عصرها ومضى ، تبعا لرأى ماكنندر . ! ولو كان هذا حقيقيا ، اذن فقد جاء عصر قوة أرضية . فإين كان المركز الطبيعى للحقبة الجديدة ؟ كان ، بالطبع ، في كتلة الأرض العظمى من

العالم ، أى فى تلك المساحة الشاسعة التى أطلق عليها ماكندر اسم «المنطقة المحورية لسياسات العالم» . ومن بين خمس خرائط لتوضيح قضيته استحدثت الاخيرة ان تسمى «المراكز الطبيعية للقوى» ، وتصور «المنطقة المحورية» . صور ماكندر المحور الجغرافى فى شمال وداخل المنطقة الاوروبا آسيوية ، والممتدة من المنطقة القطبية الشمالية الى الصحارى الوسطى ، وغربا الى البرزخ العريض بين بحر البلطيق والبحر الاسود .

وتبعا للتحليل التاريخى الذى يخصص به معظم مقاله ، فان أوروبا وبقيّة العالم ظلت لعدة قرون تحت ضغط مستمر من منطقة المحور .

« نالت أوروبا حضارتها تحت ضغط البربرية الخارجيه اذن ، فانا اطلب منكم ان تنظروا لحظة الى أوروبا والى التاريخ الاوروبى على انهما تابعان لآسيا وللتاريخ الآسيوى ، لان الحضارة الاوروبية ، بمعنى حقيقى جدا ، كانت نتيجة نزاع دنيوى ضد الغزو الآسيوى . وأهم تناقض واضح فى الخريطة السياسية لاوروبا الحديثة هو الذى تمثله مساحة روسيا التى تشغل نصف مساحة القارة ، ومجموعة من الاراضى الصغيرة تسكنها القوى العربية» .

وبنتبع التناقص والامتداد فى التاريخ الاوروبى اكمل ماكندر حديثه بقوله :

« لمدة الف سنة ، برزت مجموعة من الشعوب راكبي الخيول من آسيا خلال الشقة العريضة الواقعة بين جبال أورال Oral وبحر قزوين Caspian Sea ، ساروا بخيولهم خلال المسافات المكشوفة لجنوب روسيا ، واستتقروا فى المجر Hungary فى قلب شبه الجزيرة الاوروبية نفسه ، وكونوا ، بالمعارضة التى

قابلتهم بطبيعة الحال ، كونوا تاريخ كل من الشعوب العظمى
المجاورة - اروس والالمان والفرنسيين والايطاليين والاغارقة
البيزنطيين «

ومن وجهة نظر التأثير الدائر ، تركت غزوات المغول في القرنين
الرابع عشر والخامس عشر ، أعمق الاثر ، فاكتمت كثيرا من
أوروبا الوسطى وروسيا وفارس والهند والصين . جاءت تلك
الغزوات مما أسماه ماكندر «منطقة المحور» و «كل الحدود المتفق
عليها للعالم القديم ، أحست في الحال أو بعد وقت بالقوة الهائلة
لتلك السلطة المتحركة التي نشأت في سهول الاستيس Steppe» .

أسقط ماكندر أشعة تاريخه على أزمنتنا ، فرأى منطقة
المحور تزيد من ثقلها في شؤون العالم متمشية مع نموها في القوة
الاقتصادية والحربية . ومن وجهة النظر التاريخية ، رأى بالادلة
« الحاحا معيناً للعلاقة الجغرافية » ، لأنه -

« ليست منطقة المحور لسياسة العالم هي تلك المساحة
الواسعة أورال - آسيا ، التي لا يستطيع السفن أن تصل إليها ،
ولكنها كانت ، في قديم الزمان ، مفتوحة أمام الببدو راكبي
الخيول ، وعلى وشك أن تغطيها اليوم شبكة من السكك الحديدية؟
كانت ، ولا تزال هنا ظروف تحرك القوة العسكرية والاقتصادية
من نوع يصل إلى مدى بعيد ، ولكنه نوع محدود . فروسيا تحل
محل الامبراطورية المغولية . وضغطها على فنلندا وعلى اسكنديناوة
وعلى بولندا وعلى تركيا وفارس والهند والصين ، يحل محل
غارات رجال الاستيس الممتدة الى الخارج . انها تحتل المركز
الاستراتيجي المتوسط في العالم كله ، ذلك المركز الذي تحتله
المانيا في أوروبا . يمكنها أن تضرب في جميع الجوانب ، وتضرب
من جميع الجوانب أيضا ماعدا الشمال » .

يحدد ماكندر هلالين خارج منطقة المحور يضم الهلال الكبير الداخلى المانيا والنمسا والهند والصين بينما يضم الهلال الخارجى بريطانيا وجنوب افريقيا واستراليا والولايات المتحدة وكنده واليابان . والحقيقة أن قوة منطقة المحور لم تكن معادلة لدول الحافة الخارجية للهلالين . وهنا أبدى ماكندر خوفه العظيم بقوله: «قد يحدث هذا إلا اذا تحالفت المانيا مع روسيا . وفي هذه الحالة ، يصبح بوسع دولة المحور أن تمتد فوق البلاد الساحلية للاورال - آسيا فتستعمل «موارد قارية هائلة لبناء أسطول . وعندئذ تكون امبراطورية العالم ظاهرة» .

اختتم ماكندر خطابه الشهير بالتأكيد بأنه تكلم بصفته عالما جغرافيا . وأشار الى أن «التوازن الحقيقى للقوة السياسية فى أى وقت معين هو ، بالطبع ، حاصل ضرب الظروف الجغرافية ، اقتصاديا واستراتيجيا ، فى العدد النسبى للرجولة الكاملة والمعدات وتنظيم الشعوب المتنافسة» وفى تقديره أن «الكميات الجغرافية فى هذا الحساب أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتا تقريبا ، من الكميات البشرية» . لن تتغير الأهمية الجغرافية لموقع المحور اذا سكنه شعب آخر غير الشعب الروسى .

فمثلا اذا نظم اليابانيون الصينيين لهزيمة الامبراطورية الروسية واحلال أراضيها ، فانهما تكونان الخطر الاصفر على حرية العالم لجرد انهما تضمان جبهة على المحيط الى مواردالقارة العظمى ، وهذه ميزة حرم منها الروس ساكنو منطقة المحور .

احس ماكندر ، وهو يكتب ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى : «أن الحرب دعمت آراءه السابقة بدلا من أن تنهز كيانها» . ففى «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية» استمر فى مناقشة «منطقة المحور» التى أشار اليها عندئذ على أنها «قلب القارة» الواقعة فى وسط « الجزيرة العالمية » .

لم تكن أوروبا وآسيا وأفريقيا ، كما رآها ماكندر ثلاث قارات ، بل فارة واحدة هي «الجزيرة العالمية» ، وبما أن البحر كان فيما مضى مسيطرا على تفكير الانسان ، فانه لم يعتبر تلك الرقعة الشاسعة جزيرة ، لانه كان من المستحيل الابحار حولها. فأشار ماكندر الى أنه «يطفو فوق بحر القطب الشمالي طبقة من الثلج عرضها الفان من الاميال ، احدى حافاتها على الارض الضحلة في شمال آسيا . اذن ، فليست القارة جزيرة من حيث غرض الابحار» . وباستثناء هذه الحقيقة ، ومساحتها الشاسعة، فانها لا تختلف عن الجزر الاخرى . وتطفي الجزيرة العالمية على بقية الارض في كل من المسافة وعدد السكان . فمن ناحية الارض، لهذه الجزيرة الثلثان ، بينما الثلث الباقي للامريكتين الشمالية والجنوبية وأستراليا والمناطق الصغرى الاخرى . وزيادة على ذلك ، فان سبعة اثمان سكان العالم يقيمون في هذه الجزيرة ، بينما يقيم الثمن فقط في بقية الاراضى الاخرى . اذا ، فقد لاحظ ماكندر أن الدنيا القديمة هي «الوحدة الجغرافية العظمى في كرتنا الأرضية» .

وبعد أن أوضح ماكندر «نسب وعلاقات» الجزيرة العالمية ، استطرد يقول :

« وضعت ، كما هي ، على كاهل الارض بالنسبة الى القطب الشمالى . واذا قسنا المسافة من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ، بطول منتصف آسيا نجد أولا ١٠٠٠ ميل من البحر المغطى بالثلج حتى الشاطئ الشمالى لسيبيريا ، ثم ٥٠٠٠ ميل من الارض الى الجزء الجنوبى من الهند ، ثم ٧٠٠٠ ميل من البحر الى الارض المغطاة بالثلج عند القطب الجنوبى . أما اذا قسنا بطول منتصف خليج البنغال أو البحر العربى فان آسيا تبلغ ٣٥٠٠ ميل فقط ، ومن باريس الى فلاديفوستك Vladivostok

٦٠٠ ميل ، ومن باريس الى رأس الرجاء الصالح مسافة مساوية للسابقة» .

قال ماكندر : «ليست الامريكنا واستراليا صغيرة نسبيا من حيث المساحة فحسب ، بل وان القوة البشرية والموارد الطبيعية التى فيها اقل بكثير مما فى «القارة العظمى» او «الجزيرة العالمية» . ويسأل ماكندر : «ماذا لو ان القارة العظمى او الجزيرة العالمية كلها ، او الجزء الاكبر منها ، صارت فى وقت ما ، فى المستقبل ، قاعدة متحدة من القوة البحرية ؟» الا تتفوق على القواعد الجزيرية الاخرى من حيث السفن والرجال المديرة لها ؟ ، هذا ، ورغم أن المانيا هزمت ، فلا يزال هناك احتمال أن جزءا كبيرا من القارة العظمى سيتحد فى يوم ما تحت امرة حكومة واحدة ، وتبنى عليها قوة بحرية عظمى لا يمكن قهرها . وحذر ماكندر يقول : « لو كسبت المانيا الحرب لكونت قوتها البحرية على اساس اوسع من اية قوة فى التاريخ ، والحقيقة انها ستكون على اوسع قاعدة ممكنة » .

لقب قارة ماكندر ، اساسا ، نفس حدود محوره السابقة . فقلب القارة هو المنطقة الوسطى فى أوروبا وآسيا النائية ، والبعيدة عن متناول سيطرة القوة البحرية . «وتشمل بحر البلطيق ووسط نهر الدانوب الصالح للملاحة ، وجزءه من ناحية المصب ، والبحر الاسود وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس والتبت ومنغوليا . اذن ، يضم قلب القارة فى داخله بروسيا براندنبرج Brandenburg Prussia والنمسا والمجر ، وكذلك روسيا - انها مثلثة الشكل ذات قوة بشرية عظيمة ، كان يفتقر اليها راكبو الخيول التاريخيون » ذكر ماكندر بحر البلطيق والبحر الاسود فى هذه المنطقة ، لانه ثبت ابان الحرب العالمية الاولى استحالة الوصول اليها أو السيطرة عليهما من الخارج بأية قوة بحرية .

أكمل ماكندر قوله بتعريف آخر لقلب القارة بأنه : « ظرف طبيعي هام واحد تربطه كله معا ، بيايا ، عند حافة جبال فارس المطلة على أرض العراق Mesopotamia الشديدة الحرارة ، تحت الثلج في زمن الشتاء وفي منتصف الشتاء كما نرى من القمر درع واسعة بيضاء وتظهر قلب القارة في أضخم معانيه . . . اقتنع ماكندر بأن هذه المساحة هي مفتاح الجزيرة العالمية . وتمتد اجمالا من جبال هيمالايا الى المحيط المتجمد الشمالي ، ومن نهر الفولجا Volga الى نهر يانجتسى Yangtze وتمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل شمالا وجنوبا ومسافة ٢٥٠٠ ميل أخرى شرقا وغربا . ولما كانت بمأمن من القوة البحرية بسبب موقعها داخل القارة ، ويمكن لقلب القارة هذا اذا نما نموا صحيحا ونظم عسكريا ، أن يصير مركز ومحور قوة عالمية ذات تأثير عظيم .

اختصر ماكندر حججه الى صيغة شائعة على الالسن ،
نصها :

« من يحكم شرق أوروبا يسيطر على قلب القارة ،

ومن يحكم قلب القارة يسيطر على الجزيرة العالمية ،

ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على الدنيا . »

ولكى يحال بين أية أمة واحدة ، وخصوصا روسيا أو ألمانيا ، وبين التفوق في قلب القارة ، اثر الحرب العالمية الاولى ، نصح ماكندر بتكوين حاجز من الدول يمتص التصادم من بحر البلطيق الى البحر الاسود . والدول المستقلة كما يراها ماكندر هي استوليا Esthonia ولتوانيا Lithuania وبوهيميا العظمى Great Bohemia والمجر والصرب العظمى Great Serbia ورومانيا العظمى وبلغاريا واليونان - وهذه قائمة تختلف اختلافا طفيفا

عما قرره مؤتمر السلام في باريس . وعلى ضوء التاريخ الحديث ، اخطأ ماكندر خطأ فاحشا ، فلم تحقق منطقة امتصاص الصدام الغرض المطلوب منها . اذ اخترقت المانيا هذا الحاجز اولا ، ثم روسيا .

وابان الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٣ ، قبل موت ماكندر بأربع سنين ، اختبر نظرية قلب القارة للمرة الثالثة في مقال عنوانه : «العالم المستدير وكسب السلام» ، فوجد فكرته « أكثر صحة ونفعا اليوم مما كانت عليه منذ عشرين أو أربعين سنة مضت» . واستطرد يتنبأ بأنه : «إذا هزم الاتحاد السوفيتي المانيا في الحرب ، فلا بد ان يكون أعظم دولة في الدنيا . وزيادة على هذا ، سيكون القوة ذات المركز الاستراتيجي الاقوى في ناحية الدفاع . فقلب التارة اعظم حصن طبيعي على ظهر البسيطة ، ولاول مرة في التاريخ ، تسيطر عليه حامية كافية ، كما ونوعا .

لم تتشبهت دولة ما بنظريات ماكندر مثلما فعلت المانيا النازية . وتبعها لتفسير كارل هوشوفر **Karl Haushofer** ، كاتب الموضوعات الجغرافية الكثير التصانيف ، فان فكرة ماكندر الاساسية عن قلب القارة الموجود في جزيرة عالمية ، سادت الفكر السياسي الالمانى لمدة عشرين سنة ١٩٢٥ - ١٩٤٥ .

اشتهر هوشوفر في وقت مبكر يرجع الى سنة ١٩٠٨ عندما اوفد الى اليابان كملاحظ حربى لموظفى القائد الالمانى . فركز اهتمامه على استيعاب شئون الشرق الاقصى ، صار معروفا كخبير وعن طريق موهبة استثنائية لحفظ اللغات ، تعلم التكلم بست لغات اجنبية منها الصينية واليابانية والكورية والروسية ، كما أنه توسع في رحلاته ليلم ، من كتب ، بالشرقين الاوسط والاقصى . وقى هوشوفر في الرتب العسكرية ابان الحرب العالمية الاولى ،

وتقاعد برتبة ماجور جنرال Major General وبعد استسلام ألمانيا ، وللمدة الباقية من حياته العملية ، شغل بالكتابة في الجغرافيا السياسية وتعليمها ، والتاريخ الحربى فى جامعة ميونيخ Munich . فسطر قلمه عدة كتب وكتيبات ومقالات للتفسير فى المثل العليا النازية بكلمتى سرهما : السياسة الجغرافية ، وتتناول تحركات التغيرات السياسية فى العالم ؛ وفضاء السكنى Lebensraum ، ويقصد بها حاجة الشعب الى اراض للسكنى ، للتوسع والنمو .

لانعرف متى عشر هوشوفر على مؤلف ماكندر لاول مرة . وربما كان هذا فى اوائل عشرينات القرن العشرين . وعلى الفور ادرك هوشوفر انه عشر على أستاذه ، فصرح من تلقاء نفسه بأنه مدين له . فمثلا ، كتب فى سنة ١٩٣٧ يصف ورقة ماكندر لسنة ١٩٠٤ بأنها ، «أعظم الآراء الجغرافية فى العالم كله » ثم أضاف «انه لم ير فى حياته شيئا أعظم من تلك الصفحات القليلة لروائع السياسة الجغرافية» . وبعد ذلك بسنتين ناقش موضوع تحالف المانى روسى ، مشيراً الى أن ماكندر اتخذ وجهة النظر البريطانية عن الخوف من القوة التى ستكون لتلك الدولتين ان اتحدتا . وكثيرا ما أستشهد هوشوفر بحكمة أو فيد Ovid : « من الواجب أن نتعلم لغة العدو » . . . أعاد طبع خريطة ماكندر لقلب القارة أربع مرات على الأقل فى مجلة Zeitschrift für Geopolitik واعترف ، بلا تردد ، بأن أفكاره مبنية على الاساس الذى قدمه ماكندر .

كان صديقهما رودلف هيس Rudolf Hess حلقمة اتصال بين هوشوفر وهتلر . فبينما كان هتلر فى السجن بعد قضية خمارة بوتش Beer Hall Putsch الفاشلة لسنة ١٩٢٣ ، زاره هوشوفر عدة مرات . . . أوضح هتلر فى عدة فقرات من

كتابه « كفاحي Mein Kampf » ، أنه استقى من هوشوفر بعض مذاهب السياسة الجغرافية . ولما انتصر النازيون بعد ذلك بعشر سنين كان هوشوفر في مركز قيادي يخوله التأثير على سياسة ألمانيا . واذ عين رئيسا لمعهد السياسة الجغرافية النازي، جند عددا ضخما من الموظفين ليدرعوا الارض للحصول على معلومات عن الطبيعة والظروف المعيشية والاطر التهديدية للشعوب، وغير ذلك من المعلومات الجغرافية ذات الاهمية الحربية القوية .

واذ أعجب هوشوفر بأفكار ماكندر ، تسلطت عليه فكرة أن ألمانيا لابد أن تسيطر على قلب القارة . فانتشرت رسومته عبر القارة من نهر الراين الى نهر يانجتسى ، وتركزت على خطته لحدوث تحالف عملاق بين ألمانيا واليابان والصين وروسيا والهند ضد الامبراطورية البريطانية . . وقد وافقت هيئة الموظفين الألمانية العامة على تعاليمه وأيدتها . وبدأ توقيع الميثاق النازى السوفيتى فى سنة ١٩٣٩ محققا لحلم هوشوفر ، غير أن سياسته كلها ذهبت ادراج الرياح عندما اقترف هتلر اعظم خطأ عجل بنهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما أمر قواده بأن يهاجموا الاتحاد السوفيتى . وبعد ما انتهت الحرب بفترة وجيزة ، انتحر هوشوفر وزوجته فى بيتهما البافارى .

وكما هو طبيعى ، اتهم النقاد هوشوفر بأنه هو الذى وضع أساس المذهب الحربى النازى ، بيد أن ماكندر دحض هذا الاتهام فى الخطبة التى القاها عام ١٩٤٤ ، اذ قال :

« علمت بسرمان شائعات تقول اننى أوحيت الى هوشوفر الذى أوحى الى هيس ، فاقترح هذا بدوره على هتلر ، عندما كان يملئ كتابه «كفاحي» ، ببعض أفكار السياسة الجغرافية ، يقال اننى مصدرها . انها ثلاث حلقات فى سلسلة ، ولكنى لا أعرف

شيئا عن الحلفتين الثانية والثالثة . ومع ذلك ، فأننى أعرف من دليل قلمه ، أن كل ما اقتبسه هوشوفر منى ، أخذه من خطاب المحور الجغرافى للتاريخ) الذى القيته أمام الجمعية الجغرافية الملكية منذ أربعين سنة خلت ، قبل وجود أى مسألة عن حزب نازى ، بزمن طويل .

لم يكن انتشار مذاهب السياسة الجغرافية ، بالطبع ، قاصرا على ألمانيا وحدها . فقلما كان الروس أقل نشاطا من الألمان فهناك مكتب جغرافى مزدهر ، هو معهد موسكو للاقتصاد والسياسة العالمية ، الذى اهتم منذ وقت طويل بالنزاع بين الولايات المتحدة والجزيرة العالمية التى يأمل الاتحاد السوفيتى فى السيطرة عليها . ومن الممتع فى هذا الخصوص أن نذكر رأى ماكندر فى روسيا عام ١٩١٩ عندما كانت الحكومة الشيوعية فى حداثة عهدها . كان مقتنعا بأن الفهد لا يغير مناطقه أبدا . «يتعارض نوع الحكومة البريطانية والأمريكية والمثل العليا لعصبة الأمم ، مع السياسة التى صيغت فى قالب الطفيان لشرق أوروبا وقلب القارة سواء أكانت على نظام الاسرات dynastic أو بولشيفية Bolshvik . قد تكون حالة الطفيان البولشيفى رد فعل أقصى للطفيان الأسرى . ولكن من الحقيقى أن السهول الروسية والبروسية والمجرية ، مع تناسق حالاتها الاجتماعية المتسعة على نطاق عريض ملائمة لسير العسكرية ودعاية النقابية . « Syndicalism » .

نوقشت صحة نظريات ماكندر الجغرافية نقاشا طويلا واحصيت جميع النقاط التى يحيط بها أى شك . ومن العيوب الواضحة ، اخفاق ماكندر فى أن يحسب حساب الإمكانيات الهائلة التى للقوة الجوية . ولكنه اعترف فيما كتبه بعد ذلك ، بأن غزو الجو قد فرض على العالم نوعا من الوحدة . الا أنه أصر على أن

هذا التقدم قد أيد « قلب القارة » ، نضال الجزيرة العالية ، ولم يضعفها - رينصر النقاد على أن القوة الجوية قد غدت سلاحاً رهيباً إلى درجة جعلت نظرية قلب القارة تفقد أهميتها الاستراتيجية . فالخطوط الجوية تعبر الآن المحيطات والقارات من جميع الجهات . وكما علق هريك Herrick :

الهواء عالمي مشاع للجميع . أنه طريق واسع فرد يقطع حسب الإرادة فوق الأرض أو البحر على حد سواء . لا يصد القوة الجوية إلا قوة جوية . وهي لا تعرف قلب القارة البعيدة عنها تمام البعد . . والقانون الاستراتيجي الآن ، قد يكون : « من يركب الطائرات يسيطر على القواعد ، ومن يسيطر على القواعد يسيطر على الجو ، ومن يسيطر على الجو يسيطر على العالم » .

يدعم وجهة النظر هذه فحص كرة أرضية حيث يرى المرء ما يجاور قلب القارة وأمريكا الشمالية « مرئية من أمريكا الشمالية » وبمصطلحات وسائل المواصلات الحديثة . ويقول ويجرت Weigert : « ماعادت استحالة الوصول ولا بعد الشبكة يحجب عنا قلب القارة . لم تعد تقع خلف سور موقع منيع لا يمكن النفاذ إليه . إذ قهرت الطائرات الحديثة البعيدة المدى مناطق القطب الشمالي في الخمسين سنة بعد أن ألقى ماكندر تحذيراته المشؤمة . وزيادة على ذلك ، فإن نفس حجم قلب القارة عقبه كئود لقوة الدفاع . فذلك الطول العظيم لأراضي روسيا السوفيتية وسواحل البحار ، مثلاً ، تزيد من إمكان إصابة الطائرات المعادية ، وتخلق مشكلة دفاع بالغة التعقيد . وبحسب الفاظ ماكندر ، « بينما يمكن أن تضرب من جميع الجهات ، يمكن أيضاً ضربها من جميع الجهات » .

هناك نقطة هامة ، وأخرى عمي عنها ماكندر ، إذ فشل في ادراك المركز القوى الذي تحتله الأمريكتان . وفي أثناء كتابته «المثل

العليا الديمقراطية والحقيقة» . شاهد منذ فترة وجيزة في الحرب العالمية الاولى ، استعراضا لقوة أمريكا وعنفها . ويبدو أنه كان مشغولا بفكرة قلب القارة والجزيرة العالمية في نظره الى الارض.. وعلى ذلك لم ير الدنيا الجديدة الا منطقة ساحلية و «مجرد تابع للقارة القديمة» .

ورغم مساوىء ماكندر التنبؤية فهناك أدلة قوية تؤيد آراءه . . . اقام الاتحاد السوفيتى حكما جديدا على قلب القارة ، وعن طريق التقدم الزراعى والصناعى واستغلال المعادن والسكك الحديدية وانشاءات المجال الجوى ، جعلت المنطقة من اقوى المناطق فى العالم اقتصاديا وحريريا . ومن ناحية اخرى ، فعلى الرغم من أنها بدأت عدداً من الخطط الخمسية فى العشرين سنة الماضية ، فلم تبلغ تلك المنطقة المقدرة الانتاجية التى للولايات المتحدة ، هذا وبرغم أن الاتحاد السوفيتى يحكم قلب القارة فإنه لا يزال بعيدا عن هدفه من السيطرة على الجزيرة العالمية ، فما بالك بالعالم .

كشف النقد ضعف بعض تفاصيل آراء ماكندر ، ولكنه لايفند الاسس الاصلية . ربما أن «الرأى الاول يمدنا بفكرة عالمية عن الدنيا وشؤونها» . وتنص عبارة جون ك . واينانت John C. Winant على اننا سنتذكره لمدة طويلة . وقال ماكندر : « لاتوجد منطقة جغرافية كاملة اصفر من سنطح الارض ولا اكبر منه» . كان آليا فى الحصول على تصديق واسع للنظرية التى عين عنها فى وقت مبكر يرجع الى سنة 1889 وتقول : «ان باب الجغرافيا السياسية هو الباب المتوج للجغرافيا» . كان جل اهتمامه أن يبحث مواطنيه وشعوب الديمقراطيات الاخرى على

الإيمان بأن الحقائق الجغرافية ذات أهمية أساسية في نمو الشعوب والدول . كان يؤمن ويعلم أن الدنيا لن تعيش في سلام للديمقراطية ، إلا إذا فهمت الحقائق الجغرافية فهما تاما . لقد وضعت أسس الجغرافيا الحديثة على آراء ماكندر عن العالم ومناطقه .

١٠ - دراسة فى جنون العظمة

Adolf Hitler أدولف هتلر

Mein Kampf ((كفاحى))

كانت كومة الجريق التى التهمت جثتى ادولت هيتلر وايفا براون Eva Braun ، فى العاشر من ابريل سنة ١٩٤٥ ، محكمة فى برلين القائمة على عمق كبير تحت الأرض ، كانت هذه الكومة خاتمة المطاف التى كان يمكن أن يفكر فيها « هتلر ، مؤلف الاوبرا ، أعظم من اعجب به الناس اعجابا حماسيا فاتخذه ريتشارد واجنر Richard Wagner موضوعا لأوبرا جديدة عنوانها Gütterdämmerung ، أو شفق الآلهة » ... جلجل المنظر أسفل الستار عن رواية شجوية عظمية ، افتتحت قبل ذلك بجيل عندما بدأ فوهرر Führer المستقبل سيره نحو السلطة والقوة .

وعندما فبض الحزب النازى ، بقيادة هتلر ، على زمام الحكومة فى سنة ١٩٣٣ بعد اضطرابات دامت اكثر من عشر سنوات

مقترنة بأعمال العنف ، روع العالم بتلك الاعمال . كان نظام الحكم متهورا في تثبيت رقابته ، فتركت جميع انظمة الحكومة الديمقراطية ، واوفت الآراء المعارضة في غير رحمة ، واضطهدت الكنائس والجمعيات الاخوية واتحادات العمال او ضمت . وقتل اليهود في أعداد ضخمة ، ووجهت التهديدات علنا الى الامم الصديقة المجاورة عن طريق موجات من الدعاية .

ومع ذلك ، فلو اتعب غير الالمانيين أنفسهم وقرءوا بامعان مجلدا ضخما عنوانه « Mein Kampf » اى « كفاحى » ، لوجدوا البرنامج كله موضحا امامهم بكل تفاصيله المخجلة . شكرا للرقابة الدولية على المطبوعات ، فقد نجح مؤلفه في ان تقتصر القصة كلها على الطبقة الالمانية الاصلية . وحتى لو ترجم النص الموبوء ، وفاز بحرية التداول بالانجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الاخرى ، لاعتبره كثير من الناس « حلما خياليا لرجل خيالى مخبول » - بدا بالغ الاتساع في مداه ، وطموحا بدرجة لا يصدقها العقل لقد سمي « كفاحى » بحق اروع ما اخرجته الدعاية في هذا العصر . ولننظر اليه من ناحية وجهة نظر قاضى المحكمة على انه « اعظم الكتب اجراما في القرن العشرين » . انسقت امة عظيمة وحلفاؤها لتنفيذ الآراء الخيالية التى تضمنها ذلك الكتاب . فعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، وزع منه في المانيا وحدها خمسة ملايين نسخة .

واذ نما هتلر وتربى في فينا (مثل شخص آخر اسمه سيجموند فرويد Sigmund Freud ، كون وهو في حداثة سنه انطباعات وتعصبات واحقادا قيض لها ان تحكمه طيلة بقية حياته . صب كل شىء في كتابه « كفاحى » . وتبين الابواب الافتتاحية صورة موجزة هامة من تلك السنوات الاولى . ولد في سنة ١٨٨٩ في براونو Braunau بالنمسا على الساحل

المواجه للحدود الألمانية ، ولذا كان يشعر دائما بأنه المانى أكثر منه نمساوى . وكان يحتقر ، بنوع خاص ، شعب فينا المتنعم وتبعا لرواية هتلر ، هو نفسه ، كانت أولى سننى حياته مليئة بالحرمان والآلام والاختفاق وعدم التوفيق وسوء التنظيم . توقفت دراسته الشكلية فى المدارس وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ومات والداه وهو فى حوالى تلك السن ، فكافح فى فينا ليكون مصورا ، واذ أخفق فى هذا المضمار حاول أن يشتغل بالمعمار ، بيد أن افتقاره الى التعليم والى المهبة لم يساعده على نيل مأربه .

يدعى هتلر أنه أثناء وجوده فى فينا ، قرأ الكثير ولاسيما التاريخ . وتأثرت أفكاره ، بنوع خاص بكتاب عن الحرب الفرنسية البروسية التى أوحى اليه بأن يفخر كثيرا بالجنس الالمانى ، فاقنع بالمصير الذى كتبه الله لذلك الشعب . وفى الوقت نفسه بدأ يكون كراهية حادة نحو اليهود واحتقارا شديدا للسلافيين Slavs وغير الآريين جميعا ، قرر أن اليهود ، أولا وقبل كل شىء جامعو أموال وانتهازيون دوليون ، وعادة مايكونون اشتراكيين أو شيوعيين بينما السلاف جنس أقل من الجنس الالمانى وليس لديهم ثقافة خاصة بهم .

كان لاختلاط هتلر بالديمقراطيين الاجتماعيين فى فينا أن جعله يمقت الدعاية الاشتراكية والشيعوية . ورغم أنه كان تلميذا مجدا فى خطط الحرب ، فقد لازمته كراهيته للماركسية طول حياته . ورغم شرايته للقراءة فليس هناك أى دليل على أنه فتح كتابه «كفاحى» . كما كان يبغض الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية أشد البغض . وبدأت هذه البغضاء عندما كان يحضر جلسات الرايخسرات Reichsrath النمساوى فى فينا ولاحظ ما اعتبره طرقا غير فعالة .

وأخيرا ، اذ لم يعد يحتمل استنشاق هواء العاصمة فينا

المقيت ، استقر في سنة ١٩١٢ في ميونيخ التي كان يطلق عليها «مدينة المانية تماما» . وبعد ذلك سره اندلاع نار الحرب العالمية الاولى ، فتقدم للتجنيد في كتيبة بافاروية . وقبل ان تضع الحرب أوزارها ، جرح وتسمم بالغازات السامة ، وزيں صدره مرتين بالنياشين ، ورفى الى رتبة جاویش . وحزن لهزيمة ألمانيا وثارت نائرة غضبه اذ اعتقد ان سبب هذه الهزيمة هم اليهود والماركسيون وانصار السلام . كما أغضبه وأثار حفيظته قيام حكومة ديمقراطية في ألمانيا بعد الحرب . عندئذ عزم على الاشتغال بالسياسة .

بدأ اشتغال هتلر بالسياسة بعد عودته الى ميونيخ . فعمل ، لوقت ما ، مخبرا سياسيا للجيش أو Wehrmacht (القوات المسلحة) . ودعى لان يكون عضوا في جماعة صغيرة تسمى «حزب العمال الألماني» فقبل به ، وسرعان ماغير اسم ذلك الحزب الى «حزب العمال الاشتراكي القومي الألماني» ، وهو نواة الحزب النازي Nazi . وبعد فترة قصيرة ، وبمناورة داخلية ، قبض هتلر على زمام ذلك التنظيم ، وأبطل العادة القديمة العديمة المعنى لاصدار قرارات الحزب بأخذ أصوات الاعضاء . فصمم برنامج الحزب وتطور بأمر هتلر ، لارضاء طبقات العمال ، واستأصل شأفة «القاتلين بالسلم الدوليين» وألقى الهيئات التشريعية ، وأقر مبدأ الطاعة العمياء للقائد Führer دون توجيه اية أسئلة .

واذ كان بذلك الحزب ٢٧٠٠٠ عضو في سنة ١٩٢٣ ، وتؤيد هتلر عصابة عسكرية تحت أمره القائد لوندورف Ludendorff بينما بدأت حكومة سترسمان Stresemann تترنج ، أدرك هتلر أن الفرصة سانحة ليقبض على السلطة . كان له أتباعه ، فدبر التمرد الشهير لحانة البيرة بوتش Putsch في ميونيخ ،

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، وقتل فيها ستة عشر من اتباع هتلر في الطريق ، وقبض على هتلر نفسه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، خفضت فيما بعد الى سنة واحدة .

بينما كان هتلر سجيناً في القلعة البافارية في لانزبرج Landsberg ، وجد متسعاً من الوقت ، لأول مرة ، ليكتب تاريخ حياته . والواقع أن كتاب «كفاحي» كان كتاباً شفويّاً أكثر منه مكتوباً . وقد قاسم هتلر سجنه تلميذه الوفي رودلف هيس Rudolph Hess ، فأملى هتلر الكتاب على هيس الذي كتبه على الآلة الكاتبة مباشرة ، وبدأ تم الجزء الأول . وإذا كان الهداؤه الى الستة عشر شهيداً الذين سقطوا صرعى في معركة تمرد ميونيخ ، كان العنوان الاصلى لذلك الكتاب هو «أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والحماقة والجبن» . وتم الجزء الثاني في سنة ١٩٢٦ في برختسجادين Berchtesgaden .

وصف أوتو توليسسخوس Otto Tolischus مادة كتاب «كفاحي» بأنه: « ١٠٪ تاريخ حياة المؤلف ، ٩٠٪ عقيدة ، ١٠٪ دعاية » - وهنا تحليل عادل . ويبدو من غير المصدق اليوم ، أن يستولى مثل هذا الكتاب الركيك المطول والرديء الكتابة والمليء بالمناقضات والتكرار ، على عواطف أمة ذات ثقافة عالية . بيد أن الموقف كان يسير على نظام موضوع . وهناك تعليقات لودويج لور Ludwig Lore عليه ، التي تنير كل غامض :

« كان الشعب الالمانى فى عام ١٩٣٣ فى حالة تأثر خطيرة بالنظام الفاشيستي . حاولوا ايجاد طريق للعودة الى الحياة العادية واحترام الذات النفسى ، فوجدوا الطريق مسدودا بالتعصب وسوء الفهم الاعمى . ولم تهتم الدول العظمى بشيء ما غير التعويضات . واثقتت احزاب العمال الالمانية ، التى كان من

الممكن أن تمتد يد العون ، الى ستة معسكرات متصارعة . حدث كل هذا امام خلفية ملونة بقومية عالية الضغط . وصل الشعب الالماني الى نقطة يبدو ان النظام والامن فيها كانا اهم من الحرية السياسية التي صارت مرادفة للعراك وسفك الدماء . فأدرك هتلر هذه الامور جيدا واستغلها لاغراضه تساعده مقدرته الهائلة على التنظيم والدعاية ، واستعداد كبار رجال الصناعة الالماني لتمويل حملاته . فما ان استقر حتى سهل الاحترام الفطرى الالماني للسلطة استقرار القيادة الفاشستية» .

ولحن خبلة «كفاحي» الذي يكرره المرة بعد المرة هو الجنس، ونقاء الجنس ، وتفوق الجنس وسيادته - رغم أن هتلر لم يعرف الجنس في اى موضع من كتابه ، ولكنه قال ان الجنس البشرى ينقسم الى ثلاث مجموعات هي : خالقو الثقافة الذين لهم مثال واحد هو الآريون أو النورديون (اى الالماني على وجه التحديد) ، وحاملو الثقافة مثل اليابانيين ، ومحطمو الثقافة مثل اليهود والزنوج . ويؤكد هتلر على ان الطبيعة لم تقصد قط أن يتساوى جميع الاجناس ، كما لايتساوى كل الافراد ، فقد خلق البعض متفوقين على البعض الآخر . ولما كان الالماني اقوى جنس في العالم، وجب ان يحكموا اجناس البشر الاقل منهم . وتبين بضع فقرات من كتاب «كفاحي» وجهة نظر هتلر في الاجناس الاقل .

كتب هتلر عن الامبراطورية النمساوية يقول :

« طردت تلك الامبراطورية بسبب تكتل الاجناس التي رايتها في العاصمة ، طردت بسبب كل ذلك الخليط من التشيكين والبولنديين والمجريين والروثانيين والصربيين والكرواتيين ، كما يوجد في كل مكان ذلك التطفل الابدى للجنس البشرى ، الا وهو : اليهود ، ومزيد من اليهود» .

وكتب عن الافريقيين :

« ... من الجنون الاجرامى أن يستمر الناس في تدريب نصف قرد بانفطرة الى أن يظنوا أنهم خلقوا منه محاميا ، بينما يبقى الملايين من افراد الجنس الاسمى ثقافة في مراكز لاتليق بهم على الاطلاق . . انها لخطيئة اى خطيئة ضد ارادة الخالق السرمدى ، اذا ترك المئات ومئات الالوف من كائناته المؤهوبة افضل المواهب ، يهلكون وسط مستنقع طبقة الفقراء ، بينما يدرب الهوتنتوت والزولو والكفيرللمهن العقلية .

أما الهنود القوميون : «فأدهشونى دائما ، فردا فردا ، بشرثرتهم وتعاضمهم دون سند حقيقى من الماضى . وأما البولنديون والتشيكيون واليهود والزنوج والآسيويون فجمعوا في قراب واحد على انهم غير جديرين بالجنسية الالمانية حتى ولو كانوا مولودين في المانيا ويتكلمون اللغة الالمانية» .

وخص فرنسا باحتقار خاص :

«... من ناحية الجنس ... انها تحرز تقدما عظيما في التحول الى زوج ، حتى ليمكننا أن نتحدث عن دولة افريقية نشأت فوق أرض اوروبية . لايمكن مقارنة السياسة الاستعمارية لفرنسا الحالية بسياسة المانيا في الماضى . واذا استمرت فرنسا في نمط تقدمها الحالى لمدة ثلثمائة عام ، غاصت آخر بقية من الدم الفرنسى في الدولة الخلاسية الملونة المكونة من الافريقيين والاوروبيين» .

يبلغ تعصب هتلر للجنس أوجه في الهجوم الجنونى على اليهود ، كما في هذه الفقرة ، مثلا :

« جميع أفكار اليهود في كل هذا واضحة : بلشفة المانيا - أى استئصال الأذكىاء القوميين الباحثين عن اليهود - ليصير بالامكان جعل طبقة العمال الالمان تترجح تحت نير جمع اليهود

للاموال . لاتتخذ هذه البلشفة الا كاجراء اولى لمدر هذه الميول اليهودية لفرز العالم ، الى مسافة ابعد . وكما حدث كثيرا فى التاريخ ، فان المانيا هى المحور العظيم فى النضال الجبار . فاذا وقع شعبنا ودولتنا فريسة لأولئك الطفاة اليهود الشرهين والمتعطشين للدماء فى الأمم ، فان الأرض كلها ستقع فى قبضة ذلك الاخطبوط . واذا خلصت المانيا نفسها من قبضته ، اعتبر ذلك الخطر الاعظم «على الامم ، محطما أمام العالم قاطبة . . .»

وعلى العموم ، سيحارب اليهود داخل مختلف الهيئات القومية ، بتلك الاسلحة التى تبدو ، تبعا لعقلية تلك الامم المعروفة ، اعظم فاعلية وتبشر بأعظم نجاح . ففى هيئتنا القومية الممزقة من حيث الدم ، تنخر تلك الافكار العالمية التصورية الناشئة من هذه الحقيقة ، أى الميول الدولية التى تستخدم فى نضالها القوة . . . حتى تهدم دولة وراء اخرى وتحولها الى كومة من الانقاض يمكنها ان تبنى فوقها عظمة الامبراطورية اليهودية الخالدة» .

وللاحتفاظ بالنقاء الفطرى للآريين ، أى الجنس الالماني السيد ، يجب ألا يختلط به جنس اقل . واكد هتلر ان انحطاط الامم العظيمة فى الزمن الماضى قد نتج عن اختلاط الدم وفقدان نقاء الجنس . ولتحاشى مثل هذه الكارثة ، من واجب الدولة أن تتدخل : وحتى اذا احتج الجبناء والضعفاء عن غزو حقوقهم ، وجب على الدولة أن «تحافظ على بقاء دم الامة نقيا حتى تصل البشرية الى ذروة تقدمها . ينبغى للدولة أن تنتشل الزواج من هوة عار الجنس وتقده كوسيلة لانتاج اشباه آلهة ، بدلا من خلق كائنات بين الانسان والقرد» .

كان هتلر يؤمن فى تعصب بالتفوق الفطرى للجنس الآرى على سائر الاجناس ، فأخذ يعلن أنه من واجب الجنس السيد وامتيازته ، أن يهزم الاجناس الاخرى . ويستغلها ويطردها أو

يبيدها من أجل مصلحته هو . وبما أن ألمانيا مزدحمة بالاهلين وتحتاج الى مزيد من الارض ليعيش فيها قومها ، فمن حقها بصفتها القوة النوردية العظمى ، أن تستولى على أرض سلافية، فتتزع السلاف من أرضها وتضع فيها الالمان . وبذا ، سوف تنتفع البشرية كلها ، على مر العصور الطويلة ، من عادة امتداد الجنس الاعلى واتحاد الشعوب الالمانية المشتتة ، تحت حكم واحد «لن يضمن لأمة حرية البقاء الا مساحة واسعة مناسبة . . فاما أن تكون ألمانيا قوة عالمية ، واما ألا تكون هناك ألمانيا اطلاقا » .

اما الامتداد الشاسع الذى يصوره هتلر فيتم أساسا على حساب روسيا . نظر الى الشرق بنهم وتطلع الى مايمكن تنفيذه: «فاذا ضمت جبال أورال بموادها الخام الهائلة ، وأوكرانيا ذات حقول القمح التى يخطئها القياس ، الى حدود ألمانيا ، كان ذلك أنسب . » فمن وأجب ألمانيا انقاذ الشعب الروسى من القيادة البولشفيك . واستطرد يقول : «اذا تحدثنا عن الارض فى أوروبا اليوم ، فلن يطراً على بالنا ، بصفة مبدئية غير روسيا وولاياتها الواقعة على الحدود . يبدو أن الحظ هنا يشير علينا ، فبتسليم روسيا الى البلشفية ، نسلب الامة الروسية ذلك الذكاء الذى سبق أن حقق وضمن بقاءها كدولة . . نضجت الامبراطورية العظمى فى الشرق ليصيبها الانهيار » .

كذلك قال هتلر ، القوة هى تحقيق الغزو . . . ما من شعب على ظهر البسيطة يملك شيئا مثل ياردة مربعة من الارض أكثر من رغبة اعلى أو حق أسمى . . فحدود الدول يصنعها الانسان ويغيرها الانسان . فاذا نجحت أمة فى الاستيلاء على قدر من الارض لا حق لها فيه ، فلا يكون هذا سببا فى التزام أمة أعلى منها بأن تعترف به الى الابد . فعلى أكثر تقدير ، يبرهن هذا على قوة الغازى وضعف الامم الاخرى . وفى هذه الحالة يكون الحق للقوة وحدها .

اعترف هتلر بأنه كانت هناك حلول أخرى غير التوسع في رقعة الأرض لمعالجة الزيادة السريعة في عدد سكان ألمانيا . ومن هذه الحلول تحديد النسل ، وهذا مرفوض لأنه لا يتفق ونظرية الجنس السيد . وهناك حل آخر لجأ إليه حكام ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وهو التوسع في إنتاج المصنوعات للأسواق الخارجية ، أي زيادة التصنيع . وهذا حل لا يعجب هتلر لأنه أراد أن تغذى ألمانيا نفسها بنفسها وتعتمد على الاكتفاء الذاتي . وزيادة على ذلك فقد لقي معارضة عنيفة لأنه يخلق طبقة عمال ريفيين ضخمة نتيجة للنظام الصناعي الضخم . والحل الثالث هو زيادة إنتاج الأرض الموجودة حالياً . ولكن هتلر اعترض على هذا بقوله انه حل جزئي ومؤقت ، واستنتج ان الحل او العلاج الحقيقي الوحيد هو أن تستولي ألمانيا على أراض جديدة وراء الحدود الحالية ، وبذا يتمكن الكثير من الألمان أن يعيشوا عليها .

وتلخص الفقرة التالية ملخص أهداف هتلر البعيدة المدى فيما يختص بعدد سكان الأرض .

... لدينا الآن ٨٠ مليون ألماني في أوروبا ! وهذه السياسة الخارجية لتكون صحيحة إلا إذا كان عدد السكان بعد حوالي مائة عام ٢٥٠ مليون ألماني في هذه القارة ، ولا يعيشون محشورين كعمال مصانع من أجل بقية سكان العالم ، وإنما كفلاحين وعمال يضمن كل منهم معاش الآخر بعمله .

وبالاختصار ، تنبأ هتلر بأن سكان ألمانيا سيكونون أكثر من ثلاثة أضعاف سكانها الحاليين ، في المائة سنة التالية ، وأن كل شخص سيملك رقعة من الأرض ضعف ما كان يملك الفرد من قبل . كذلك راقت هتلر فكرة السكان ذوي الرقعة الفسيحة من الأرض لأسباب «جغرافية عسكرية» ، إذ تكون أقل سهولة على العدو (ظلال ماكندر هوشوفر *Shades of Mackinder Haushofer*)

ولكى يحقق هتلر الاهداف التى رسمها طموحه المحلق عالياً، اقترح استخدام ثلاث طرق . الدعاية والدبلوماسية والقوة ... لم يكشف المؤلف عن نفسه وعن خططه فى أى موضع من كتاب «كفاحى» اكثر مما كشف فى مناقشته لطرق الدعاية التى اعتقد انها احد اسلحة النازى الفظيعة والاعظم فعالية . وقال ماكس لرنر Max Lerner عن هتلر : « ربما كان أعظم استاذ فى الدعاية والتنظيم ، فى التاريخ الحديث » . ثم استطرد يقول : «ولكى نجد له ندا ، يجب أن يعود المرء الى لويالا Loyala واليسوعيين» . ولكى يصل هتلر بفن الدعاية الى درجة الكمال ، درس طرق الماركسيين فى الدعاية ، وتنظيم وطرق الكنيسة الكاثوليكية ، والدعاية البريطانية للحرب العالمية الاولى ، والاعلان الأمريكى ، وعلم النفس لفرويد Freud ، فكتب يقول :

«ليست وظيفة الدعاية ... أن تزن وتتأمل فى حقوق مختلف الناس ، ولكن لتؤكد الحق الوحيد الذى أعدته لتناقضه وليس عملها القيام بدراسة موضوعية للحقيقة طالما كانت فى صالح العدو ، ثم تضعها أمام الجماهير بعدالة علمية ، وانما عملها هو خدمة حقوقنا نحن ، دائماً وبغير تردد . كان من الخطأ التام مناقشة جرائم الحرب من وجهة النظر التى لايمكن أن تكون المانيا وحدها هى المسؤولة عن اندلاع نار تلك الكارثة . ولكن من الصواب وضع عبء اللوم كله على أكتاف العدو ، حتى اذا كان هذا لايتفق والوقائع الحقيقية ، كما حدث فعلاً .. ليس الغرض من الدعاية تزويد الشبان المتحمسين بما يلهبهم ، ويقتنعهم ، وما أعنيه هو اقناع الجماهير» .

واكد هتلر على أهمية التركيز والتكرار فقال :

« ان قبول الجماهير لما يسمعونه محدود جدا ، وذكاءهم بسيط ، ولكن قدرتهم على النسيان هائلة . ونتيجة لهذه الحقائق

يجب أن تكون كل الدعاية الفعالة قاصرة على بضع نقاط قليلة ، ويجب أن تضرب على وتر هذه الصيحات باستمرار حتى يفهم الجمهور ماتريد منه أن يفهمه بصيحتك ، وبمجرد الانتهاء من صيحتك هذه ومحاولة أن تكون متعدد النواحي ، يخبو الاثر لان الحشود لاتستطيع هضم المواد المقدمة اليها ولا أن تحتفظ بها . وبهذه الطريقة تضعف النتيجة حتى تنمحي تماما في النهاية» .

يتضح أيمان هتلر بالدعاية باعتراؤه أنه «يمكن بالدعاية اللبقة والقاطعة جعل الجمهور يؤمن بأن الفردوس هو الجحيم ، وأن الجحيم هو الفردوس» . فيجب ان تلائم الدعاية ، بأعظم طاقتها ، أقل ذكاء محدود . «وتهدف دائما وأساسا الى العواطف، وقليلًا جدا الى عقل الانسان المناسب» . لايجب على الدعاية أن «تعمل بالدقة العلمية ، مثلما يجب على ملصقات الجوازات ألا تعمل بفن . . . فلما كانت جموع الجماهير التي تصل اليها ضخمة ، وجب أن يكون مستوى ذكائهم منخفضًا» .

كذلك مما يفيد الدعاية بعض حيل سيكولوجية معينة . فمثلا يجب الا يحاول الانسان ، في الصباح ، تحويل فكرالجمهور الى وجهة نظر مخالفة . فالانوار الخافتة مفيدة ، وفي المساء عندما يكون الناس متعبين وانخفضت قدرتهم على المقاومة . فانه «يسهل نسبيا الحصول على استجابتهم العاطفية الكاملة» . وهناك أداة قوية أخرى وهى طلب اقتراح الجماهير عندما تكون لدى الرعاع فرصة الاشتراك في المواضيع والمظاهرات المتنوعة التي هى من خصائص النظام النازى . وكما عبر عن ذلك هتلر :

« . . . مظاهرات الجموع الضخمة التى يسير فيها مئات الالوف من الرجال لتثبت في الفرد الصغير الحقيير روح الزهو بأنه رغم كونه دودة حقيرة ، فهو جزء من تنين عملاق تحرق

أنفاسه النارية ، في يوم ما ، تلك الطبقة المتوسطة البغيضة ،
وبدا تحتفل دكتاتورية العمال بانتصارها النهائي» .

يبدى هتلر ، ثانية ، اقصى احتقار للجموع ، ثم ثالثة ،
وهكذا ، في مثل هذه العبارات : «قطع من الاغنام ذوات الرعوس
الخواوية» ، «نجسد الغباوة» وفي اعتقاده الراسخ ، الذى يعبر عنه
كثيرا ، بأن البشرية في حالة الجموع عبارة عن حشد كسلان جبان
وانثوى وعاطفى وغير جدير بالتفكير المعقول .

وأخر ما في طرق الدعاية الهتلرية ، مبدأ الكذبة الكبرى ،
فيقول : «هذه النظرية صحيحة تماما ، فان عظم الكذبة عامل
قوى يجعل الناس يصدقونها . . . فمع السداجة البدائية للجموع
تكون الكذبة العظمى أكثر تأثيرا من الكذبة الصغيرة ، لانهم كثيرا
ما يكذبون في امور تافهة ، ولكنهم يخجلون جدا من النطق بكذبة
كبيرة ضخمة . اذن فلن تشبه الجموع الكبيرة في كذبة جسيمة،
ولاستطيع تلك الجموع اطلاقا أن تكون لها الوقاحة أن تفند
الحقيقة» الى مثل ذلك الحد» . وبالاختصار كلما عظمت الكذبة
كانت أكثر تصديقا لدى الجماهير .

وهناك مبدأ دعاية عظيم آخر وهو مبدأ الشيطان الفرد .
لاتريك الجمهور بتقديم عدد كبير من الاعداء وتطلب منهم أن
يمقتوهم في وقت واحد . اقتصر على خصم واحد ، وركز كراهية
الجموع على هذا العدو . كان اليهود في عرف هتلر هم الاعداء
العالميون . فبغض النظر عما اذا كان يتحدث ضد الديمقراطية أو
الماركسية أو معاهدة فرساي أو فرنسا أو أى هدف آخر ، فانه
يذكر اليهود دائما بالتآمر والتخطيط ويحاولون بعقوبة شيطانية
أن يهدموا المانيا ويحطموا الثقافة الآرية . ومن أمثلة هذا ، تلك
الصيحة الهستيرية التى يقول فيها :

« ... ان فرنسا اكبر عدو فظيع ، وستبقى كذلك . فهذا الشعب الذى يتحول باطراد الى زنوج ، ويوطد روابطه بأهداف السيادة اليهودية على العالم ، خطر داهم على بقاء الجنس الابيض فى أوروبا . لان التلوث بالدم الزنجى على نهر الراين فى قلب أوروبا يحافظ على التعطش السادى للانتقام من هذا العدو الوراى لشعبنا مثل حساب اليهود الشديد البرودة ، وهكذا يبدأ فى تلويث القارة الاوروبية فى قلبها نفسه ، ويجرد الجنس الابيض من اسس بقاء الملكية عن طريق العدوى بالانسانية الاقل» .

وقال هتلر : « سهل عمل الدعاية باشراف الحكومة على التعليم . فالتعليم الكثير فى الكتب خطأ ، ويجب ان يحتل التعليم البدنى والصحة البدنية المقام الاول . وثانيا تنمية الشخصية ولاسيما بالفضائل العسكرية والطاعة والوفاء وقوة الإرادة وضبط النفس والقدرة على التضحية ، والزهو بالمسؤولية . وفى المقام الثالث يأتى النشاط الذهنى . ويجب ان يكون تعليم البنات اعدادا للامومة . كان هتلر يشمئز من فكرة تعليم الجميع ووصفه بأنه سم مفكك ابتدعته الاباحية لتحطيمها هى نفسها . فلكل طبقة ولكل قسم من كل طبقة تعليم واحد ممكن» . وكان يعتقد ان جموع الشعب العظيم يجب ان تتمتع بنعمة الامية .

يجب ان يكون تعليم المجموعة الاخيرة قاصرا على «بث الافكار العامة التى تنقش بالترار فى قلوب الناس وذاكرتهم» . وليكن المبدأ الرائد هو ان الطفل ملك للدولة ، والهدف الوحيد من التعليم هو تدريب آلات للدولة .

تتمشى آراء هتلر فى التعليم الشعبى مع آرائه فى الديمقراطية عموما . ففى كل مناسبة ، كان يسخر من عدم صلاحية الدولة الديمقراطية :

« الديمقراطية الغربية اليوم مقدمة للماركسية التي بدونها لا يمكن التفكير فيها . انها تمد الوباء العالمى بالزرعة التي تستطيع جراثيمها ان تنتشر فيها . وقد خلق مبدا البرلمان ، في اقصى صوره ، «شدوذا من الزوائد والنار» ، كما يحزننا ان نقول ، تبدو النار لى على الفور ، انها انطفاآت . . . لان هناك شيئا يجب الا ننساه ، وفي هذا ايضا ، لا يمكن ان تحمل الغالبية محل الفرد ، ليس ممثلا للغباء فحسب ، بل وللجين ايضا . وماعاد مائة رأس خاو تكون رجلا عاقلا واحدا ، ولاياتى قرار بطولى من مائة جبان» .

راى هتلر ان الديمقراطية هي «النظرية الخداعة التي سيلوح بها اليهود - اى النظرية القائلة بان جميع الناس خلقوا متساوين ، بينما اى مذهب ذى اجماع عالمى وحقوق متساوية ، ضار ومدمر » .

استبدل هتلر مبدا الديمقراطية بالمبدا الرائد . ركز على الجموع التي يتوقع منها الطاعة العمياء دون توجيه اسئلة . كان الفوهرر فوق الجميع ، يتحمل مسؤولية كل مايعمل واكل مالم يستطع عمله .

واذ رسم هتار خطته لالمانيا وللعالم في كتابه «كفاحى» ، تمسك به تماما الا في انحراف واحد هام ، هو الميثاق النازى السوفيتى لعام ١٩٣٩ . كان يشق عليه ان يستسيغ الاتفاق الروسى ، كما يتضح من هذا الحديث في «كفاحى» :

«لانتس ان حكام روسيا اليوم مجرمون عاديون ملوثون بالدماء . انهم حثالة البشرية الذين حبتهم الظروف فاكتسحوا دولة عظمى في ساعة مأساة ، ققتلوا وابدوا االوفا من روادها الاذكيااء في وحشية متعظمة للدماء . . . »

بما ان هنار اوضح نواياه بجلاء في «كفاخي» قبل ان يتبوأ مركز الحكم في المانيا ، وقبل بدء الحرب العالمية الثانية باكثر من عتر سنوات . فلماذا لم يهتم سياسيو العالم بتحذيراته ؟ يرجع بعض تجاهلهم آياد الى جو الصلح العام والتفكير المفعم بالآمال والرغبة في السلم السائد وقتذاك بأى ثمن . وهناك عامل آخر هو القصة المدهشة للرقابة الدولية . ولما رفض هتلر التصريح بترجمة كاملة لكتابه «كفاخي» ، لم تتوفر باللغة الانجليزية الا طبعة معدلة حذف منها ماأراد حذفه ، حتى سنة ١٩٣٩ . وفي تلك السنة والحرب وشيكة الاندلاع ، قام ناشران أمريكيان احدهما يحمل موافقة هتلر ، والثاني لايجمل اية موافقة ، قاما باصدار طبعتين لم تتدخل فيهما الرقابة . وفي فرنسا ، في سنة ١٩٣٦ ، عن طريق ناشر هتلر ، أقام هتلر دعوى لنشر ترجمة كاملة دون تصريح منه ، الذى فيه مخالفة لقوانين حقوق التأليف العالمية . كما نشرت في لندن طبعة مكثفة حذفت فيها معظم الفقرات المهاجمة لفرنسا ، كما حذف فيها قسم يحيد الحرب ، وبذا خفت من حدة نعمة الكتاب ليصير زائفا ومضللا .

في تلك الاثناء كانت ملايين النسخ من كتاب «كفاخي» الكامل تباع وتتداول في المانيا نفسها . وقدمت نسخة منه هدية لكل عروسين جديدين ، بينما كان المفروض في كل عضو بالحزب النازى وكل موظف مدنى أن يكون لديه نسخة منه . والطبعات التى ظهرت في المانيا بعد ذلك حذفت الهجوم على روسيا وفرنسا لاختفاء أغراض هتلر وتهدةة الاعداء الاقوياء الى حالة نوم .

إذا نظرالى كتاب «كفاخي» من حيث الماضى ، يقرر المؤرخون أن هتلر لم يفهم شيئا في التاريخ . ويقول علماء الاجناس البشرية، ان آراء هتلر في الاجناس هراء ، ويقول علماء التربية ان آراءه ونظرياته عن التعليم ترجع كلها الى العصور الوسطى ، وهى في

جملتها رجعية . ويحتج علماء السياسة على مذاهبه الحكومية
السلطوية وسوء تصوره للديمقراطية ، بينما يقرر خبراء الادب
انه لا يعرف كيف يكتب فقرة أو ينظم بابا . ولخص ويجرت
Weigert هذا بقوله :

كان هتلر نصف المتعلم خليطا من عدة تأثيرات : فن ماكيافيللي
في ادارة شؤون الدولة ادارة تتنافى مع الاخلاق ، والقومية
والرومانتيكية التصوفية لواجنر Wagner ، والتطور العضوى
لداروين ، والتعصب الزائد لجنس بعينه لجوينو Gobineau
وهاوستون ستوارت تشميرلن Houston Stewart Chamberlain
والمركب المسيحي لفيخت Fichte وهيغل Hegel ،
والزهو الحربى الطنان لتريتخك Treitechke وبرنهاردى
Bernhardi ، والتأمر المالى للنيل البروسى المنبوذ ...
أما هوشوفر فكان حلقة اتحاد بين النظريات والعمل ورغم كل
هذه العيوب الواضحة، فان كتاب «كفاحى» كما وصفه أحد النقاد
اللاذعين واسمه هندريك وليم فان اون Hendrik Willen van Loon

« هو احدى الوثائق التاريخية الخارقة للعصر كله ، فيضم
سداجة جان جاك روسو ، مع الغضب الجنونى لأحد أنبياء العهد
القديم » . واطلق عليه نورمان كزنز Norman Cousins :
«هو اعظم كتب القرن العشرين تأثيرا ... ولكل كلمة في «كفاحى»
يجب أن يفقد ١٢٥ نفسا ولكل صفحة منه ٧٠٠ نفس ، ولكل
باب اكثر من ٢٠٠٠٠٠ نفس» . وبالطبع انبعثت قوته من كونه
انجيلا سياسيا للشعب الالمانى ، وقاد سياسة الرايخ الثالث
من سنة ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

من سوء حظ العالم أن آراء هتلر لم تمت معه فمازال أتباعها

كثيرين في ألمانيا ، بينما استعارت الحكومات الشيوعية كثيرا من تلك الآراء وما فتئت تستعملها على نطاق واسع . وسيظل الدكتاتوريون في كل مكان يجدون مصدر مادة أولية لاغراضهم الشريرة في كتاب «كفاحي» بنفس الطريقة التي ظلوا ، في القرون الأربعة الماضية ، يعملون بآراء ماكيافيلي .

دنيا العلوم

١١ - الانقلاب السماوى

نيقولاوس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus

انقلاب فى الافلاك السماوية

منذ العصور البدائية والانسان يدهش لمنظر الاجسام السماوية - الشمس والقمر والكواكب والنجوم وحركاتها الدائبة . ولم يكن شروق الشمس وغروبها ، وتزايد رفعة القمر وتناقصها ، وتعاقب الفصول وتقدم الكواكب وتأخرها ، لم تكن هذه كلها حقائق ملحوظة ، بل كانت لها امور عديدة تؤثر على البشر وعلى حياتهم اليومية . اذن فليس من الغريب ان تنشأ حول الظواهر السماوية اعداد ضخمة من الاساطير والديانات .

ويتقدم الحضارة حاول الفلاسفة تفسير حركة الاجسام السماوية بمصطلحات معقولة . واكثر قدامى العلماء والمفكرين تقدما فيما يختص بأمور علم الفلك ، هم الاغارقة ابتداء من فيثاغورث Pythagoras فى القرن الخامس ، وارىسطو Aristotle فى القرن الرابع قبل الميلاد . وكان كلاوديوس

بطليموس Claudius Ptolomy المصرى الذى كان يعيش فى الاسكندرية ، بتنظيم وتبويب الدراسة الكلاسيكية الخاصة به وبالعصور السابقة فى مجموعة من النظريات السهلة الفهم . فوضع النظام البطليموسى الذى اطلق عليه « الأعمش Almagest » والذى سيطر على عقول الناس لمدة حوالى ١٥٠٠ سنة ، واعتبره العالم الفكرة الحقيقية عن الكون .

بنيت نظرية بطليموس على فكرة أن الارض كتلة ثابتة خاملة عديمة الحركة ، تقع فى وسط الكون وتدور حولها جميع الاجرام السماوية ومنها الشمس والنجوم الثابتة . كان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الأرض مركز مجموعة من الكرات شدت اليها الكواكب شدا وثيقا . أما النجوم فكانت مشدودة الى كرة أخرى خارج هذه المجموعة ، وبدور الجميع دورة واحدة كل أربع وعشرين ساعة . فسرت هذه الافكار المعقدة عن الكواكب ، بالدوران حول محيط دائرة عظمى ، بينما تدور كرات الكواكب فى الاتجاه المضاد لدائرة النجوم ، الا أن هناك قوة أعظم تجذبها . واعتبر زحل أبعد الكواكب عنا وأقربها الى فضاء النجوم ، ولذا يستغرق مدة أطول لاتمام دورته . ولما كان القمر أقرب الكواكب الى المركز ، فإنه يتم دورته فى أقصر وقت . ويصف روزين Rosen الفكرة البطليموسية فى هذه العبارات :

«يقول المذهب المتوارث ان الكواكب التى تدور نحو الشرق فى معظم الاوقات ، تبطئ فى دورانها بين وقت وآخر حتى تقف تماما ، ثم تعكس اتجاه دورانها مرة أخرى ، وتستأنف رحلتها نحو الشرق ، وتكرر دورات التغير بصفة لا نهائية» .

وهكذا كان الكون ، حسب نظريته ، فضاء مغلقا يحده غلاف كروى . ولم يكن هناك شىء بعد ذلك الكون .

ساعد عاملان على القبول العام لنظريات بطليموس ، كلاهما

من تفكير الطبيعة البشرية : فأولا : اعتمد هذا النظام على المظاهر الطبيعية ، اعتمد على الأشياء كما يراها أى شخص بنظرة عابرة .
وثانيا : أشيعت هذه فضول الانسان ، فما امتع ان يعتقد المرء ان الارض مركز الكون ، وان الكواكب والنجوم تدور حولها . فيبدو ان الكون كله مصنوع من أجل الانسان .

بقى هذا النظام الجميل سليما في أساسه حتى مجيء العصر العظيم ، عصر اليقظة الذهبية في أوروبا المسمى بالنهضة . وكان تحطيم ذلك النظام من عمل نيقولاوس كوبرنيكوس «الكاهن والمصور والشاعر والطبيب . وهو واحد من «الرجال العالميين» ، اشتهرت من أجله النهضة .

كانت فترة السبعين سنة لحياة كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) من اعظم الفترات اثارة ومغامرة في تاريخ أوروبا . ففيها اكتشف كولمبوس قارات جديدة ، وفيها أبحر ماجلان حول الأرض ، وقام فاسكودي جاما بأولى الرحلات البحرية الى الهند . واعلن مارتن لوتر Martin Luther اصلاحه البروتستانتي وخلق ميشيل انجلو Michelangelo عالما جديدا من الفن ، ووضع باراكلسوس Paracelsus وفيصاليوس Vesalius أساس التطبيب الحديث ، وازدهر ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci « ذلك النابغة العالمى العظيم » كمصور ونحات ومهندس ومعماري وعالم طبيعى وأستاذ في علم الاحياء وفيلسوف . ياله من عصر موات لذهن المعى آخر هو كوبرنيكوس ليقدّم للعالم نظاما جديدا للكون .

ولد نيقولاوس كوبرنيكوس على شاطئ نهر الفستولا Vistula ببلدة تور Torun في بولندا ، وهي بلدة تابعة لرابطة التجارة Hanseatic League . وكان عمه لوكاس وانزلرود Lucas Watzelrode ، الذى صار فيما بعد أسقفا حاكما لمقاطعة

ارميلاند Ermeland ، ذا تأثير كبير في مستقبل حياته الأولى . بدأ تعليم نيقولاوس طويلا ومتنوعا بالمدرسة الاعدادية في تورون ، ثم في سنة ١٤٩١ بجامعة كراكاو Krakow . ذهب الى هذا المعهد بناء على شهرته كأحد المراكز الأوروبية الأولى للرياضيات والفلك . وبعد ذلك بخمس سنوات ، سافر الى إيطاليا ليكمل دراسته في بولونيا Bologna في جامعة من أقدم وأشهر الجامعات الأوروبية . فشغلت دراسة القانون الكنسي والفلك وقته . ثم أمضى سنة في روما يلقي المحاضرات في الرياضيات وعلم الفلك . ومكث جوالى خمس سنوات في بادوا Padua و فيرارا Ferrara يدرس الطب وقانون الكنيسة ، وبدا أتم منهجه العلمى وتسلم الدكتوراه في القانون الكنسي من فيرارا سنة ١٥٠٣ .

عين كوبرنيكون ، بوساطة عمه ، رئيسا قانونيا في كنيسة فرونبورج Frauenburg حيث قضى السبع والثلاثين سنة الباقية من عمره بعد عودته من إيطاليا في سنة ١٥٠٦ .

كانت واجبات كوبر نيكوس الكنسية متعددة النواحي فقام بدور طبي فعال بين زملائه بالكنيسة ، وكذلك للشعب ، وساعد في الدفاع عن مدينته في الحرب بين البولنديين والبروسيين والفرسان التيوتونيك Teutonic واشترك في مؤتمر الصلح الذى تبع ذلك ، وقدم مشورته لإصلاح سك النقود والأوراق النقدية وأشرف على الاجزاء النائية من الدوقية . ولكن يرفه عن نفسه قام بالتصوير ، وترجم الشعر الاغريقي الى اللغة اللاتينية .

كان علم الفلك وقتئذ احد الأنشطة الكثيرة التى مارسها كوبر نيكوس المتعبد الميول والمعلومات . ولكنه صار تدريجيا متعته الأولى بعد أن طور آراءه عن الظواهر الفلكية - تلك الآراء

التي من الجلى أنها جاءت من منذ زمن مبكر في حياته ، وقواها عنده
دراسته في كراكاو وفي ايطاليا - فقام بأبحاثه منفردا في هدوء دون
مساعدة أو استشارة احد . اتخذ لنفسه مرصدا من سور واق
مبنى حول الكنيسة .

كانت الادوات الفلكية التي استطاع كوبرنيكوس الحصول
عليها بدائية وغير دقيقة . باشر عمله ذلك قبل اختراع التلسكوب
بحوالى قرن . فاستخدم لاغراض القياسات مزولة وجهاز ربعية
(عبارة عن قطعة خشبية ذات ثلاثة جوانب) صنعه بنفسه لقياس
زوايا ارتفاع النجوم والكواكب ، كما اتخذ اسطرلابا من كرة داخل
حلقة عمودية وأخرى أفقية . وعلاوة على ذلك ، كان الجو غير
ملائم للارصاد الفلكية . فمجاورته لبحر البلطيق والانهار الموجودة
هناك أحدثت الضباب والسحب وكانت الايام والليالي الكاملة
الصحو ، نادرة . ورغم هذا ، ظل كوبرنيكوس يعمل في كل فرصة
ممكنة ، سنة بعد أخرى ، في حساباته الفلكية .

كانت النظرية الثورية التي حاول كوبرنيكوس اثبات صحتها
أو خطئها ، مناقضة تماما للنظام البطليموسى الذى ظل مدة طويلة
يحظى بالاحترام والتقدير . كانت تلك النظرية ، باختصار ، هى
أن الارض ليست ثابتة وانما تدور حول محورها مرة في كل ٢٤
ساعة ، وتدور حول الشمس مرة كل سنة . كانت تلك الفكرة
غريبة على القرن السادس عشر حتى ان كوبرنيكوس لم يجرؤ
على تقديمها الا بعد اقتناعه تماما بأن لديه من المعلومات ما لا يمكن
دحضه ومن ثم مضت ثلاثون سنة قبل اظهار نظرية كوبرنيكوس
الى العالم .

والواقع أن بعض قدامى الفلكيين الاغريق اقترحوا أن عالمنا
قد يكون عالما مركزه الشمس بدلا من أن تكون الارض مركز الكون .
فمثلا علل اريستارخوس Aristarchus (كوبرنيكوس

القديم) في القرن الثالث قبل الميلاد ، شروق الشمس وغروبها ، بضرورة دوران الأرض حول محورها . غير أن هذا الفرض وأشباهه من فروض الفلكيين الآخرين ذوى الآراء المماثلة ، قد نبذها أريسطو وبطليموس من أجل نظرية الكون الذى مركزه الأرض . وقد عرف كوبرنيكوس هذه النظريات المبكرة من قراءته للادب الكلاسيكى ، وربما أوحى إليه باعادة فحص هذه المسألة . واعتقد كوبرنيكوس أن اريستارخوس ، الذى عاش قبله بمدة ١٨٠٠ سنة ، قدم تفسيراً لحركات الاجسام السماوية أبسط كثيراً مما فى النظام البطليموسى المعقد .

ربما كتب كوبرنيكوس شرحاً عاماً موجزاً لنظريته الجديدة فى عصر مبكر قد يرجع الى عام ١٥١٠ . واذ كان عنوان ذلك المقال هو « التعليق الصغير Commentariolus » ، فلم ينشر ابان حياته ، غير أن عدداً من النسخ الخطية تداوله طلبة علم الفلك ولا تزال لدينا نسختان خطيتان ، على الأقل ، باقيتين الى الآن . وأشار كوبرنيكوس ، فى «التعليق الصغير» الى أنه بدأ ابحاثه لما بدا له نظريات بطليموس عن الكون معقدة جداً وغير معقولة على الإطلاق ، ولم تقدم تفسيراً مقبولاً للظواهر السماوية . والنتيجة الرئيسية التى توصل اليها كوبرنيكوس تقول : ليست الأرض مركز المجموعة الشمسية ، ولكنها فقط مركز مدار القمر ، وأن جميع الكواكب تدور حول الشمس . وقد كان ذلك «التعليق الصغير» مرحلة واضحة فى تطور آراء ذلك الفلكى العظيم .

من المعلوم تماماً ، أن أروع مؤلف لكوبرنيكوس ، وهو الذى ظل يعمل فيه جهاداً مدة ثلاثين سنة ، ماكان له أن يصل الى المطبعة ، وبالتالي يفقد ، لولا جهود عالم المانى شاب . ففى صيف عام ١٥٣٩ جاء الى فراونبورج لزيارة كوبرنيكوس أستاذ للرياضيات من جامعة وتنبرج ، ويبلغ من العمر خمسا وعشرين

سنه ، واسمة جورج يواقيم رتيكوس George Joachim Rheticus فاذا جذبته شهرة كوبرنيكوس المطردة النمو ، جاء ليتحقق اولا من القدر الحقيقي لسمعته . كان يتوقع البقاء معه لبضعة اسابيع فحسب ، ولكن كوبرنيكوس رحب به ترحيبا حارا جعله يمكث معه اكثر من سنتين . اقتنع رتيكوس بأن مضيفه نابغة من الطراز الاول . ظل يدرس مخطوطات كوبرنيكوس لمدة ثلاثة اشهر ، وناقشها مع مؤلفها . ثم كتب رتيكوس تقريرا عن آراء كوبرنيكوس وارسله في صورة خطاب الى استاذة السابق يوحنا سكونر Johann Schöner في نورمبرج Nuremberg فطبع ذلك الخطاب في دانزج Danzig سنة ١٥٤٠ باسم «التقرير الاول Narratio Prema . كان ذلك « التقرير الأول » لكاتبه رتيكوس ، اول حقيقة نشرت عن نظريات العالم الفلكي البولندي التي هزت العالم . والواقع ان ذلك الكتيب تناول بالتفصيل جزءا فقط من نظرية كوبرنيكوس ، وهو الجزء الخاص بحركات الارض . وتوقع رتيكوس ان يتبع تقريره الاول بتقارير أخرى ، الا انه لم تكن ثمة حاجة اطلاقا الى هذه التقارير . وأبدى اعجابه الذي كادا يبلغ حد التملق بالثناء الحار الذي أضفاه طوال نصوص ذلك المقال على «سيده الدكتور» .

الى هذا الحد تردد كوبرنيكوس تماما في نشر مؤلفه الكامل . كان من عاداته الوصول بأبحاثه الى درجة الكمال . وشعر بضرورة التأكد واعادة التأكد من كل ملاحظة . وتمدنا النسخة الخطبة الاصلية التي اكتشفت في براغ Prague في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضياعها مدة ثلثمائة عام ، تمدنا بدليل على ست مراجعات مفصلة . وبالإضافة الى هذه الترددات ، قد يكون كوبرنيكوس قد عاقه عدم موافقة الكنيسة القوي ، وجعل الإصلاح البروتستانتي والنضوج الذهني للنهضة ، الدوائر الدينية تشك في نظرية دوران الأرض ، كما تشك في أية آراء تسبب الابتعاد عن

التعاليم الاصلية . ولما كان كوبرنيكوس رجل كنيسة مؤمنا ، فلم يرض القيام بدور الهرطوقى او بدور الشهيد .

واذ قوبل «التقرير الاول» بالترحيب ، وتوسل رتيكوس وغيره والحواء على كوبرنيكوس كى يسمح بالنشر الكامل ، رضخ هذا اخيرا وعهد بالنسخة الخطية الى رتيكوس ليحملها الى نورمبرج ويشرف على طباعتها . بيد انه قبل ان يتم ذلك العمل عين رتيكوس أستاذًا بجامعة لبيزيج Leipzig كاهنا لوثرىا فى تلك المدينة فعهد بدوره بتلك المسئولية الى اندرياس اوسلاندر
Andreas Oslander

من الجلى ان القلق ساور اوسلاندر من اجل الآراء المتطرفة التى كتبها كوبرنيكوس . فحذف مقدمة كوبرنيكوس للجزء الاول، بغير استئذان ، واستبدلها بمقدمة من عنده دون أن يذكر اسمه ، وانما ذكر فقط ان الكتاب يضم مجرد فروض تهم علماء الفلك ، وأنه لم يكن من الضرورى أو حقيقيا أو محتملا أن الارض تدور ، أو بمعنى آخر ، انه لايلزم أن يؤخذ ذلك الكتاب مأخذ الجد . لاشك فى أن اوسلاندر كان حسن النية فى محاولته تحاشي النقد العدائى ، وكما ذكر ميتسوا Mizwa : «ربما أن اوسلاندر قد أسدى ، عن غير قصد ، خدمة جليلة لكوبرنيكوس ، أعظم مما كان يدرك ، للمحافظة على ذلك المؤلف الهام . وبسبب هذه المقدمة الزائفة والمثبطة للعزائم والمكتوبة بمهارة كما لو كانت باسم المؤلف الى قارئ نظريات ذلك المؤلف ، غفلت الكنيسة عن الاهمية الثورية لذلك «الانقلاب» ، ولم تدرجه فى القائمة حتى سنة ١٦١٦» .

وقبل الانتهاء من الطباعة ، أصيب كوبرنيكوس بصدمة شديدة . فيقول مصدر موثوق به : فى احدى لحظات التاريخ الدرامية ، قدم رسول الى فراونبرج يحمل من نورمبرج النسخة الاولى من أروع مؤلفات كوبرنيكوس ، ووضعها بين يديه قبل ان

بلفظ آخر انفاسه بوضع ساعات . كان ذلك في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٣ ، وكان عنوان الكتاب « فيما يختص باقلاب الكرات السماوية De Revolutionibus Orbium Coetestium » وكتبية المؤلفات العلمية في ذلك الوقت ، كان مكتوبا باللغة اللاتينية .

أبدى كوبرنيكوس حكمة وحسن سياسة عندما اهدى ذلك المؤلف الى البابا بولس الثالث . ويتضح من اسلوب الاهداء ان كوبرنيكوس كان يتوقع بعض الصعاب :

« يحق لى ان أعتقد تماما ، أيها الاب الكلى القداسة ، ان بعض الناس عندما يسمعون عن نسبتي الحركة للارض ، في كتبي هذه ، سيقررون على الفور وجوب نبذ مثل هذه الراى . والآن لاتسرنى كثيرا نظرياتي ، انا نفسى ، فلا اهتم بحكم الآخرين عليها . وبناء على هذا ، عندما بدأت افكر في اولئك الاشخاص المؤمنين بثبات الارض لانه مدعم بآراء عدة قرون . وسيقولون عندما أقرر أن الارض تتحرك ، اننى ترددت لمدة طويلة ، هل أنشر ماكتبته للبرهنة على حركتها ، أو احدى حذو أتباع فيثاغورث الذين دأبوا على الافضاء بأسرارهم الفلسفية لأقاربهم وأصدقائهم شفويا . وعندما تأملت في هذا كثيرا ، كدت أضع هذا العمل الكامل جانبا بسبب الازدراء الذى يحق لى أن أتوقعه لكون نظريتى جديدة وعلى نقيض مايقبله العقل .

ومع ذلك ، حثنى أصدقائى على ترك مااعتزمته ، ونصحونى بأنه يجب على أن أنشر كتابى القابع فى حوزتى مختفيا ، ليس لتسع سنين فحسب ، بل ولاربعة أمثال هذه المدة . وطلب منى عدد غير قليل من الرجال المبرزين فى العلم أن أعمل نفس الشئ الذى نصحنى به الآخرون ، وأخبرونى بأنه ينبغى لى ألا أهتم

بقلقى والا أمنع مؤلفى عن الظهور أكثر من ذلك ، وانما أنشره ليكون
فى خدمة علماء الرياضة ..

لاشك فى ان الماهرين والعلماء من الناس سيتفقون معى اذا
رغبوا تماما فى فهم واستيعاب البراهين التى أقدمها فى ذلك
الكتاب امامنا . ومع ذلك ، فلكى يعرف العلماء وغير العلماء اننى
لا اهاب حكم اى شخص ، رايت اهداء أعمالى الليلية هذه لقداستكم
وليس لأى فرد آخر ، لانكم ، حتى وانتم فى ركنكم القصى من
الارض ، حبت اعيش انا ، معروفون بانكم اعظم المولعين بجمع
فروع العلوم والرياضيات ، وبذا يمكنكم ، عن طريق مركزكم
وحكمكم ، دحض لدغات الوشاة ، رغم ان المثل يقول انه لا علاج
ضد لدغة الواشى . وقد يحدث ايضا ان يدعى بعض الثرثارين
الذين يجهلون الرياضيات ، بأن لهم الحق فى اصدار حكم على
مؤلفى ، مستندين الى فقرة معينة فى الكتاب المقدس يؤولونها
حسب اهوائهم . فاذا تجاسر امثال هؤلاء على نقد مشروعى والنيل
منه ، فلن اكرث لهم ، وانظر الى حكمهم على انه تهور جدير
بالاحتقار .

لخص كوبرنيكوس فكرته عن الكون فى هذه العبارات :

« ابعاد الاجرام السماوية جميعا دائرة النجوم الثابتة المحتوية
على جميع الاشياء ، ولهذا السبب نفسه لاتتحرك ، وهى فى
الحقيقة اطار الكون الذى تتعلق به حركة ومركز جميع النجوم
الآخرى ، ورغم ان بعض الناس يظنونه يتحرك بطريقة ما ، فاننا
ندكر سببا آخر لكونه يبدو كذلك فى نظريتنا عن حركة الارض .
فمن الاجسام المتحركة ، يأتى اولا زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين
سنة ثم المريخ الذى يتم دورته فى سنتين . والرابعة فى الترتيب
وتكمل دورتها فى سنة واحدة هى الارض ذات الفلك القمرى
حولها . وتأتى الزهرة فى المرتبة الخامسة وتتم دورتها فى تسعة

شهور ثم عطارد في المركز السادس يدور في الفضاء في ثمانين يوما ، وتقع الشمس في وسط الجميع ، تلك التي تضع المشعل في هذا المعبد البالغ الجمال في مكان لا يعادله أى مكان آخر اذ تستطيع منه ان تضىء على الجميع في وقت واحد . . . اذن نجد في النظام العجيب تماثلا رائعا في الكون ونسبة محددة للتناسق في حركة هذه الافلاك ومداها بطريقة لايمكن الحصول عليها بأية طريقة أخرى» .

تتلخص محتويات مؤلف كوبرنيكوس «الانقلاب في الافلاك السماوية» في خطة تطور نظرية هذه الافلاك . فيبدأ بمقدمة الاهداء الى البابا بولس الثالث ، فالمقدمة الزائفة التي كتبها أوسلاندر ، وبعدهما ينقسم هذا المؤلف الى ستة أجزاء أو أقسام رئيسية ، ينقسم كل منها بدوره الى أبواب . فيضم الجزء الاول آراء كوبرنيكوس عن الكون والادلة المدعمة لنظريته القائلة بأن الشمس هي مركز الكون ، وفكرة دوران الارض حول الشمس كبقية الكواكب الأخرى ، ومناقشة الفصول . ويتكون من عدة أبواب . وفي نهاية هذا الجزء كتاب علمي عن حساب المثلثات . استخدم نظريات هذا الفرع من الرياضيات في الأجزاء التالية من مؤلفه .

ويتناول الجزء الثاني حركات الأجرام السماوية محسوبة رياضيا ، وبختمه بقائمة للنجوم تبين موقع كل منها في السماء وهي قائمة أخذ معظمها من مؤلف بطليموس مع بعض التصحيحات .

وتضم الأجزاء الأربعة الباقية شرحا مفصلا لحركات الأرض والقمر والكواكب ، وبصحب الشرح في كل حالة أشكال هندسية تبين المسار الذي تتبعه الكرات على أساس حسابات كوبرنيكوس . يقول أحد الأسباب المقدمة ضد نظرية الأرض المتحركة «

كتب غيرت العالم - ٢٢٥

وهو ما ذكره بطليموس ، أن الأرض يجب أن تبقى ثابتة والا فإن أى جسم سابح في الفضاء يبتعد عن الأرض وهى تتحرك . وأى جسم يقذف في الهواء ينزل مسافة بعيدة جدا الى الغرب ، وأقوى هذه الأسباب جميعا أنه اذا كانت الأرض تتحرك بهذه السرعة البالغة فانها سرعان ماتفتت الى أجزاء صغيرة تقذف في الفضاء . وقبل اكتشاف جاليليو Galileo لنظريات الميكانيكا الخاصة بذلك ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، كان من الصعب دحض هذه الأدلة البطليموسية . وقد أجاب كوبرنيكوس عليها باقتراحه ان الهواء المحيط بالأرض يدور معها ، وانه من المعقول أكثر افتراض ان الأرض هى التى تدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الأرض لاتدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الأرض لاتدور فان السماء هى التى تدور لاحداث الليل والنهار . ودعم الدفاع عن قوله هذا بتأمل فلسفى : ليست الطبيعة مما يحطم نفسه بنفسه ، ولم يخلق الله الكون لمجرد أن يحطم هذا الكون نفسه بنفسه .

يعتقد كوبرنيكوس ان الشمس لاتتحرك وانها ايجابية وثابتة وسط الكواكب الدوارة . وهذا الاعتقاد يشبه فكرة بطليموس عن الأرض . اعتقد كوبرنيكوس ان الوظيفة الوحيدة للشمس هى امداد الكون بالضوء والحرارة ، وأن الكون محدود جدا . وتقول تعاليم بطليموس انه لا يوجد فضاء خارج نطاق النجوم . ومن المحتمل أن الفضاء اللانهائى لم يكن معروفا لدى كوبرنيكوس ، كما لم يكن معروفا لبطليموس قبله بمدة ١٤٠٠ سنة ، وكذلك ، لم يستخلص من نظام بطليموس عن الفلك المحيط بأفلاك الاجسام السماوية . كان هناك مركز لكل فلك من الافلاك المختلفة ، وأن الشمس لم تكن بانضبط في مركز افلاك الكواكب . وقد صحح علماء الفلك اللاحقون هذه الظواهر في نظام كوبرنيكوس .

كان قبول نظام كوبرنيكوس ببطيئا لدى كل من العلماء وعامة

الشعب . كانت هناك آراء معاصرة ، مع بعض الاستثناءات ،
تعارض بعنف ذلك النظام . فتبعاً لاحدى القصص ، هاجم
طلبة الجامعة المكان الذى كان كتاب كوبرنيكوس يطبع فيه ،
وحاولوا تحطيم المطبعة وتمزيق النسخة الخطية الاصلية ، الا ان
عمال المطبعة وضعوا حاجزاً بينهم وبين المهاجمين حتى اتموا العمل .
وقامت فرقة من الممثلين الجائلين باخراج مسرحية هزلية للسخرية
من كوبرنيكوس ، مصورين ذلك الفلكى يبيع نفسه للشيطان .

اما رد الفعل لدى المنظمات الكنسية فكان اكثر جدية
واشد قوة . فهذه النظريات الجديدة تناقض المعتقدات الفلسفية
والدنية القائمة فى العصور الوسطى . فلو كانت نظريات
كوبرنيكوس صحيحة لما شغل الانسان مكاناً مركزياً فى العالم ،
ولانتقل هو من المكان الواقف عليه ، ولانتقل بيته الى واحد من
الكواكب العديدة .

ولكن ، بما ان مؤلف كوبرنيكوس كان مليئاً بأشياء اخرى .
وبسبب مقدمة اوسلاندر المضللة لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية
اجراء فورياً ضده ، غير ان قادة الاصلاح كانوا اقل اعاقه . فقام
مارتن لوثر Martin Luther بنقد كوبرنيكوس بعنف فى كثير من
المناسبات . وكان يشير اليه بقوله : «الفلكى الجديد الذى يريد
البرهنة على ان الارض هى التى تدور وليست السماء والشمس
والقمر ، كما لو ان شخصاً ما يجلس فى عربة متحركة او فى سفينة
سائرة ، ويظن نفسه ثابتاً والارض والشجار هى التى تتحرك
مارة به . ولكن هذه هى الحال فى هذه الايام فكل شخص يريد
ان يكون بارها يجب عليه ابتكار شيء من عندياته يعتبره خير شيء
لانه هو الذى ابتكره ! يريد ذلك الاحق ان يقلب علوم الفلك
كلها رأساً على عقب . ولكن ، كما يقرر الكتاب المقدس ، ان
الشمس نفسها وليست الارض ، هى التى امرها يوسع بان

تقف» . وكذلك سخر ميلانكثون Melanchthon تلميذ لوتر المخلص ، من كوبرنيكوس بقوله : «انه أوقف الشمس وجعل الارض تتحرك» .

واكد جون كلفين John Calvin ، مستشهدا بالمزمور ٩٣ : « كذلك ثبتت المسكونة لاتتزعزع » . وسأل باحتقار : «من ذا الذى يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس ؟»

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية اجراءات حاسمة ضد مؤلف كوبرنيكوس حتى سنة ١٦١٥ ، وكان كل معاملته هو الانتقام من انصار نظريات كوبرنيكوس امثال : جاليليو وبرونو Bruno وكان التصرف فى مذهب كوبرنيكوس على النحو التالى :

« الاقتراح الاول القائل بأن الشمس هى المركز وانها لاتدور حول الارض ، حماقة وسخافة وزيف فى علم اللاهوت ، وهرطقة لانه يناقض على طول الخط ماجاء فى الكتاب المقدس . وأما الاقتراح الثانى القائل ان الارض تدور حول الشمس وليست فى المركز ، فسخيف وزائف فلسفيا ، ومن الناحية اللاهوتية يعارض ، على الاقل ، العقيدة الحقيقية» .

وفى السنة التالية ١٦١٦ ، وضع مؤلف كوبرنيكوس فى قائمة الكتب المحرمة ، «حتى يصحح» ، وفى الوقت نفسه ، ادين «جميع الكتابات التى تؤيد حركة الارض» . فظل كوبرنيكوس فى القائمة السوداء لمدة تزيد على القرنين . واخيرا ازيلت تلك اللعنة فى سنة ١٨٣٥ .

منع المصير الذى لقيه جاليليو وبرونو ، غيرهما من اعتناق نظريات كوبرنيكوس . وقد ذهب جوردانو برونو Giordano Bruno الى أبعد من الآخرين اذ أن النظرية القائلة بأن الفضاء غير محدود،

وبأن الشمس وكواكبها ليست سوى واحدة من عدة مجموعات مشابهة . واقترح ، زيادة على ذلك ، أنه قد يكون هناك عوالم مسكونة أخرى تضم مخلوقات عاقلة تمتاز عنا . فحوكم برونو على مثل هذا التجديف أمام محكمة التفتيش الدينى وأدين فأحرق مربوطا الى عمود فى فبراير سنة ١٦٠٠ . أما الحكم الذى نزل بالعالم الفلكى الايطالى جاليليو فكان أخف من ذلك ، فقد مثل أمام محكمة التفتيش الدينى فى سنة ١٦٣٢ ، فهددته بالتعذيب والقتل وأجبرته على أن يجثوا على ركبتيه ويدحض جميع معتقداته ونظريات كوبرنيكوس ، وحكم عليه بالسجن بقية أيام حياته .

حذا الفلاسفة والعلماء حذو اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت فى ترددهم لقبول النظرية الكوبرنيكية . فمشلا ، حاول أحد مؤسسى الطرق العلمية الحديثة ، ويدعى فرنسيس باكون Francis Bacon دحض فكرة دوران الارض حول الشمس فى فلك وهكذا ظلت سيطرة أريسطو وبطليموس على الجامعات الأوروبية قائمة لم تتكسر لمدة طويلة بعد نشر كتاب « الانقلاب فى الافلاك السماوية » .

والواقع أنه ، كما ذكر ستينز Stebbins : « كان قبول نظرية كوبرنيكوس بطيئا فى جميع الدول . ففي أمريكا ، كانوا يدرسون النظريتين البطليموسية والكوبرنيكية فى وقت واحد ، فى جامعتى هارفارد Harvard وييل Yale . ومع ذلك ، فشيئا فشيئا اخذت نظرية كوبرنيكوس تحظى بقبول محتم . واستمرت الابحاث على يد العلماء الغيورين أمثال جوردانو برونو وتيكو براهى Tycho Brahe ويوحنا كبلر وجاليليو جاليليو Galileo Galilei واسحق نيوتن ، أبان عشرات السنين التالية . فكونوا هرما من البراهين التى لاتقبل الدحض أو انجبدل . وحذقوا عيوب النظرية الكوبرنيكية بناء على

الابحاث الحديثة لهؤلاء وغيرهم من الباحثين ، وساعدهم على ذلك تحسين آلات الرصد الى درجة الكمال ، وانه كان بوسع كل باحث ان يبني على ابحاث سابقه .

اعظم عالم فلكى جاء بعد كوبرنيكوس مباشرة هو العالم الدانمركى تيكو براهى . لم يزد تيكو شيئا على نظرية دوران الارض حول الشمس ، ولكنه استطاع بواسطة الآلات الجيدة التى زود بها ملك الدانمرك ، القيام بأرصاد وقياسات فلكية افضل بكثير مما قام به كوبرنيكوس . وعلى أساس هذه المعلومات أمكنه مساعدة العالم الالمانى يوحنا كبلر بعد موت تيكو ، على ان يصوغ قوانينه الثلاثة الشهيرة : (ا) ان الكواكب تسير فى افلاك اهليلجية وليست دوائر ، وان الشمس موجودة فى بؤرة واحدة . (ب) بما ان الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس فى افلاك اهليلجية ، فانها لا تدور بسرعة منتظمة ، ولكن بطريقة أن سرعة دورانها تزيد عندما تكون أقرب الى الشمس . (ج) يتناسب بعد الكواكب عن الشمس مع مدد دورانها حول الشمس .

كان جاليليو أول راصد أمد علم الفلك بالتلسكوب ، وقد اثبت كثير من اكتشافاته التلسكوبية صحة ما وجدته كوبرنيكوس . قدم جاليليو أساسا علميا عندما قدم المبادئ الأساسية لعلم الديناميكا ، أو علم الحركة . وقدم السير اسحق نيوتن البراهين القاطعة على صحة نظرية كوبرنيكوس باكتشافه قانون الجاذبية وصياغته للقوانين التى تتحرك بمقتضاها الكواكب . وأميط اللثام عن بعض غوامض الكون الباقية بواسطة نظرية أينشتين Einstein عن النسبية التى ظهرت فى القرن العشرين .

وعلى ضوء التعديلات الكثيرة التى قام بها العلماء فى القرون التالية ، نشأ هذا السؤال المعقول والمطروح كثيرا : هل نظرية كوبرنيكوس صحيحة ؟ لسنا فنكر ان كوبرنيكوس ترك نظرية غير

كاملة وغير دقيقة في عدة نقاط . فقد أثبت العلماء خطأ فكرته عن دوران الاجرام السماوية في فلك دائرى تماما ، اذ أنها تدور في افلاك اهليلجية . وقد نظر كوبرنيكوس الى الكون على أنه محدود جدا على تقيض النظرية الحديثة القائلة بوجود عدد غير محدود من المجموعات الشمسية . وكذلك في التفاصيل الاخرى ، تختلف النظريات التى قدمها كوبرنيكوس منذ أكثر من أربعة قرون خلت ، تختلف عن معارفنا الحاضرة اليوم . ولكن في أساسها — وهو أن الشمس مركز مجموعات الكواكب — اكتشف كوبرنيكوس حقيقة أساسية وقدم أساسا لعلم الفلك الحديث .

رسخ الى الابد مركز كوبرنيكوس في تاريخ العلوم ويخوله نفوذه على معاصريه وعلى جميع الفكر اللاحق مكانة ممتازة .
وكما كتب جيتيه Goethe :

« لم يحدث أى اكتشاف او رأى ، من جميع الاكتشافات والآراء ، اثرا على الروح البشرية أعظم مما أحدثته نظرية كوبرنيكوس . من النادر أن الناس كانوا سيعرفون أن العالم مستدير وكامل الاستدارة في حد ذاته اذا طلب من هذا العالم أن يتنازل عن كونه مركز الكون .. ربما لم يطلب من البشرية شيء أعظم من هذا — لانه بهذا الاعتراف اختفت أمور كثيرة في الضباب والدخان ! الى أى شيء صارت جنتنا ، عالمنا ، عالم البرابرة والتقوى والشعر ، دليل المشاعر ، اتهام عقيدة شاعرية ودينية ؟ لا عجب في ان معاصريه لم يرغبوا في أن يتركوا كل هذا يمر ، وقاموا بكل مقاومة ممكنة للذهب خول لكل المهتمين به حرية الرأى وعظمة التفكير اللتين لم تعرفا حتى ذلك الوقت ، والحقيقة أنه لم يحلم بهما قط» .

وأخيرا ، فلنتأمل حكم ثلاثة من مشاهير العلماء الأمريكين الموجودين على قيد الحياة . فقد علق فانيفار بوش .

Vannevar Bush بقوله : «خلق نشر مؤلف كوبرنيكوس الرانع ... نقطة تحول عظيمة الاهمية لتأثيره على كل ناحية من نواحي الفكر البشرى . قدم مثلا بارزا لتأثير الحقيقة العلمية لتحرير ذهن الانسان وجلاء بصيرته للفزوات المستقبلية للجهل والتخاذل» واكد هارولد ك . اورى Harold C. Urey الفائزة بجائزة نوبل ، قائلا : «يخفق كل بيان عندما يصف مؤلف نيقولاوس كوبرنيكوس . لقد حطم فكرة عن المجموعة الشمسية ظلت قائمة مدة الف عام وقدم فكرة مخالفة لها تماما ، عن نسبة الكواكب الى الشمس . وبهذا العمل كان اول من قدم الطريقة الحديثة كلها للفكر العلمى ، وعدل تفكيرنا عن جميع نواحي الحياة البشرية» .

وأخيرا ، هاك رأى العالم الفلكى المبرز هارلان تروستاتسون Harlan True Stetson :

«من المحير دائما دراسة القائمة الطويلة لمشاهير الرجال الحقيقيين فى تاريخ العالم ، الذين أسهموا فى تقديم العلوم ، ثم تحديد عدد قليل منهم على أنهم المبرزون المتفوقون . ومع ذلك ، فلو طلب منى اختيار ثلاثة أسماء منهم ، لقلت فى غير ما تردد طويل ، كوبرنيكوس ونيوتن وداروين . فيشترك هؤلاء الثلاثة فى خصائص تجعلهم غير منفصلين فى مجال انتصار التقدم . وهذه الخصائص هى الخيال والجرأة والعبقرية وطرافة اظهار التفهم الخارق للافتكار . وبالنظر الى جميع الاعتبارات لاختيار اعظم هؤلاء الثلاثة ، اعتقد ان اكاليل الفار يجب أن تكون من نصيب كوبرنيكوس ، لانه هو الذى وضع أسس علم الفلك الحديث التى بدونها ماكان لنيوتن أن يبنى قانونه عن الجاذبية ، وهو الذى فتح الابواب لنوع من التفكير الثورى يتحدى المبدأ الذى يجب أن يأخذ مكانه قبل أن يثبت مذهب النشوء قدمه فى تفكيرنا» .

١٢ - فجر الطب العلمى

وليام هارفى William Harvey

حركة القلب De Motu Cordis

لم تتقدم علوم الاحياء وابحائها فى اوائل القرن السابع عشر الا قليلا عن دراسة علم الفلك قبل كوبرنيكوس . ومازال الأطباء ومدارس الطب يمارسون ويعلمون نظريات التشريح ووظائف الاعضاء الخاصة بالقلب والشرايين والأوردة والدم التى تلقوها عن الطبيب الاغريقى الآسيوى العظيم جالين Galen الذى عاش فى القرن الثانى .

لم تحدث اضافات هامة لمدة تزيد على الالف سنة الى معارف الانسان عن الدورة الدموية ووظائف القلب . كان أريسطو يعلم أن الدم ينشأ فى الكبد ومنه يذهب الى القلب ، ثم خلال الجسم الى الاوردة . كان يعتقد أن القلب هو أيضا مصدر حرارة الجسم ومقر الذكاء . واعتقد أرازيستراتوس Erasistratus خريج مدرسة الاسكندرية أن الشرايين تحمل نوعا هادئا من الهواء أو الروح .

فصح جالين هذه الفكرة اذ اكتشف أن الشرايين تحمل دما وليس هواء . غير أنه لعدة قرون بعد عصره ، كان الأطباء مقتنعين بأن روحا أو نحوه يلعب دورا في جهاز الدم ، وربما كان ذلك لانعاش القلب .

لم يجرؤ على مناقشة المسابقات والمعتقدات الموروثة عن القدماء سوى أعظم العلماء جرأة . كانوا يعتبرون ماكتبه جالين من اصل مقدس - لا يمكن أن يتطرق اليه الجدل أو الشك . وتبعاً لجالين ايضاً ، كان الكبد مركز الجهاز الدموي . فقال ان الطعام المهضوم يحمل الى الكبد حيث يتحول الى دم مع اضافة «روح طبيعي» . وان الدم يسير في الجسم الى الامام والى الخلف عن طريق كل من الاوردة والشرايين كما يفعل المد والجزر في البحر . يختلف الدم الشرياني الاتى من أحد جوانب القلب مع الدم الوريدي من الجانب الآخر خلال مسام دقيقة .

وعلى مر القرون ، أضيفت الى تلك الحقائق الطبيعية كثير من الخرافات عن الدم . كان للدم صفة مقدسة اكثر من أى جزء آخر في الجسم كما يتضح من استخدامه في الدبائح الدينية ، وسكب الدم على مذابح الآلهة .

عندما جاء عام ١٦٠٠ كان التغيير في الجو قد عم كل مكان . لم تعمل النهضة في اوربا على احياء الادب فحسب ، بل وشملت ايضاً ذهنياً اثر على العلوم الطبيعية . كان ذلك العصر عصر جاليليو وكبلر وهارفي وباكون وديكارت Decartes . وفي ايطاليا ، قبل ذلك بخمسين سنة ، اثبت أندرياس فيساليوس Andres Vesalius عدم وجود المسام التي وصفها جالين . ولم تكن هناك اية علاقة مباشرة بين حجرتى القلب . وفي حوالى نفس الوقت ، أبدى سرفيتوس Servetus الذى أحرقه جون كالفين John Calvin فيما بعد ، أبدى اعتقاده بأن الدم

يدور خلال الرئتين ، ولكنه لم يعترف بأن القلب عضو ضاح .
وكذلك اقترح ريالدو وكولومبو Realdo Colombo ، أستاذ
التشريح في روما ، فكرة الدورة الدموية في الرئتين . وفي سنة
١٦٠٣ زود فابريكيوس البارواى Fabricius of Padua :
العلم بحلقة أخرى عندما اكتشف أن للاوردة صمامات ، ولو انه
لم يفهم الغرض منها ، بل استنتج فقط أنها كانت لمجرد العمل
على بطء سير الدم الى الاطراف .

وهكذا كان لهؤلاء ولنفس جريئة أخرى أن تنهور وتلقى شكا
على العقيدة القديمة التى عرقلت التقدم الطبى خلال العصور
الوسطى . ومن ناحية أخرى لم يستطع أحد الوصول الى الحقيقة
الكاملة . فأسهم كل واحد بقدر كبير نحو كشف اللثام عن الدورة
الدموية ووظائف القلب ، ولكنه توقف في كل حالة بجواب جزئى
او غير كامل . اما اكتشاف وصياغة مجموعة منتظمة ومبوبة من
النظريات ، فقدمه العقل اللامع الحاد للطبيب الانجليزى وليم
هارفى .

وصلت النهضة العلمية الى انجلترا متأخرة عن وصولها الى
القارة الاوربية ، وخصوصا ايطاليا . ولكن في العصر الذى ولد
فيه هارفى (سنة ١٥٧٨) كانت الامة تدخل في فترة من أعظم
الفترات . فابان القرن التالى ، حكمت بريطانيا الملكة اليزابيث
Elizabeth ، وتوطدت قوة بريطانيا البحرية بهزيمة أسطول
الارمادا Armada الاسبانى ، وفتح المكتشفون الانجليز اراضى
جديدة ، وازدهر شكسبير Shakespeare ودون Donne
وسبنسر Spenser ودرادن Dryden وملتون Milton
وجونسون Johnson وباكون Bacon في عالم الادب وبدا كبح
جماح الفكر الخاص بالقرون السابقة . بدأ التفكير السابق ينقض
وتحررت عقول الناس داخل حدود معينة لتخلق أفكارا جديدة
وتفتح آفاقا لم تفتح من قبل .

نكى يدرس هارفى الطب ، كان من الطبيعى ان يذهب الى ايطاليا . وسميت جامعة بادوا الشهيرة : «الأم مربية النهضة» ، وظلت لعدة اجيال المركز الطبى لأوروبا . فبعد ان تخرج هارفى الشاب فى كامبريدج قضى أربع سنوات معظمها تحت قيادة المدرس الشهر الكفاء فابريكوس مكتشف صمامات الاوردة . فتعلم كيف يشرح ويجرى التجارب على شتى أنواع الحيوان ، وربما كان الفضل لنظريات فابريكوس فى متعته بالدورة الدموية التى لازمته طوال حياته .

لما عاد هارفى الى انجلترا فى سنة ١٦٠٢ بدأ منهج حياة قدر له ان يستمر مدة الخمسين سنة التالية كطبيب ومحاضر وكاتب . تزوج ابنة طبيب الملكة اليزابيث الخاص . وبعد ذلك عمل كزميل فى الكلية الملكية للأطباء ، وكطبيب فى مستشفى بارثولوميو Bartholomew ، وكطبيب لجيمس الاول وشارل الاول .

رغم هذا ، أولع هارفى طول حياته بالابحاث الطبية والتجارب أكثر من ولعه بممارسة الطب . فبدأ فى سنة ١٦١٦ يلقى المحاضرات بين الدورة الدموية أمام كلية الاطباء . ولانزال النسخة الخطية لمحاضراته موجودة ، مكتوبة بخليط من اللاتينية والانجليزية يحط يكاد تتعذر قراءته . وقد شرح بعض تجاربه فى مذكراته وأوضح أنه فى ذلك التاريخ افتنع تماما بصحة نظرياته الشهيرة عن الدورة الدموية ، فكتب يقول : «يتحرك الدم فى دائرة مستمرة بدفع من ضربات القلب» .

انصرت اثنتا عشرة سنة قبل ان يستعد هارفى لنشر النتائج التى توصل اليها . لماذا هذا التأخر فى اعلان مثل ذلك الاكتشاف العظيم الى العالم ؟ هناك عدة تخمينات فى ذلك الخصوص . فاقترح السير وليم أوسلر William Osler بقوله : «ربما كان باعثه فى ذلك هو نفس باعث كوبرنيكوس الذى خشى تعصب

البشر حتى قيل انه باعث كوبرنيكوس الذى خشى تعصب البشر حتى قيل انه احتجز رسالته الثورية في خزانته لمدة ثلاثين عاما . وبنفس الفاظ هارفي ، ان نظريته عن الدورة الدموية العامة : « جديدة ومن نوع لم يسمع به حتى اننى لا اخاف فقط ايداء شخص نتيجة حسد القليلين ، بل وأرتجف لجعل البشر جميعا اعدائي . يوسع العادات والتقاليد أن تفعل الكثير اذا تحولت الى طبيعة اخرى ، وأن النظريات التي غرست وتفلقت جذورها واستقر منذ القدم ، ذات تأثير بالغ على جميع الناس » .

كذلك ، ماكان هارفي بالرجل المتهور الذى يندفع بسهولة الى المطبعة لينشر نظرياته اذ يرى : «ليست جموع كاتبى الخزعبلات الاغبياء بأقل من أسراب الذباب في عز الصيف ، وانهم ليهددون بحماقاتهم وتوافه كتاباتهم وانتاجهم الخاوى ، بأن يخفقونا عندما ندخن » .

واخيرا ، بعد سنوات من التجارب والملاحظة ، قرر هارفي ان الوقت قد حان . وفي سنة ١٦٢٨ ظهر في فرانكفورت Frankfurt بألمانيا كتيب من ٧٢ صفحة اعتبره كثير من اعلام الطب اهم كتاب طبي وضع حتى ذلك الوقت ، وبطبيعة الحال ، كان ذلك الكتيب باللغة اللاتينية وهى اللغة العلمية العالمية . كان عنوانه الكامل : «Exercitatio Anatomica de Motu

Cordis et Sanguinis in Animalibus » ، أى « تمرينات تشريحية على حركة القلب والدم في الحيوانات » . ولسنا نعرف بالضبط السبب فى صدور هذا الكتيب فى ألمانيا بالذات - ربما كان ذلك لان سوق الكتاب السنوية التى تعقد فى فرانكفورت تضمن سرعة نشره وتداوله بين علماء القارة الاوروبية . ولاشك

في ان خط هارفي الرديء هو المسئول عن العديد من الأخطاء الطبيعية .

بارك اهداء ابن كتيب «حركة القلب» : الاول الى شارل الاول حيث يشبه الملك في مملكته القلب في الجسم ، ويتبع ذلك خطابا الى الدكتور أرجنت Argent عميد الكلية الملكية و « سائر اطباء والدكانرة زملائه العظيمى القدر» . وفي الاهداء الثانى عبر هارفي عن رأيه بوجوب قبول الحقيقة ، بغض النظر عن مصدرها ، وان الحقيقة أكثر قيمة من التقاليد القديمة . فقال : «أقرر أننى أتعلم وأعلم التشريح ، ليس من الكتب وانما من التشريح العملي ، ليس من مكان الفلاسفة بل من نسيج الطبيعة» أمسك هارفي بهذه العبارة بهدف وبروح البحث العلمى الحديث .

يتألف الكتاب في جوهره من مقدمة وسبعة عشر بابا تعطى وصفا واضحا متصلا لعمل القلب وحركة الدم الدائرية خلال الجسم كله . وتستعرض المقدمة نظريات جالين وفابريكوس وريالدو كولومب Realdo Colomb وغيرهم من قدامى الكتاب مبينا اخطاءهم في دقة وايضاح .

ذكر هارفي في الباب الاول بعض المشاكل التى واجهته في ابحائه ، فكتب يقول :

« عندما وطدت العزم اولا على الاتجاه نحو تشريح الحيوانات الحية كوسيلة لاكتشاف حركات القلب ووظائفه ، وحاولت اكتشاف هذه من الفحص الفعلى ، وليس مما كتبه غيرى ، وجدت هذا الفمل شاقا وملوثا بالمواد البرازية ، وزاخرا بالصعاب حتى كدت أميل الى الاعتقاد مع فراكاستوروس Fracastorius ان حركة القلب لايمكن ان يعلمها غير الله وحده . فلم ادرك اولا متى يحدث الانقباض ومتى يحدث التمدد ، لا متى ولا اين

يحدثان بسبب سرعة حركتهما التي تتم في كثير من الحيوانات في لمح البصر ، تجيء وتذهب في سرعة البرق الخاطف» .

وأخيرا اقتنع هارفي بأنه بالإمكان دراسة حركات القلب بصعوبة أقل في الحيوانات ذوات الدم البارد كالعلاجيم والضفادع والثعابين وصفار السمك وسرطان البحر والجمبري والقواقع والمحاربات ، أقل مما في الحيوانات ذوات الدم الدافئ . فرأى في ذوات الدم البارد أن الحركات «أبطأ وأندر» . كما كانت هذه الظواهر أسهل ملاحظة في الحيوانات ذوات الدم الدافئ عند الاحتضار لما يكون عمل القلب آخذاً في البطء .

لاحظ هارفي ، نتيجة لتجاربه ، أن انقباض القلب يدفع الدم خارجا ، وعندما ينقبض تتمدد الشرايين لاستقبال الدم . ولما كان القلب عضلة تؤدي وظيفة نوع من المضخات ، يجبر الدم على الاندفاع في دوران مستمر . وعند إجبار الدم على السريان داخل الشرايين ، فإنه يسبب النبض ، «مثلما ينفخ المرء في قفاز» . وعلى نقيض نظرية المد والجزر القديمة فإن الدورة الدموية تكون في اتجاه واحد . أوضح هارفي أن الدم يمر من الجانب الأيسر للقلب خلال الشرايين إلى النهايات ثم يعود عن طريق الأوردة إلى الجانب الأيمن للقلب . عرفت حركة الدورة بربط أربطة حول الشرايين والأوردة . في نقط مختلفة . وبالاختصار ، اكتشف أن نفس الدم الذي تحمله الشرايين ، تعود به الأوردة مكونة دورة كاملة .

وهكذا نرى وصف هارفي الرائع لهذه العملية إذ يقول :

« تحدث هاتان الحركتان ، حركة البطينين وحركة الأذنين على التعاقب ولكن بطريقة فيها تناسق وإيقاع بين الحركتين . تحدثان بحيث تكون حركة واحدة هي الظاهرة وخصوصا في الحيوانات ذوات الدم الدافئ التي تكون فيها الحركتان سريعتين .

تحدث الحركتان كما لو كانتا في قطعة من آلة ، فعلى الرغم من أن إحدى عجلائها تدير الأخرى فان جميع العجلات تبدو تتحرك في وقت واحد . أو كأجهزة الاسلحة النارية حيث يلمس الزناد فينزل القداح ويضرب الصلب فيحدث شرارة تقع بين البارود فيشتعل ويحدث اللهب ويدخل انبوية القذافة ويسبب الانفجار فيرسل القذيفة التي تصيب الهدف - وبسبب السرعة التي تحدث بها كل هذه الحركات ، تبدو كأنها تقع في لمح البصر» .

عندما فكر هارفي في أن حركة الدم دائرية ، يجوز انه تأثر بقدامى الفلاسفة أمثال أريسطو الذي كان يعلم أن الحركة الدائرية كاملة ، وهي أمثل الحركات جميعا . أما العالم الفلكي جوردانو برونو معاصر هارفي ، فاستنتج أن الدائرة هي «الشعار والنمط الاساسيين لجميع الحياة والاعمال في الكون» . وجدير بالملاحظة أن هارفي استخدم في مقاله عبارات مثل «حركة كأنها في دائرة» و «يجوز لنا أن نسمى حركة الدم دائرية» .

كانت طريقة هارفي دقيقة في البرهنة على الدورة الدموية ؛ نعم كانت في مجملها دقيقة بدرجة رائعة ، غير انه كانت هناك حلقة واحدة مفقودة . كيف يذهب الدم من الشرايين الى الأوردة ؟ كان هارفي يعرف أن الدم يذهب الى الشرايين من الجانب الايسر للقلب ويعود من الأوردة الى جانب القلب الايمن . ومع ذلك ، قال : «لم أنجح قط في تتبع أية علاقة بين الشرايين والأوردة بالانفتاح المباشر بين فتحاتها» . واذ كان ينقصه الميكروسكوب لم ير الأوعية الشعرية ، وهي الأوعية الدقيقة التي تمر بداخلها كريات الدم من الشرايين الى الأوردة ، رغم اقتناعه بضرورة وجود مثل هذه الجارى . وقد حل هذا اللغز بعد موت هارفي ببضع سنين ، حله مارسيلو مالبيجي Marcello Malpighi استاذ التشريح بجامعة بولونيا . فعندما كان يفحص ضفدعة بميكروسكوب حديث

الاختراع رأى شبكة الشعيرات الدموية تصل الشرايين بالأوردة كما تنبأ هارفى تماما . وهكذا كملت الخطوة الاخيرة فى البرهنة على الدورة الدموية .

نكى يتغلب هارفى على الوساوس ، قدم مزيدا من البراهين على الدورة الدموية ، ومنها استعمال مايعرفه علماء الطبيعة بطريقة الكم . برهن على أن القلب يضخ فى مدة ساعة ، فى ضرباته البالغة حوالى أربعة آلاف ضربة ، كمية تربو كثيرا على جميع كمية الدم الموجودة فى الجسم . فاذا قيس الدم الذى يرسله القلب فى يوم واحد ، وجد أن كميته تزيد كثيرا على جميع الطعام المأكول والمهضوم - وبدا برهن على خطأ نظرية جالين القديمة . فكتب هارفى بقول : « بالأختصار ، لايمكن توريد الدم بطريقة أخرى غير عمل دورة والعودة» .

هناك براهين أخرى على الدورة الدموية تأتى من تأثير السموم على الجسم :

«نرى فى حالة الأمراض المعدية وفى الجروح المسممة ولدغات الثعابين وعضات الكلاب المسعورة والزهرى وما أشبه ، أن الجسم كله يتسمم بينما تكاد أماكن الإصابة أن تخلو من الأذى أو تشفى لاشك فى أن العدوى التى أصابت أولا بقعة معينة ، نقلها الدم العائد الى القلب ومنه انتشرت بعد ذلك فى جميع أجزاء الجسم . . . قد يفسر هذا أيضا السبب فى أن العقاقير الطبية المستعملة فوق الجلد ، يحدث لها نفس الأثر كما لو كانت قد أخذت عن طريق الفم» .

كان استعمال هارفى للحيوانات فى أغراض التجارب أمرا جديدا ، وكان يعتقد : «من رأى أنه لو كان علماء التشريح خبراء فى تشريح الحيوانات الدنيا كما هم خبراء فى جسم الإنسان لزال

الامور التي حيرتهم ولنزعت عنهم الشكوك ، ولقضت على كل ماقابلهم من صعاب» . يمكن اعتبار هارفي بحق واحدا من مؤسسي علم التشريح المقارن . فيذكر مثلا ، تجارب على الاغنام والكلاب والغزلان والخنازير والطيور والكتاكت في البيض والافاعي والاسماك وثمانين السمك والعلاجيم والضفادع والقواقع والجمبري وسرطان البحر والمحاريات والاصداف والاسفنج والديدان والنحل والزنابير واليعاسيب والجنادب والذباب والقمل .

« لاحظت وجود قلب لجميع الحيوانات تقريبا ، ليس فقط في الحيوانات الكبيرة ذوات الدم كما يقرر اريستو ، بل وكذلك في الحيوانات الصغرى عديمة الدم ، كالقواقع ذوات المحار والقواقع عديمة المحار وسرطان البحر والجمبري وكثير غير هذه . وحتى في الزنابير واليعاسيب والذباب فقد استخدمت عدسة فرايت قلبا نابضا في الجزء العلوى مما يسمى بالذنب واطلعت غيرى عليها حية . ففي هذه الحيوانات عديمة الدم ، ينبض القلب ببطء ، منقبضا في بطء كما في الحيوانات الراقية المحتضرة . يرى هذا بسهولة في الفووعة حيث يقع القلب في قاع الفتحة الواقعة على الجانب الايمن ، والتي تبدو تفتح وتقفل عند اخراج اللعاب ... يوجد نوع من السمك الصغير المستخدم طعما لسرطان البحر ، يصاد من البحر ومن نهر التيمس Thames ، كل جسمه شفاف . وضعت ذلك المخلوق في الماء واطلعت بعض اصديقائى عدة مرات على حركات قلبه بوضوح تام» .

وعلاوة على اكتشافات هارفي الشهيرة هذه ، كان اعظم اسهام له في خدمة العلم والابحاث الطبية هو الطرق العملية او التجارب . فقد وضع الاساس الذى بنى عليه علم وظائف الاعضاء والطب لمدة تزيد على ثلاثة قرون . كان الاساس ، كما قرر هارفي نفسه :

«إن أبحث وأدرس أسرار الطبيعة عن طريق التجارب» . كان للطب تاريخ يرجع الى آلاف السنين قبل مولد هارفي . تعلم الاطباء ان يدركوا ويصفوا بدقة الامراض الرئيسية التي تصيب الانسان . وإن الملاحظة ، رغم أهميتها ليست كافية ، وكثيرا ماتعود الى استنتاجات كلها خطأ . كان هذا هو اعظم فرق بين هارفي وأسلافه . وتخطى هارفي الملاحظة السطحية ، مقيدا قليلا بالخرافات أو باحترام النظريات القديمة ، فوضع فروضا وفحصها بالتجارب . كان اول من استخدم الطريقة العلمية للتجربة من أجل حل المسائل البيولوجية . وقد حذا حذوه جميع خلفه منذ عام ١٦٢٨ .

من المتع قبول معاصري هارفي لاكتشافاته . لم يكن كتابه موضوعا ادبيا ، وربما لم يدرك هارفي نفسه عمق ماتضمنه . ونشأ شيء من المعارضة من المحافظين والمتعصبين . وقد كتب معاصره ولنرونشيل ، جون أوبري Walter Winchell, John Aubrey يقول انه : «سمع هارفي يقول انه بعد ظهور كتابه عن الدورة الدموية اخذ يجرى التجارب بجد ، فقد ظنه العوام والسخفاء معتوها ، وكان جميع الاطباء ضده» .

عبر السير وليام تمبل William Temple عن شعور احد الاذكياء في ذلك العصر ، فكتب عن مؤلفي كوبرنيكوس وهارفي ، يقول -

«من المتنازع فيه ما اذا كان هذان اكتشافين حديثين أو مقتبسين من اسس قديمة . وهل هما حقيقيان أو غير حقيقيين . فرغم أن العقل قد يجذبهما أكثر من الآراء المضادة ، فقلما يقبلهما العقل . ولكي يقنعا البشر ، يجب عليهما أن يتحدا ، ولكن اذا كان هذان الاكتشافان العظيمان حقيقيين فانهما لم يحدثا تغيرا

في نتائج علم الفلك ولا في ممارسة الطب ، وهكذا كانا قليلى النفع للعالم ولو أنهما جلبا الشرف العظيم لمؤلفيهما» .

تجاهل هارفى ناقدية في معظم الحالات . غير أن عداء مدرسة طب جامعة باريس حثه أخيرا على الخروج عن صمته . وقام جون ريولان John Riolan استاذ التشريح بمدرسة باريس يحث الكلية على تحريم تدريس نظرية هارفى . فحاول هارفى التغلب على معارضته ، فأرسل الى ريولان بحثين في التشريح مدعمين بالأدلة القاطعة فيما يختص بالدورة الدموية ، ونشر هذين البحثين في كتيب سنة ١٦٤٩ ، أى بعد صدور كتاب «حركة القلب» بأحدى وعشرين سنة ، رد فيهما هارفى بالتفصيل على من تعرضوا لمؤلفه .

يبدى هارفى حزنه في البحث الثانى بقوله :

«قلما يمر يوم أو ساعة منذ مولد الدورة الدموية ، لا أسمع فيهما شيئا طيبا أو شريرا يقال عن اكتشافى هذا . يذمه البعض فيقولون انه يشبه طفلا رضيعا ضعيفا غير جدير بأن يرى النور، ويظن البعض أن هذا الطفل يستحق الحب والعناية . فيعارضه هؤلاء بعناد شديد ، ويحميه أولئك بكثير من التوصية . يقرر أحد الطرفين أننى برهنت تماما على الدورة الدموية بالتجارب والملاحظات والفحص العينى ضد كل قوى الجدل . ويظن الطرف الآخر أننى لم أوضحها بما فيه الكفاية ، ولم أسلم من جميع المعارضات . كما أن هناك بعضا آخر يقول أننى أبدت ، فى غرور ، ولما بالغا بشريح الكائنات الحية ، ويسخرون من تقديم الضفادع والثعابين والذباب وغيرها من الحيوانات الدنيا على المسرح ولكى أرد على الأقوال الشريرة بأقوال شريرة مثلها أقرر أننى لست جديرا بالفلسفة والبحث وراء الحقيقة . واعتقد كذلك أنه من الخير والأصح لى أننى إذا التقيت بالكثير من أمثال

هذه المعارضات والنوايا السيئة ، أن اقبالها في ضوء الملاحظات الاكيدة والامينة والقاطعة» .

ولحسن الحظ ، عاش هارفي ليرى القبول العام لنظرياته بين الاكفاء ليحكموا عليها . وان تعيينه عميدا لكلية الطب في سنة ١٦٥٤ ، قبل وفاته بثلاث سنوات ، لدليل على سمو منزلته بين زملائه في المهنة .

كذلك العبارة اللاتينية المكتوبة على قبر هارفي تدل بوضوح على رأى معاصريه فيه :

« وليم هارفي ، الذى تقوم جميع الاكاديميات احتراماً لاسمه الموقر ، كان الاول بعد عدة آلاف من السنين ، الذى اكتشف حركة الدم اليومية ، وبدا جلب الصحة للعالم والخلود لنفسه ، ذلك الشخص الوحيد الذى خلص أصل الحيوان وأجباله من الفلسفة الكاذبة ، والذى يدين له الجنس البشرى باكتسابه المعارف ، ويدين له الطب بوجوده ، الطبيب الاول وصديق صاحبي الجلالة جيمس وشارل ، ملكى الجزر البريطانية ، والاستاذ النشيط البالغ النجاح للتشريح والجراحة بجامعة طب لندن - من أجلهما بنى مكتبة شهيرة زودها بنفائس الكتب من ميراثه الخاص . وأخيرا بعد الجهود المظفرة فى الملاحظة والعلاج والاكتشاف ، وبعد اقامة عدة تماثيل من أجله ، فى وطنه وفى الخارج ، عندما طاف الدائرة الكاملة لحياته مدرسا للطب وطبيبا ، مات دون ولد فى الثالث من يونية من السنة المباركة ١٦٥٧ ، فى الثمانين من عمره الزاخر بالاعمال وبالشهرة » .

اضيف القليل ذو الصفة الجوهرية لاكتشاف هارفي للدورة الدموية ، واو أن كمية ضخمة من المعلومات كدست فيما يختص بالقلب وبالاوعية الدموية والرئتين . يعرف الكثير الآن عن تركيب

القلب ووظيفته في الصحة والمرض وحركاته المعقدة ووظائف الدم التي لم تكن لتتخيل في عصر هارفي نفسه .

ومع ذلك ، فكما علق كلجور Kilgour :

« من الجلي الواضح أن اسهام اكتشاف هارفي في الطب والجراحة ، يفوق كل وصف . انه أساس جميع الأعمال الخاصة باصلاح الاوعية الدموية التالفة أو المريضة والعلاج الجراحي لضغط الدم العالى والمرض التاجى وعملية « الرضيع الأزرق » المعروفة جيدا ، وهلم جرا . وزيادة على ذلك ، فان علم وظائف الاعضاء العام هو المدين له اكثر من غيره ، لان حركة الدم الدوار هى أساس معارفنا الحالية لبيئة الجسم الداخلية ، الذاتية الاتزان . يلعب هذا السائل ، الذى اكتشف هارفي دورته بثاقب بصيرنه العظيمة ، أهم دور في ديناميكا أجهزة جسم الانسان» .

ربما لم يلخص احد معنى حياة هارفي في تقدم الطب ، تلخيصا أفضل مما فعل رائد الطب في عصرنا . ففي ذكرى هارفي السنوية ،لقى السير وليم أوسلر خطابا في كلية الاطباء الملكية بلندن ، عن حركة القلب ، يقول فيه .

« . . . انه يتميز بكسر الروح الحديثة للتقاليد القديمة . ماعاد هناك أناس يقنعون بالملاحظة الدقيقة والوصف الشامل ، ماعاد هناك أناس يكنفون بالنظريات الحسنة السبك والاحلام الجيدة الصياغة ، التى تقوم بوظيفة عذر عام للجهل ، ولكن يوجد هنا ، للمرة الاولى ، مسألة فسيولوجية عظمى نتناولها من الجانب المدعم بالتجارب العملية التى قام بها رجل ذو عقل علمى حديث ، استطاع أن يزن البراهين ولايذهب بعيدا عنها ، وممكنه ادراكه من ان يترك النتائج تبرز طبيعيا وبثبات من الملاحظات . فذلك العصر، عصر السامعين ، الذى سمع فيه الناس ، وسمعوا فقط ، قد

تلاه عصر العين الذي رأى فيه الناس وقنعوا بمجرد الرؤية فقط،
ثم جاء أخيرا عصر اليد - اليد المفكرة والمصممة ، اليد العاملة
كأداة للعقل ، تقدم الآن ثانية للعالم في كتيب متواضع قوامه
اثنان وسبعون صفحة ، نجرؤ على أن نبدا منها تأريخ بداية
«الطب التجريبي» .

١٣ - نظام العالم

السير اسحق نيوتن Sir Isaac Newton

النظريات الرياضية Principia Mathematica

كان « كتاب النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية
Philosophiae Naturalis Principia Mathematica

للسير اسحق نيوتن أشهر جميع الكتب ذات التأثير العميق على
أمور البشر كما أنه ما من كتاب من تلك قرأه أشخاص أقل ممن
قرءوا ذلك الكتاب . فقد كتبه مؤلفه ، في تودة ، باللغة اللاتينية
الفنية البالغة الغموض والموضحة بالكثير من الاشكال الهندسية
المعقدة . وبدا اقتصرت قراءته على علماء الفلك والرياضيات
والطبيعة الواسعى الاطلاع .

وقال واحد من أشهر كتاب حياة نيوتن ، انه عندما نشر كتاب
مبادئ الرياضيات في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، لم
يكن هناك على قيد الحياة من استطاع فهمه ، أكثر من ثلاثة أو
أربعة رجال . وزاد كاتب آخر هذا العدد الى عشرة أو اثني عشر .

وقد اعترف نيوتن نفسه بأنه «كتاب صعب» ، ولكنه لم يد أيه
أعذار لكونه صممه على ذلك النحو ولم يجعل به أية تسهيلات
للأميين رياضيا .

ورغم هذا ، يفرر مشاهير رجال العلوم ان نيوتن من أعظم
الشخصيات الفكرية فى العصر كله . فوصف لابلاس Laplace
العالم الفلكى الفرنسى الالمى ، كتاب النظريات الرياضية بأنه
«المتفوق على جميع ما أنتجته العبقرية البشرية» . واكد لاجرانج
Lagrange عالم الرياضيات الدائع الصيت ، ان نيوتن
اعظم نابغة عاش على وجه الارض . وصف بوليزمان
Boltzmann رائد العلوم الطبيعية والرياضية الحديثة ،
ذلك الكتاب بأنه أول واعظم كتاب الف فى العلوم الطبيعية
الرياضية ، فى العالم كله . وأبدى العالم الفلكى الأمريكى الشهير
كامببل W.W. Campbell ملاحظته قائلا : « الجلى لى أن
السير اسحق نيوتن الجدير بحق بأن يكون أعظم رجل فى العلوم
الطبيعية الرياضية فى جميع عصور التاريخ ، يتمتع بمكانة فريدة
بأنه الرائد العظيم فى العلوم الطبيعية الفلكية» . وكذلك كتبت
تعليقات رواد علوم الطبيعة فى القرنين ونصف القرن الماضية ،
بمثل ذلك الثناء والاحلال والتميز . ويجب على العلمانيين أن
يتقبلوا حكم هؤلاء على هذه الحقائق المبنية على النتائج .

ولد نيوتن بعد وفاة كوبرنيكوس بمدة قرن بالضبط ، وفى
نفس السنة التى مات فيها جاليليو ، كون هذان العملاقان فى عالم
الفلك ومعهما يوحنا كبلر ، الاسس التى بنى نيوتن نظرياته
عليها .

كان نيوتن ساحرا رياضيا فى عصر علماء الرياضيات
الموهوبين . وكما أشار مارفين Marvin : كان القرن
السابع عشر عصر ازدهار الرياضيات ، كما كان القرن الثامن عشر

عصر ازدهار الكيمياء ، والقرن التاسع عشر عصر ازدهار علوم الاحياء ، ورات الاربعون سنة الاخيرة من القرن السابع عشر خطوات تقدمية اكثر من أية فترة في التاريخ كله» . فقد جمع نيوتن في نفسه أعظم العلوم الطبيعية – الرياضيات والكيمياء والطبيعة والفلك – اذ كان بوسع العالم ، في القرن السابع عشر ، قبل عصر التخصص ، أن يستوعب كافة المجالات .

واذ ولد نيوتن في يوم عيد الميلاد لسنة ١٦٤٢ رأى في اوليات سننى حياته سقوط حكومة الكومنولث لرئيسها أوليفز كرومويل Oliver Cromwell ، والحريق العظيم الذى دمر لندن عن آخرها ، والطاعون المستشري الذى قضى على ثلث سكان تلك المدينة . وبعد ١٨ سنة قضاها نيوتن في قرية وولثورب Woolsthorpe الصغيرة ، أرسل الى جامعة كامبريدج حيث ساعده الحظ بأن وضعه تحت ارشاد مدرس عبقرى كفاء هو اسحق بارو Isaac Barrow استاذ الرياضيات الذى اطلق عليه اسم «الاب العقلى» لنيوتن . لس بارو النبوغ في نيوتن الشاب ، فشجع ذلك النبوغ النامى وحفزه . وبينما كان نيوتن مازال طالبا في الكلية اكتشف نظرية ذات الحدين .

أقفلت جامعة كامبريدج ابوابها سنة ١٦٦٥ بسبب الطاعون، فعاد نيوتن الى الريف . ظل معظم السنتين التاليتين معزولا عن العالم ، فكرس نفسه للتجارب العلمية والتفكير ، فكانت النتائج مدهشة . فقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره قام بثلاثة اكتشافات اعلت قدره ووضعت في مصاف العقول العلمية الفذة لجميع العصور . فأولا ، اخترع حساب التفاضل الذى اطلق عليه نيوتن اسم Fluxions لانه يدخل في جميع مسائل الزيادة وحركة الاجسام والتموجات ، وضرورى لحل المسائل الطبيعية ، ويتناول كل نوع من الحركة . «بدو أنه يفتح الابواب الجانبية

لمخزن الكنوز الرياضية ، ويضع عالم الرياضيات تحت اقدام نيوتن واتباعه» .

اما الاكتشاف العظيم الثانى لنيوتن فهو قانون تركيب الضوء ، الذى بموجبه اخذ يحلل الالوان والنور الابيض . فبرهن على ان ضوء الشمس الابيض يتألف من جميع الوان قوس قزح . اذا ، فاللون خاصية للضوء . وظهور الضوء الابيض - كما اوضح بالتجربة بواسطة منشور - ينتج عن اختلاط الوان الطيف . وبالمعارف التى اكتسبها نيوتن من هذا الاكتشاف ، استطاع ان يصنع اول تلسكوب عاكس ذى نتائج باهرة .

اما الفكرة الثالثة فجديرة بالملاحظة العظمى ، وهى قانون الجاذبية العام الذى يقال انه اثار خيال العلماء اكثر مما اثاره أى اكتشاف نظرى آخر فى العصور الحديثة . فتبعاً لقصة موثوق بها ، جاءت هذه الفكرة لنيوتن عندما لاحظ سقوط تفاحة ، فساقته الى صياغة هذا القانون . لم يكن هناك جديد على فكرة جذب الارض للجسام القريبة من سطحها . ولكن ما أسهم به نيوتن فى الذخيرة العلمية هو تخيله العظيم الذى جعل قانون الجاذبية هذا المبدأ فى استخداماته : للجرام السماوية قوة جذب لا تقل عن قوة جذب الارض . وبعد ذلك قدم البرهان الرياضى لنظريته .

الغريب ان نيوتن لم ينشر شيئاً عن هذه الاكتشافات الثلاثة البالغة الأهمية : التفاضل والالوان والجاذبية . واذا كان ذا طبيعة مولعة بكتمان أسراره والاحتفاظ بمعلوماته فى طيات صدره ، فانه كان يمت ملاحظات الجمهور ومجادلاتهم . وعلى ذلك كان يميل الى حجز نتائج تجاربه . وكل مانشره فيما بعد كان تحت ضغط أصدقائه ، ثم ندم بعد ذلك على خضوعه لهم واستجابته لتوسلاتهم ، فقد نجم عن ذلك النشر ان قام زملاؤه العلماء بنقد

مؤلفاته والمجادلة فيها ، وهذا ما كان يشمئز منه نيوتن بسبب طبيعته الحساسة .

بعد الاعتزال الاجبارى والفراغ بسبب سنوات انتشار الطاعون ، عاد نيوتن الى كامبريدج ، ونال درجة استاذ وعين زميلا في كلية ترينيتى Trinity . وبعد ذلك بفترة قصيرة تقاعد استاذاه السابق بارو ، فصار نيوتن وهو فى السابعة والعشرين من عمره استاذا للرياضيات ، وهذا مركز احتفظ به نيوتن لمدة السبع والعشرين سنة التالية . لم يسمع عن نيوتن فى العشر أو العشرين سنة الأولى سوى القليل . والمعروف أنه استمر فى أبحاثه عن الضوء ، ونشر صحيفة عن اكتشافه عن الطبيعة المركبة للضوء الأبيض . وبعد هذا مباشرة ، وقع فى المجادلات . فأولاً ، كانت نظرياته عن الضوء تعارض النظريات السائدة وقتذاك ، وثانياً لانه ضمن صحيفته حقيقة عن فلسفته للعلوم الطبيعية . فأكد فى هذه الصحيفة وجهة نظره بأن الوظيفة الرئيسية للعلوم الطبيعية هى القيام بالتجارب المصممة بعناية ، وتسجيل الملاحظات على هذه التجارب ثم صياغة القوانين الرياضية المبنية على النتائج . وكما قال نيوتن : «الطريقة المثلى لمعرفة خواص الاشياء ، هى استنتاجها من التجارب» . ورغم اتفاق هذه النظرية تماما مع الأبحاث العلمية الحديثة ، فلم تكن مقبولة تماماً بحال ما فى عصر نيوتن ، إذ كانوا يفضلون المعتقدات المبنية على الخيال والعقل ومظهر الاشياء ، وهى الموروثة عادة عن قدامى الفلاسفة ، يفضلونها على البراهين وليدة التجارب .

غضب نيوتن لهجوم مشاهير العلماء على صحيفته ، ولاسيما هوبجنز Huygens وهول Hookc ، فقرر أن يتحاشى مثل هذا الغيظ مستقبلاً ، بالأ ينشر شيئاً بعد ذلك ، قائلاً : «لقد اضطهدت من جراء تلك المناقشات التى نجمت عن نشر نظيرتى عن الضوء ، حتى اننى لمت حكمتى فى اعلان مثل هذه النعمة

العظيمة كما لو كنت أجرى وراء ظل» كما عبر عن عدم التدقيق الحاد للعلوم نفسها مؤكدا أنه فقد «ولعه» السابق بها . وبعد مدة توسل اليه وتملق وألح عليه في «كتابة مؤلفه العظيم» النظريات الرياضية» . والحقيقة هي أنه يبدو أن خلق هذا الكتاب جاء وليد الصدفة .

في سنة ١٦٨٤ قام بيكار Picard بحسابات دقيقة لمعرفة طول محيط الكرة الارضية بالضبط ، لأول مرة . فاستخدم نيوتن المعلومات التي توصل اليها ذلك الفلكي الفرنسي مع نظرية الجاذبية ، للبرهنة على أن القوة التي تسير القمر حول الارض ، والكواكب حول الشمس ، هي قوة الجاذبية . تتناسب هذه القوة تناسباً طردياً مع كتلة الاجسام المتجاورة ، وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها . ومن هذا ذهب نيوتن بعد ذلك ليبرهن على أن هذا هو مايجعل أفلاك الكواكب اهليلجية الشكل . فقوة شد هذه الجاذبية هي التي تحافظ على دوران القمر والكواكب في أفلاكها موازنة القوة الطاردة المركزية لحركاتها .

وللمرة الثانية أخفق نيوتن في البرهنة على اكتشافه لظاهرة أعظم أسرار انطبيعة . وتصادف أن شغل علماء آخرون في البحث من حل لنفس هذه القضية . اقترح كثير من علماء الفلك أن الكواكب ترتبط بالشمس بقوة الجاذبية . كان من بين هؤلاء روبرت هوك أعظم نقاد نيوتن المتعصبين المعاندين . بيد أنه لم يستطع أى واحد من هؤلاء أن يقدم برهاناً رياضياً . في تلك الاثناء كان نيوتن قد حظى بشهرة بالغة كعالم في الرياضيات ، وزاره في كامبريدج العالم الفلكي ادمند هالى Edmund Halley يطلب مساعدته . وعندما بسط هالى قضيته ، علم أن نيوتن حلها قبل ذلك بسنتين . ويادة على هذا ، وكع نيوتن القوانين الأساسية لحركة الأجسام المتحركة تحت قوة الجاذبية . وبطبيعة الحال ، لم يكن نيوتن يعتزم نشر اكتشافاته .

ادرك هالى من فوره أهمية اكتشافات نيوتن ، فاستخدم كل مالمديه من قوة الحث لاقتناع نيوتن بوجود نشر اكتشافه والافادة منه . تأثر نيوتن بحماس هالى ، وبشغفه هو نفسه الذى اشعل من جديد ، فبدأ يكتب أروع مؤلفاته «النظريات الرياضية» الذى وصفه لانجر بأنه «خزان حقيقى لفلسفة الرياضيات ، وأعظم المؤلفات الطريفة التى انتجها العقل البشرى» .

والظاهرة البارزة فى كتاب «النظريات الرياضية» التى لاتقل أهمية عن غيرها ، هى انه استغرق فى تأليفه ثمانية عشر شهرا ، شغل نيوتن ايامها لدرجة أنه كثيرا ماكان ينسى طعامه ولاينال غير قدر يسير من النوم . لايستطيع اخراج مثل هذا العمل الذهنى الضخم فى مدة وجيزة كهذه الا التركيز المستمر والبالغ الشدة . والحق أن ذلك العمل انهك نيوتن ذهنيا وبدنيا .

وزيادة على ذلك ، لم ينعم نيوتن براحة البال ابان تأليفه لذلك الكتاب ، وانما ازعجته اياما ازعاج تلك المجادلات الدائمة ولاسيما من جانب هوك الذى ألجأ فى أن يكون له شرف اكتشاف نظرية التربيع العكسى للجاذبية فى حركة الكواكب . وكان نيوتن عندئذ قد أتم ثلثى كتابه ، فأغضبه ذلك الادعاء غير العادل لدرجة أنه هدد بحذف الجزء الثالث الأعظم أهمية . وهنا تدخل هالى مستخدما نفوذه وظل يلج على نيوتن فى أن يكمل كتابه حسبما خطط له أولا .

لعب ادمندهالى دورا فى تاريخ كتاب النظريات الرياضية يستحق عنه اسمى تقدير ، ليس فقط لانه المسئول عن حث نيوتن على القيام بذلك العمل ، بل ولانه حصل على موافقة الجمعية الملكية على نشره ولم يذكر كل ما فعله فى الاشراف النهائى لخراج ذلك الكتاب من المطبعة . وأخيرا عندما تكثت الجمعية الملكية وعدها بتمويل نشر ذلك الكتاب ، قام هالى نفسه بسداد جميع

التفقات من جيبه الخاص رغم كونه متوسط الحال ويعول أسرة .

بعد ان تخطى ذلك الكتاب جميع العقبات ، خرج من المطبعة في سنة ١٦٨٧ في حجم صغير بيع بعشرة شلنات او اثني عشر شلنا للنسخة الواحدة. وظهر في الصفحة المخصصة لعنوان الكتاب واسم مؤلفه ، ظهر اسم صموئيل بيبز Samuel Pepys رئيس الجمعية الملكية على انه صاحب الترخيص لطبع ذلك الكتاب رغم انه من المشكوك فيه ، كما ذكر احد النقاد : «ما اذا كان يفهم جملة واحدة منه» .

من الصعب عمل اى ملخص لذلك الكتاب بلغة غير فنية ، ان لم يكن مستحيلا . ولكن يمكن عمل بعض التوضيحات . يتناول المؤلف في جملته ، حركة الاجسام من الناحية الرياضية ، وخصوصا من حيث الديناميكا والجاذبية العسامة للمجموعة الشمسية . فيبدأ بشرح حسابات التفاضل الذى اخترعه نيوتن واستخدمه في جميع العمليات الحسابية بذلك الكتاب . وبعد ذلك تعريف معنى الفضاء والزمن وبيان قوانين الحركة كما صاغها نيوتن مع الاشكال الموضحة لاستعمالها . فتقول النظرية الاساسية ان كل ذرة من المادة تجذبها كل ذرة اخرى من المادة بقوة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها وبين كل ذرة . كذلك بين القانون الذى تخضع له الاجسام المتصادفة بعضها مع بعض . وقد شرح وعبر عن كل شىء بصور هندسية كلاسيكية .

يتناول الجزء الاول من كتاب النظريات الرياضية حركة الاجسام في الفضاء الطلق ، بينما يتناول الجزء الثانى الحركة في «وسط مقاوم» كالماء . وقد وضع نيوتن في اعتباره مسائل حركة السوائل وطرق حلها ، وناقش طرقاً لتقدير سرعة الصوت

وحركة الامواج بالشرح الرياضى . وهنا وضع أساس علم
الطبيعات الرياضية الحديث والايديوستاتيكا والايديوديناميكا .

قوض بيوتن ، فى الجزء الثانى ، ذلك النظام الكونى الذى
وضعه ديكارت Descartes ، والذى كان شائعا وقتذاك
تقويضا تاما . فتبعنا لنظرية ديكارت : تتحرك الاجسام السماوية
بناء على حركة دوامية . فالفضاء كله ، تبعاً لتلك النظرية ملئ
بمادة مائعة خفيفة تحدث دوامات فى نقط معينة . فمثلا ، تتألف
المجموعة الشمسية من اربع عشرة دوامة اكبرها تضم الشمس .
اما الكواكب فتدور كما تدور قطع الاوراق فى دوامة الاعاصير
الحلزونية . فسر ديكارت ظاهرة الجاذبية بهذه الدوامات فلما
جاء نيوتن ، اخذ يبرهن بالتجارب والعمليات الرياضية ، وبدا
اثبت ان «نظرية الدوامات تتعارض تماما مع الحقائق الفلكية .
ولذا فهى بعيدة كل البعد عن تفسير حركة الاجرام السماوية
وتقليها رأسا على عقب» .

أما فى الجزء الثالث ، وعنوانه «نظام الكون» فقد بذل نيوتن
قصارى مافى ذهنه اذ تناول النتائج الفلكية لقانون الجاذبية ،
فكتب يقول عن نفسه :

« وضعت ، فى الجزئين السابقين نظريات الفلسفة (المعلوم) ،
تلك النظريات الرياضية وليست الفلسفية .. هذه النظريات هى
قوانين وشروط حركات معينة أو قدرات أو قوات .. شرحتها
هنا وهناك ... ب ... تبعاً لامور ذات طبيعة عامة ... مثل
كثافة الاجسام ومقاومتها والفضاء الخالى من جميع الاجسام ،
وحركة الضوء والصوت . يتبقى من نفس تلك النظريات أن اشرح
هيكلاً نظام الكون» .

شرح نيوتن السبب فى عدم جعله مؤلفه شعبياً ، فقال :

كتب غيرت العالم - ٢٥٧

«الحقيقة أننى الفت الجزء الثالث عن هذا الموضوع بطريقة شعبية كى يقرأه الكثيرون ، ولكن حدث بعد ذلك أننى لما رايت أن أولئك الذين لم يدرسوا تلك النظريات دراسة كافية لايمكنهم ادراك قوة النتائج فى سهولة ، كما أنهم لن يتخلوا عن العقائد والتعصبات التى تعودواها منذ عدة سنوات ، لذا ، تحاشيا للمنازعات التى قد تنجم بسبب ذلك ، قررت اختصار مادة هذا الكتاب فى صورة مقترحات (بالطريقة الرياضية) لايقروها غير الذين استوعبوا النظريات التى تضمنها الجزءان السابقان استيعابا جيدا . كما أننى لاأشير على أحد بدراسة كل نظرية فى الجزءين السابقين لأنها تستغرق وقتا طويلا حتى من ذوى الدراسات الرياضية الطيبة» .

لهذا السبب ، وصف أسلوب كتاب «النظريات الرياضية» بأنه «بالغ الصعوبة ومكتوب بطريقة متناهية التعقيد لايحبا إليها إلا كاهن سام» .

استهل نيوتن كلامه فى هذا الجزء بذكر حقيقة أساسية تختلف عن النظريات الماضية تماما ، وهى أنه ليس هناك فرق بين الظواهر الأرضية والظواهر السماوية ، مؤكدا أن الآثار المتشابهة فى الطبيعة تنتج عن أسباب متشابهة . فمثلا ، التنفس فى الإنسان وفى الحيوان ، وسقوط الأحجار فى أوروبا وفى أمريكا ، وضوء نار المطبخ وضوء الشمس ، وانعكاس الضوء على الأرض وعلى الكواكب . وهكذا دحض الاعتقاد القديم القائل بأن العوالم الأخرى كاملة والأرض وحدها هى غير الكاملة . ولكن نيوتن أثبت أن الجميع يخضع لنفس القوانين المعقولة ، كما قال ماك موراي Mac Murray : « يسبب النظام والعمل الرتيب حيث سادت الفوضى والغموض فى العهد الماضى» .

هذا ، وان مجرد عمل قائمة بالموضوعات التى تناولها الجزء

الثالث لدهش حقا . فقد أثبت ، بما لا يترك مجالاً للشك ، حركات الكواكب وحركات توابعها حولها وأوضح طرق قياس كتل الشمس والكواكب ، وناقش وفسر مواضيع كثافة الأرض واستقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي ونظرية المد والجزر وأفلاك المذنبات وحركة القمر وكل الأمور المتعلقة بهذه المواضيع .

أثبت نيوتن ، بواسطة نظريته عن «الاضطرابات» ، أن الأرض والشمس تجذبان القمر ، وهكذا يضطرب ذلك القمر بجذب الشمس رغم أن جذب الأرض له أقوى من جذب الشمس . وكذلك الكواكب عرضة للاضطرابات . وليست الشمس هي المركز الثابت للكون ، على عكس المعتقدات السابقة ، بل تجذبها الكواكب كما تجذب هي الكواكب فتتحرك بنفس الطريقة . وفي القرون اللاحقة أدت نظرية الاضطرابات الى اكتشاف كوكبي نبتون وبلوتو .

أوجد نيوتن مقادير كتل الكواكب وكتلة الشمس بمقارنتها بكتلة الأرض . قدر كثافة الأرض بما يتراوح بين خمس وست مرات كثافة الماء (الكثافة التي يستعملها علماء الطبيعة اليوم هي ٥٥٥) . وعلى هذا الأساس حسب نيوتن كتل الشمس والكواكب وتوابعها . وهذا عمل وصفه آدم سميث Adam Smith بأنه «فوق مدى العقل والعمل البشريين» .

تأتي بعد ذلك الحقيقة القائلة بأن الأرض ليست كرة منتظمة التكور ، بل مسطحة عند القطبين بسبب الدوران ، فشرحا نيوتن وحسب مقدار التسطح . استنتج نيوتن بناء على تسطح الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء ، أن الجاذبية لا بد أن تكون عند القطبين أقل منها عند خط الاستواء - وهذه الظاهرة تفسر «الاستقبال» في الاعتدالين والحركة المخروطية لمحور

الارض على غرار الخدروف . وبدراسة شكل الكوكب امكن تقدير طول الليل والنهار على ذلك الكوكب .

استخدم نيوتن قانون الجاذبية الكونية في بحثه عن اسباب المد والجزر . فعندما يكون القمر بدرا يقع على مياه الارض اقصى جذب ، فينتج المد . كذلك تؤثر الشمس على المد والجزر . فعندما تكون الشمس والقمر على خط واحد ، يبلغ المد ذروته .

كذلك هناك موضوع يحظى باهتمام الجميع التى نيوتن عليه النور ، الا وهو موضوع المذنبات . كانت نظريته ان المذنبات اذ تسير تحت جاذبية الشمس ، تتخذ مسارات اهليلجية ذوات مدى بالغ البعد يحتاج قطعه العديد من السنين . لذا فان المذنبات التى اعتبرتها الخرافات نذير شؤم ، تبوات مكانها الصحيح كظواهر سماوية جميلة وعديمة الاذى . وقد استطاع ادمندهالى باستخدام نظريات نيوتن عن المذنبات ، ان يعرف على المذنب الشهير المعروف ، باسم «مذنب هالى» . ويتنبأ عن موعد ظهوره بالضبط كل ٧٥ سنة . وما ان يشاهد المذنب حتى يمكن تحديد مساره مستقبلا بالضبط .

ومن الاكتشافات العظيمة المدهشة التى قام بها نيوتن ، طريقة تقدير بعد نجم ثابت ، مبنية على كمية الضوء التى يمكن الحصول عليها بانعكاس اشعة الشمس من كوكب .

لم يبد كتاب «النظريات الرياضية» اية محاولة لشرح السبب وانما شرح فقط الكيفية الكونية . وبعد ذلك رد نيوتن على التهم بأن طريقته كانت طريقة ميكانيكية بحتة ، دون ذكر اية اسباب ولا نسبة الى الخالق الاعظم ، فاضاف اعترافه وايمانه بالخالق فى الطبعة الثانية لمؤلفه ، فكتب يقول :

» لايمكن ادراك هذا النظام البديع للشمس والكواكب

والمذنبات الا بتوجيه وسيادة كائن بالغ الذكاء والقوة فكما انه ليست لدى الاعمى اية فكرة عن الالوان ، كذلك ليس لدينا اية فكرة عن الكيفية التى يصرى بها الله الكلى الحكمة ، جميع الاشياء ويفهمها» .

كان نيوتن يعتقد ان وظيفة العلوم هى بناء المعلومات وتنميتها ، وكلما كثر كمال معارفنا كثر اقترابنا من فهم السبب رغم ان الانسان قد لا يكتشف قط قوانين الطبيعة العلمية الصحيحة .

لما كان كتاب «النظريات الرياضية» عملا وليد الذكاء المفرط فان المعجبين بنيوتن المتحمسين له ، يؤكدون انه لم يكتب فى الفراغ .
فكما ذكر كوهين Cohen :

« بنيت نظريات نيوتن العظيمة . على اعمال سابقه لقد انتج الماضى السابق مباشرة ، الهندسة التحليلية من ابتكار شيكارت وفورما Format ، والجبر من ابتكار أوجترد Oughtred وهاريوت Harriot و واليس Wallis وقانون الحركة لكبلر ، وقانون الاجسام الهابطة لجاليليو . وكذلك أنتج قانون تكوين السرعات لجاليليو - وهو قانون يقول انه يمكن تحليل حركة ما الى مركبات كل منها مستقلة عن الاخرى (فمثلا، تتألف حركة القديفة من سرعة امامية منتظمة وسرعة الى أسفل ذات عجلة ، مثل حركة جسم مطلق هابط) وهذا قليل من كثير من المكونات انحاضرة التى تنتظر نظريات نيوتن العظمى . ولكن يبقى امام عبقرية نيوتن أن تضيف اليها اللمسة الاخيرة العظمى، ليبرهن اخيرا ولاخر مرة كيف يسير نظام الكون تبعا لقانون رياضى» .

كان من الجلى ، كما ذكر جان Jeans ، أن العالم

بحاجة الى رجل بوسعه أن يضيف النظريات ويستنتجها ويطلقها، فوجد ذلك الرجل ، بامتياز رائع ، في شخصية نيوتن» .

اعترف نيوتن نفسه بأن «نظامه للعالم» علم ميكانيكا الكون مبنى على أعمال بدأها كوبرنيكوس وأخذها عنه تيكو براهي وكبلر وجاليليو . وقال نيوتن : «إذا كنت قد رأيت أبعد مما رأى غيري من الرجال ، فانما ذلك لوقوفي على اكتاف العمالقة » .

والواقع أن السبب المحتمل للمعارضات والمناقشات التي ملأت حياة نيوتن ، هو الاختمار الذهني السائد في عصره . كان الجو زاخرا بالنظريات الجديدة التي فحصها عدد كبير من العلماء الاكفاء . ولايدهشنا أن يكتشف رجلان نفس الاكتشاف في وقت واحد تقريبا ، وكل منهما مستقل عن الآخر . يبدو أن هذا حدث بالضبط في اكتشاف نيوتن الرئيسيين اللذين اكتشفهما لابينز وهوك . فاخترع لابينز حساب التفاضل ، وعدل هوك في نظرية الجاذبية الكونية بعد أن ابتكرهما نيوتن بوقت ما . ولكنهما اعلناهما للعالم قبل نيوتن الذي أهمل في نشر مؤلفه .

استقبل معاصرو نيوتن كتابه «النظريات الرياضية» ، في انجلترا واسكتلندا بترحاب أكثر من استقبال الناس له في القارة الأوروبية ، ولكنه استقبل ببطء في كل مكان . وكما تنبأ نيوتن ، احتاج فهمه الى مقدرة رياضية عظيمة ، ومع ذلك فان طريقة عرضه الخارفة جعلت الناس ، حتى من كانت لديهم فكرة بسيطة عن مؤلفه يقبلون عليه . وشيئا فشيئا قبل العلماء ، في كل مكان، نظريات نيوتن ، وفي القرن الثامن عشر سلفوا بها في عالم العلوم .

يبدو أن نيوتن فقد كل متعة فعالة في الأبحاث العلمية بعد أن كتب «النظريات الرياضية» ، رغم أنه عاش مدة أربعين عاما

بعد نشره ، تسلم خلالها عدة تكريمات مشرفة : فعين مديرا لدار
السكة ، ومنحته الملكة آن Anne لقب فارس ، وانتخب
رئيسا للجمعية الملكية منذ عام ١٧٠٣ ، حتى وفاته في سنة ١٧٢٧ ،
ورأى نشر الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه . وعلى العموم ،
قدر اسمى تقدير ونال اعظم اجلال .

عدلت الاكتشافات العلمية في القرن العشرين في نظريات
نيوتن او اظهرت عدم ملاءمة بعضها ، وخصوصا فيما يتعلق بعلم
الفلك . فمثلا ، اكدت نظرية اينشتين في النسبية ان الفضاء
والزمن ليسا مطلقين كما علم نيوتن . وعلى العموم ، فكما ذكر
بعض الثقاق الحجة في العلوم والتكنولوجيا ، ان تركيب ناطحة
السحاب ، وامن جسر سكة حديدية ، وحركة السيارة ، وتحليق
الطائرة ، وملاحة السفينة عبر المحيط ، وقياس الزمن وما الى
ذلك من الادلة في حضارتنا المعاصرة ، لانزال تتوقف اساسا على
قوانين نيوتن . وكما كتب السير جيمس جانز : «ليست نظريات
نيوتن مناسبة فقط فيما يختص بالتهدييات البالغة السمو للعلوم
الحديثة ، بل وان الفلكي عندما يريد اعداد تقويمه الملاحى او
مناقشة حركات الكواكب ، يستعمل نظريات نيوتن وحدها تقريبا .
والمهندس الذى يريد تشييد جسر او بناء سفينة او تصميم
سيارة ، يعمل تماما ماكان يعمله في حالة ما اذا كانت نظريات نيوتن
لم يبرهن على عدم مناسبتها . ونفس الشئ صحيح مع المهندس
الكهربى سواء اكان يصلح تليفونا او يصمم محطة لتوليد
الكهرباء . لانزال العلوم المستعملة في حياتنا اليومية ، مبنية على
قوانين نيوتن . ومن المستحيل تقدير ماتدين به هذه العلوم لعقل
نيوتن الصافي والثاقب ، الذى وضعها على الطريق الصحيح ،
وان نظرياته لراسخة ومقنعة لدرجة انه ما من احد فهمها واستطاع
ان يشك في صحتها » .

لابد للثناء والتقريظ اللذين نالهما نيوتن على لسان أينشتين
أن يمحو أى قدح من الفلاسفة منافسيه «اذ كانت الطبيعة أمامه
كتابا مفتوحا استطاع قراءة حروفه دون عناء . لقد ضم فى شخص
واحد : العالم القائم بالتجارب ، وصانغ النظريات والميكانيكى
والمتفنن فى التعبير» .

قدر نيوتن حياته وهو فى آخر أيامه تقديرا يتسم بالتواضع،
فقال : «لست أدرى ماذا أبدو أمام العالم ، ولكنى أبدو أمام نفسى
كفلام على شاطئ البحر ، يتسلى من أن الى آخر بالعثور على
حصاة أكثر ملاسة أو صدفة أجمل من العادية بينما يقع محيط
الحقيقة الخضم كله أمامى دون أن يكتشف» .

١٤ - بقاء الاصلح

تشارلز داروين Charles Darwin

اصصل الاجناس

بتطابق عجيب شهد عام ١٨٠٩ مولد قادة عظام بدرجة خارقة للعادة ، ربما كان ذلك أكثر من أية سنة بعينها في التاريخ كله . قدر لكل عظيم منهم أن يكون مبرزا في مجاله . فهذان تشارلز داروين «نيوتن علم الاحياء» ، وإبراهام لنكولن الرجل العظيم الذي تبني موضوع عتق العبيد وحققه ، ولدا في نفس اليوم وكاد مولدهما أن يكون في نفس الساعة . ومن بين عظماء الرجال الذين رأوا النور في تلك السنة نفسها ، جلادستون Gladstone وتينيسون Jennyson وادجار آلان بو Edgar Allan Poe ، وأوليفر وندل هولمز Oliver Wendell Holmes ، واليزابيث باريل براوننج Elizabeth Barell Browning وفيلكو ماندلسوهن Felix Mendelssohn .

ما من أحد من هؤلاء الاسماء الشهيرة ، وفي الواقع من بين

جميع الملايين المولودين في القرن التاسع عشر ، وربما ، باستثناء كارل ماركس ، مامن أحد فعل أكثر من داروين في تغيير الاتجاهات الرئيسية للفكر ، وخلق نظرة جديدة في المواضيع البشرية . وان «الداروينية» فكرة ثبتت ورسخت تماما في عقول الشعب مثل الماركسية والمثوسية والماكيافلية .

على الرغم من أن المبادئ الأساسية للنظريات الداروينية ، تحظى اليوم بقبول عام تقريبا في العالم العلمي ، فقد ثارت المجادلات حولها في مدى قرن تقريبا . والمعارك الأساسية الحديثة للقرنين التاسع عشر والعشرين التي بلغت ذروتها في مجالات « موضوع القرود » في ولاية تينيسى Tennessee من بين الامثلة القليلة لحرية بدأت في عام ١٨٥٩ ، ولم تبدأ أمارات الهدنة من هذه الهجمات الا حديثا .

لم يبد داروين وهو شاب سوى القليل من الدلائل على أنه سيكون عالما ذا شهرة عالمية . . . انحدر من أسرة تضم عددا من العلماء المبرزين والرجال المحترفين ، ولكن ، حتى والده نفسه ، ساوره شك بالغ فيما اذا كان ابنه سيصير شيئا ما . ففي مدرسة «قواعد اللغة» ، ضاقت شارل الصغير بدراسة اللغات الميتة والمنهج الكلاسيكي الجاف البالغ الصعوبة . وقد أنه ناظر تلك المدرسة على تضييع وقته في التجارب الكيميائية وجمع الحشرات والمعادن . ولكي ينهج نهج أبيه ، أرسل الى جامعة ادنبره وهو في السادسة عشرة ليدرس الطب . وبعد قضاء سنتين فيها ، قرر أن مهنة الطب ليست له . فنقل الى كامبريدج ليتدرب على الكهنوت للكنيسة الانجليزية .

من وجهة نظر الدراسة الشكلية ، اعتبر داروين أن دراسة السنوات الثلاث في كامبريدج كانت مضيعة للوقت . بيد أن الحظ ساعده هناك بأن صادق أستاذين ذوي نفوذ بالغ . قضى داروين

وقتنا طويلا مع هنسلو Henslow أستاذ علم النبات ،
وسدجويك Sedgwick أستاذ الجيولوجيا ، في رحلات الى
الحقول يجمع الخنافس وملاحظات التاريخ الطبيعي .

نال داروين عرضا ، عن طريق سدجويك ، بالابحار كعالم
طبيعى على ظهر سفينة البحرية «بيجل Beagle» . فخرج
في بعثة للقيام بمسح وأوسع النطاق في نصف الكرة الجنوبي . وفي
السنوات التى تلت تلك الرحلة ، اعتبرها داروين «أهم وأعظم
حدث في حياتي» . فقد قررت هذه الرحلة مجال مستقبله كله .
وقد ماتت «فكرة مصيره كاهنا ، ميتة طبيعية فوق البيجل» .

رست البيجل ، اثناء السنوات الخمس التالية من ١٨٣١
- ١٨٣٦ ، على كل قارة وكل جزيرة عظمى ، تقريبا ، اثناء دورانه
حول العالم . وطلب من داروين أن يعمل جيولوجيا وخبيراً في علم
النبات وعلم الحيوان وعالما في العلوم الطبيعية بصفة عامة - وهذا
اعداد رائع ممتاز لحياته القادمة في الابحاث والكتابة . فأينما
ذهب ، كان يجمع مجموعات ضخمة من النباتات والحيوانات ،
المتحجرة والحية ، من البرية والبحرية . كان يفحص بعين العالم
الطبيعى ، جميع النباتات والحيوانات التى تعيش على الارض وفى
البحر . فى سهول البامبا بالارجنتين ، ومنحدرات جبال الانديز
Andes « الجافة والبحيرات الملحة والصحارى فى شيكى
واستراليا ، وغابات البرازيل الكثيفة ، وتيرادلغويجو
Tierradel Fuego وتاهيتى ، وجزر الرأس الاخضر المنزوعة
الغابات ، والتكونات الجيولوجية لساحل أمريكا الجنوبية وجبالها
والبراكين الحية والخامدة بالجزر وأراضى القارة ، والحواجر
المرجانية ، والشديدات المتحجرة فى باتاجونيا Patagonia ، والاجناس
البشرية البائدة فى بيرو Peru والوطنيين الاصليين فى تيرادلغويجو
وباتاجونيا .

من بين جميع المناطق التي زارها داروين ، لم تثر أية واحدة منها متعته أكثر مما أثارها جزر جالاباجوس Galapagos الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل غربى ساحل أمريكا الجنوبية . رأى داروين في هذه الجزر البركانية المنعزلة غير المأهولة التي تكاد تكون قاحلة سلاحف عملاقة موجودة في كل مكان كحفريات ليس غير وسحليات ضخمة انقرضت منذ زمن بعيد من أجزاء العالم الأخرى ، وسرطانات عملاقة وسباع بحر هائلة الحجم . وقد أدهشه بنوع خاص أن طيور تلك الجزيرة كانت شبيهة بطيور القارة المجاورة ، ولكنها ليست مطابقة لها . وزيادة على ذلك ، كانت هناك اختلافات بين شتى أجناس الطيور من جزيرة الى جزيرة .

قوت هذه الظواهر الغريبة في جزر جالاباجوس بالإضافة الى بعض الحقائق التي سبق أن لاحظها في أمريكا الجنوبية ، قوت أفكار التطور التي بدأت تتشكل في ذهن داروين ، وهالك روايته هو نفسه :

« دهشت دهشة بالغة عندما اكتشفت في تكوينات البامبا حيوانات حفزية ضخمة مغطاة بدروع كدرع الارماديلو الحالي ، وثانيا بالطريقة التي تحل بها الحيوانات الغريبة التشابه ، أحدها محل الآخر في الاتجاه جنوبا على القارة ، وثالثا بالصبغة الأمريكية الجنوبية لمعظم انتاجات أرخبيل جالاباجوس ، وخصوصا بالكيفية التي تختلف بها اختلافا طفيفا في كل جزيرة من مجموعة الجزر هذه . وما من جزيرة منها تبدو عتيقة جدا ، بالمعنى الجيولوجي » .

ماعاد داروين يصدق اطلاقا تعاليم «التكوين» القائلة بأن كل جنس خلق كاملا وانحدر خلال العصور دون تغير .

وفور عودته الى انجلترا ، شرع يحتفظ بمذكراته عن التطور ،
ويجمع الحقائق عن مختلف الاجناس ، وهذا هو رايه « أصل
الاجناس » . فكتب أول تسويده عن نظريته في سنة ١٨٤٢ وتفع
في ٣٥ صفحة ، ثم وسعها في سنة ١٨٤٤ الى صورة اكمل تقع في
٢٣٠ صفحة . كان اللفز العظيم ، في البداية ، هو كيف يفسر
ظهور الانواع واختفاءها . لماذا تنشأ الاجناس وتتحدور بمرور
الزمن وتتفرع الى عدة انواع ، وتختفى في الغالب من الوجود
تماما ؟

عشر داروين على مفتاح هذا اللفز عندما قرأ ، بمحض
الصدفة ، موضوع مالثوس عن السكان . أبان مالثوس أن معدل
الزيادة في عدد السكان قد أخرته «عوامل اعاقه ايجابية» كالامراض
والحوادث والحروب والجاعات ، فطراً على فكر داروين أن هناك
عوامل مشابهة تعمل على انخفاض عددا الموجود من الحيوانات
والنباتات ، فكتب يقول :

« واذا صرت على اتم استعداد لتقدير قيمة تنازع البقاء
السارى في نل مكان ، من ملاحظاتي المستمرة مدة طويلة لعادات
الحيوانات والنباتات ، طراً على بالي ، في الحال ، انه في مثل
هذه الظروف ، تميل الاجناس الصالحة الى الاحتفاظ بجنسها ،
بينما تندثر أو تهلك الاجناس غير الصالحة . وتكون نتيجة هذا
تكون اجناس جديدة . اذن، تكونت عندي هنا أخيراً نظرية يمكنني
أن أعمل على هديها» .

وهكذا ولد مذهب داروين الشهير «الانتقاء الطبيعي» أو
«تنازع البقاء» أو «بقاء الاصلح» وهذا هو حجر الاساس لكتابة
«أصل الاجناس» .

ظل داروين مدة عشرين سنة يكتب مذكراته ويضع البراهين

على نظرياته . فقرأ كميات ضخمة من النصوص - مجموعات كاملة من المجلات الدورية ، وكتب الرحلات وكتب الرياضيات ، وزراعة الزهور والفاكهة والخضر وتربية الحيوان والتاريخ الطبيعى العام ، فكتب يقول : «عندما أتأمل قائمة الكتب التى قرأتها ولخصتها ، وتشمل مجموعات كاملة من الصحف والصفقات أدهشنى نشاطى» . فتحدث الى خبراء تربية الحيوان والنبات ، وأرسل مجموعات من الاسئلة الى كل من يمكن أن تكون لديهم معلومات مفيدة . أعدت هياكل عظيمة لعدة أنواع من الطيور الاليفة، وقورنت أعمار وأوزان عظامها بعظام أجناس الطيور البرية فقام بتربية الحمام الأليف وأجرى تجارب واسعة فى التهجين . كما أجرى تجارب على الفواكه والبذور الطافية على مياه البحار ، وفحص عدة أمور أخرى تتعلق بانتقال البذور ، مستخدما فى ذلك جميع معلومات علم النبات وعلم الحيوان وعلم الحفريات او الجثث المتحجرة التى اكتسبها من رحلته على ظهر سفينة البحرية «البيجل» . وأضاف الى كمية المعلومات هذه آراءه الشخصية ، اذ كان دائم التفكير فى نظرياته الثورية .

اعتقد داروين أن التدعيم القوي لمذهبه «الانتقاء الطبيعى» جاء من دراسة «الانتقاء الصناعى» . ففى حالة الحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية - الخيول والكلاب والقطط والقمح والشعير وزهور الحدائق ونحوها - أنتقى الانسان وربى منها اكثرها نفعا لاحتياجاته . وهكذا حورت الحيوانات الاليفة والمحاصيل والزهور خلال هذه العملية حتى انه قلما يمكن التعرف على أنها تنتمى الى أسلافها البرية بصلة . فنشأت أجناس جديدة عن طريق الانتقاء . فينتقى المربي الحيوانات ذوات الصفات التى يريدونها ولايربى سواها ، جيلا بعد جيل ، وأخيرا ينتج أجناسا تختلف عما كانت موجودة من قبل . فانواع الكلاب المتباينة ، مثل

الكلب الطويل الجسم ، والقصير الارجل ، و كلب حراسة الاغنام ،
والابيض الطويل الاذان و كلاب الصيد بجميع أنواعها ، منحدره
كلها عن الذئب .

قال داروين ، اذا أمكن احداث التطور بالانتقاء الصناعى ،
فهل تستطيع الطبيعة أن تفعل ذلك بالانتقاء الطبيعى ؟ وفى الطبيعة ،
يحل «تنازع البقاء» محل المربى . لاحظ داروين ، بين جميع
أنواع الحياة ، أن عددا كبيرا من الافراد يجب أن يهلك . لا يستطيع
الحياة من بين المولود منها الا نسبة بسيطة ، تمد بعض الاجناس
بالغذاء اجناس أخرى . تدور المعركة بغير انقطاع . وتبديد المنافسة
العنيفة الحيوانات والنباتات غير الصالحة فتتقرض ، وتحديث
تغييرات فى الاجناس لتلائم الظروف اللازمة لبقائها .

وهكذا أصر داروين على بناء حصن من البراهين لنظرياته
يتحدى كل هجوم . ولكنه أهمل نشرها حتى خمسينات القرن
التاسع عشر . وأخيرا ، بعد الحاح أصدقائه المخلصين ، أخذ يعد
العدة لعمل اثرى يصدر فى عدة مجلدات . غير أنه عندما كان ذلك
العمل فى منتصفه تقريبا ، نزلت صاعقة ، اذ تسلم داروين خطابا
من الفريد روسل والاس Alfred Russel Wallace أحد زملائه
العلماء الذى كان يقوم بأبحاث واكتشافات فى التاريخ الطبيعى فى
أرخبيل الملايو . ذكر والاس أنه هو أيضا يعمل فكره فى أصل
الأجناس ، وأنه ، كما فعل داروين ، قرأ مalthus فأوحى اليه
بذلك العمل . تضمن الخطاب مقالا عن «ميل أنواع الاجناس الى
أن ترحل عن شكلها الاصلى الى غير رجعة» . وكان هذا بالضبط
حقيقة من حقائق نظرية داروين ، فقال داروين : «لو اطلع والاس
على مذكراتي الخطية التى كتبتها فى سنة ١٨٤٢ ، لما عمل ملخصا
خيرا منه (فحتى مصطلحاته هى نفس عناوين أبواب مؤلفى» .

واجهت داروين معضلة . فمن الجلى أن كلا من الرجلين

قد وصل الى نفس النتائج تماما ، ورغم ان كلا منهما كان يعمل وحده بمنأى عن الآخر ومستقلا عنه ، ورغم ان داروين قضى سنوات من الدراسة والتفكير في ذلك الموضوع ، بينما طرأت آراء والاس على تفكيره فجأة . واخيرا استقر الراى على أن يقدم كل منهما اوراقه في الاجتماع التالى للجمعية اللينائية Linaean وبناء على ذلك أعلن لأول مرة عن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي في اول يوليو سنة ١٨٥٨ . وبعد ذلك بفترة قصيرة صدر مقال كل منهما في صحيفة الجمعية .

الهب حادث والاس حماس داروين ، فترك المؤلف الضخم الذى كان يعده ، وقرر ان يكتب ما أطلق عليه «المخلص» . وقرب نهاية عام ١٨٥٩ نشر جون موراي John Murray ، في لندن ذلك الكتاب الذى قدر له ان يصبح حجر الزاوية في تاريخ العلوم . كانت الطبعة الاولى ١٥٠٠ نسخة بيعت كلها في اليوم الأول ، فتبعتها طبعات أخرى حتى بلغ عدد النسخ التى بيعت في حياة داروين (مات في سنة ١٨٨٥) ٢٤٠٠٠ نسخة في إنجلترا وحدها، وترجم ذلك الكتاب الى جميع اللغات المتحضرة تقريبا كان عنوان النسخة الاصلية «أصل الاجناس بواسطة الانتقاء الطبيعي أو بقاء الاجناس الصالحة في التنازع من أجل البقاء» . ثم اختصر الزمن هذا العنوان الطويل الى «أصل الاجناس» .

ناقش داروين الاسس الجوهرية لنظريته في الابواب الاربعة الاولى من كتابه «أصل الاجناس» . وتناولت الابواب الاربعة التالية الاعتراضات الممكنة على هذه النظرية . وبعدها تأتى عدة ابواب تتناول علم طبقات الارض والتوزيع الجغرافى للنباتات والحيوانات ، والحقائق المناسبة لتصنيفها ، وعلم الشكل الخارجى للكائنات وعلم الاجنة . ويلخص الباب الاخير كل ماسبق .

فسر داروين ، في بداية كتاب «أصل الاجناس» تلك التغييرات

التي حدثت للحيوانات الليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التي نتجت عن « الانتقاء الصناعي » بالتغيرات التي حدثت للحيوانات الليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التي نتجت عن « الانتقاء الصناعي » بالتغيرات التي تحدث في الطبيعة او « الانتقاء الطبيعي » فأينما توجد الحياة يحدث التغير باستمرار ، وما من فردين متشابهان تماما .

اضاف داروين تنازع البقاء الى التنوع . فاستعمل بعض الامثلة الشهيرة لشرح كيف تزيد قدرة الكائنات الحية على التكاث ، الى اى حد طالما لها مقدرة على الحياة . وحتى ابطأ الحيوانات في التكاث ، مثل الاقبال ، سرعان ما تملأ الدنيا . فاذا كبر كل فيل الى طول البلوغ وتكاثر طبيعيا ، فانه كما يقول داروين « سيكون هناك بعد مدة من ٧٤٠ الى ٧٥٠ سنة ، سيكون هناك على قبة الحياة نحو الى ١٩ مليون فيل منحدرة من زوج الافيال الاول » . ومن هذا المثال وغيره من الامثلة ، استنتج انه « بما أن عدد الافراد التي تولد تزيد كثيرا على ما يمكن ان يعيش ، فلا بد ان يكون هناك تنازع على البقاء ، اما بين فرد ما وفرد آخر من نفس جنسه ، او بين اجناس مختلفة ، او بين الكائنات الحية وظروف الحياة الطبيعية » . لاشواذ للقاعدة القائلة بأن من نبات او سمك او طائر او حيوان ، ومنه الانسان ، ينتج بدورا الى مالا نهاية اكثر مما يستطيع ان يتلاءم مع العالم المزدهم او اكثر مما يولد . ومعادل الزيادة يتبع متواليه هندسية اى متضاعفة .

كذلك قدم رسما بيانيا للاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية كل على الآخر . وجد داروين ان التلقيح النباتى بواسطة النحل ضرورى لاصحاب ازهار البانسية وبعض انواع البرسيم .

«يتوقف عدد النحل في كل منطقة ، الى حد كبير ، على عدد جردان الحقل التى تتلف خلاياها وأقراص العسل التى تصنعها . . . ويتوقف عدد الجردان كثيرا كما يعرف كل انسان ، على عدد القطط . . . إذن فمن المعقول جدا أن وجوداى حيوان مفترس بأعداد كبيرة فى أية منطقة ، يقرر ، عن طريق اعتماد كائن على آخر ، أولا عدد الجردان ، ثم عدد النحل ، وبعد ذلك وجود زهرة معينة فى تلك المنطقة .»

يبدأ كتاب «أصل الاجناس» بأن يوضح كيفية عمل مبدأ «الانتقاء الطبيعى» فى إيقاف زيادة عدد السكان . يكون بغض أفراد جنس ما أقوى من غيرها أو أسرع جريا أو أعظم ذكاء أو أكثر مناعة للأمراض أو أقدر على احتمال قسوة الطقس . يبقى هؤلاء أحياء ويتكاثر بينما يهلك الضعفاء . يعيش الارنب الابيض فى المناطق القطبية بينما تستأصل الثعالب والذئاب الارانب البنية اللون والاكبر جسما . وعاشت الزراف الطويلة الاعناق لانها استطاعت ، فى وقت الجفاف ، الحصول على طعامها من قمم الاشجار ، بينما ماتت جوعا الزراف القصيرة الاعناق . فأكدت هذه الاختلافات مبدأ «بقاء الاصلح» . وفى خلال عشرات الالوف من السنين ، أدى ذلك الى خلق اجناس جديدة .

يروى داروين قصة قانون السن والناث والمخبل وهى تعمل فى كل مكان ، فيقول :

«نصر وجه الطبيعة مشرقا بالبشر ، وكثيرا مانرى وفرة الطعام ، ولا نرى أو ننسى أن الطيور التى تفرد حولنا تتفدى غالبا بالحشرات أو البذور ، وهكذا تهلك الحياة باستمرار ، كما لانسى كيف تهلك هذه الطيور المغردة ويهلك بيضها وفراخها بواسطة الطيور الجارحة والوحوش الضارية ، ولانتذكر دائما أنه على الرغم من الوفرة العظيمة فى الطعام ، فانه لا يكون بمثل هذه الدقة فى جميع الفصول المتعاقبة فى العام» .

أشار داروين الى مظهر هام من مظاهر «الانتقاء الطبيعي»، فقال : «العتاد أن الذكور الاقوياء الاكثر ملاءمة لاماكنهم في الطبيعة، هم الذين يتكون ذرية اكثر . . . فالوعل العديم القرون ، أو الديك عديم المخالب القوية أضعف فرصة في ترك ذرية عديدة» . و «غالباً ما يكون النضال بين الطيور في صورة أكثر هدوءاً» . فان ذكور الأجناس المختلفة تسمى الى جذب الاثناك بالتفريد العذب أو بالريش الجميل أو بالقيام بحيل غريبة .

وكذلك الطقس عامل قوى في الانتقاء الطبيعي ، لانه يبدو أن الفصول الشديدة البرودة والجفاف هي أكثر الفصول أعاقاً للتكاثر . . . يبدو فعل الطقس ، لاول وهلة ، مستقلاً تماماً عن تنازع البقاء . ولكن طالما يعمل الطقس على اقلال الطعام فانه يجلب في ركابه أسمى تنازع بين الأفراد ، سواء من نفس الجنس أو بين أفراد الأجناس المختلفة التي تتغذى بنفس نوع الطعام» . والمنتظر أن التي تعيش أكثر من غيرها هي الأفراد القوية القادرة على مقاومة الحر أو البرد ، والقادرة أكثر من غيرها على الحصول على طعامها .

كتب داروين يقول :

«يتربص الانتقاء الطبيعي ، كل يوم ، بل وكل ساعة في العالم ، بأقل الاختلافات فينبذ الرديء ويحتفظ بكل ما هو طيب ، يعمل في هدوء وفي الحال كلما وأينما سنحت له الفرصة عند تحسين كل كائن عضوى تبعاً لظروف حياته العضوية أو غير العضوية . لم نبصر شيئاً من هذه التغيرات البطيئة وهي تتقدم حتى أوضحت يد الزمن أنصرام العصور ، وتكون نظرنا الى العصور الجيولوجية البالغة القدم ، غير كاملة ، فلانرى غير اختلاف اشكال الحياة الآن عما كانت عليه في الماضي» .

قرر داروين في آخر أبواب كتابه انه لا حدود لقوة الانتقاء الطبيعي ، واقترح أن الانسان يمكنه « أن يستنتج من المشابهة ، انه من المحتمل أن تكون جميع الكائنات العضوية التي عاشت على هذه الارض منحدرة من صورة أصلية واحدة دبت فيها الحياة اول مادبت» . واعتقد أن جميع صور الحياة المعقدة وجودها للقوانين الطبيعية . وجد أن نتائج الانتقاء الطبيعي موحية .

وهكذا نجد ، من حرب الطبيعة . ومن المجاعات ، ومن الموت ، نجد أعظم موضوع نستطيع التفكير فيه ، وهو انتاج الحيوانات الراقية ، هو مايلي ذلك مباشرة . توجد عظمة في وجهة النظر هذه عن الحياة ، بشتى قواها التي نفثها الخالق في بضعة صور أو في صورة واحدة . وبينما يدور هذا الكوكب تبعا لقانون الجاذبية الثابت ، فمن هذه البداية البسيطة نشأت صور لا تحصى في غاية الجمال والعجب ، ولا تزال تنشأ .

على هذا النحو كانت نظرية التطور اللانهائي التي قدمها كتاب «أصل الاجناس» . ومع ذلك ، فعلى نقيض الاعتقاد السائد أن داروين لم يخاق نظرية التطور ، فهذه الفكرة أقدم من أريستو ولوكريتوس . أيد هذا المذهب كثير من العقول البالغة الذكاء أمثال : بوفون Buffon وجوته Goethe وإيراسموس داروين Erasmus Darwin (جد شارل) ، ولامارك Lamarck وهربرت سبنسر Herbert Spencer اشتهرت نظرية شارل داروين في ناحيتين : الأولى قدم البراهين ، التي تقبل الجدل ، للتدليل على حقيقة التطور أكثر مما قدم من سبقوه . والثانية أنه قدم نظريته الشهيرة عن الانتقاء الطبيعي بتفسير معقول لطريقة التطور .

شبه تهافت معاصري داروين على كتاب «أصل الاجناس» ،

بحريق هائل انطلق كالبرق في جرن» . فاذا كانت هذه النظرية الثورية الجديدة صحيحة ، فلا يمكن بعد ذلك قبول قصة التوراة عن الخليفة . فأدركت الكنيسة ، من فورها ، أن مذهب داروين خطر على الدين واقامت عاصفة من المعارضة . وعلى الرغم من أن داروين كان على جانب كبير من الحذر ولم يطبق نظريته على الجنس البشرى ، فقد ذاع اتهامه بأن ذلك المؤلف يقول ان الناس منحدرون عن القرود .

قامت محاولات للحط من قدرة داروين عن طريق السخرية، فوصفه مقال في صحيفة كوارترلى ريفيو Quarterly Review بأنه «شخص واهم» يحاول في كتابه «أن يدعم نسيج تخمينه العفن تماما وتأملاته القدرة» وأن «طريقة تناوله للطبيعة مخزية للعلوم ، أى خذى» . أما صحيفة سبكتاتور Spectator فلم تعجبها هذه النظرية «لأنها تنكر الغايات الاخيرة ، وبذا تدل على فهم غير أخلاقي من جانب المدافعين عنها» . وزيادة على ذلك اتهم داروين بجمع كمية من الحقائق لتدعيم مبدأ زائف ، و «لا يمكنك أن تصنع حبلا من سلسلة من الفقايع الهوائية» . وتساءلت إحدى الصحف عما اذا كان بالإمكان تصديق أن جميع أنواع اللغث الصالحة ، تميل الى أن تصبح اناسا . ولما لم تكن في انجلترا محاكم تفتيش دينية ، فان الاثينايوم Athenaeum أوصت في صحيفة مناهضة أخرى بإرسال داروين «تحت رحمة القاعة المقدسة وطائفة الكهنة وقاعة المحاضرة والمتحف» . فكان تعليق داروين على ذلك : «لن يحرقنى هذا ، على أية حال ، ولكنه سيعد الثأب ويعلم الوحوش السود كيف تمسكنى» .

لم يسمح الاستاذ هيوبل Whewell بوضع نسخة من كتاب «أصل الاجناس» في مكتبة كلية كامبريدج التى تربى وتعلم فيها داروين .

حظى داروين بتأييد قوى من زملائه العلماء ، كما عارضه البعض مرة . مثل وجهة النظر الرجعية أشخاص مثل أوين Owen في إنجلترا ، وأجاسيز Agassiz في أمريكا ، فقرر كل منهما أن الافكار الداروينية هرطقة علمية ، وسرعان ماسيطويها النسيان . ووصف العالم الفلكى السير جون هرشيل Herchel ، الداروينية بأنها « قانون قلب الأوضاع » . وقرر سدجويك Sedgwick أستاذ داروين لعلم طبقات الارض بجامعة كامبريدج ، أن هذه النظرية «باطلة وشريرة بدرجة محزنة» . وكتب داروين يقول : «انه ضحك حتى ألمه جنباه من شدة الضحك » على كتابه اذ اعتبره « آلة وحشية مثل قاطرة الاسقف، ويلكنز Wilkins التى كانت ستبحر بنا الى القمر » .

رغم كل هذا ، لم يعدم داروين الابطال الشجعان وكان في مقدمة هؤلاء شارل لايل Charles Lyell عالم طبقات الارض ، وتوماس هوكسلى Huxley أستاذ علم الاحياء ، وجوزيف هوكر Hooker عالم النبات ، آساجراى Asa Gray عالم النبات الأمريكى الشهير . وأكثر من اعتمد عليه داروين من بين كل هؤلاء ، هو هوكسلى الذى أطلق عليه اسم «الوكيل العام» ، والذى أشار اليه أنه «الحارس الوفى (بولدوج) لداروين» . لم يكن داروين رجل جدل ، ولم يظهر قط فى الاجتماعات العامة ليدافع عن نظريته ، وانما الذى اضطلع بمعظم الدفاع هو هوكسلى التقدير الغيور .

كان هوكسلى هو الذى لعب أحد الدورين الهامين فى اجتماع الجمعية البريطانية فى أكسفورد سنة ١٨٦٠ . كان برنامج الاجتماع هو النظرية الداروينية . كان المدفع الاكبر فى جانب المعارضة هو الاسقف وبرفورس Wiberforce أسقف

اكسفورد . وفي نهاية خطاب صاحب ظنه حطم نظرية داروين .
استدار الاسقف الى هوكسلي وهو جالس على منصة الخطابة،
وسأل متهمًا : « أود ان أسأل الاستاذ هوكسلي : هل جاء
الانحدار عن القرد ، من ناحية جده أو من ناحية جدته ؟ » فصاح
هوكسلي يكلم أحد أصدقائه بقوله : « لقد أسلمه الرب بين
يدي » ، وصعد ليجيب على السؤال . ويقال انه قال :

« لا يحق للمرء أن يخجل من أن جده قرد ، وإنما الجذ
الذي أشعر بالعار منه هو ان كان رجلاً مضطرب الذكاء متقلبه ،
لا يفتخر بالنجاح في مجال عمله ، وإنما يقحم نفسه في أمور علمية
لا يلم بها الماما حقيقياً فيبقى الغموض عليها ببلاغة عديمة الهدف ،
ويسرح بانتباه سامعيه بعيداً عن جوهر الموضوع بانحراف بلاغى
ونداء بارع الى التعصب الدينى » .

هذا هو أحد الاصطدامات العديدة بين الكنيسة والعلم
بسبب المذهب الداروينى والتطور الذى استمر اواره فى السنين
اللاحقة .

عدلت آراء داروين عن الدين عندما تقدمت به السن .
فلما كان شاباً ، آمن بفكرة الخليقة الخاصة دون ابداء أى سؤال
عبر فى حياته وخطاباته عن اعتقاده بأن الانسان سيكون فى
المستقبل البعيد مخلوقاً اكثر كمالاً عما هو الآن» .

وأضاف داروين يقول :

« أثر فى مصدر آخر للتساؤل عن وجود « الله » يتصل
بالعقل وليس بالمشاعر ، على أنه اكثر أهمية . جاء هذا من
الصعوبة البالغة ، أو بالحرى من استحالة تصور هذا العالم
الشاسع العجيب الذى يشمل الانسان ذا القدرة على النظر الى
الماضى والى المستقبل نتيجة الفرصة العمياء أو الحاجة العمياء .

وبينما أنا أتأمل هذا ، اشعر بأننى مضطر الى النظر الى كائن اول ذى عقل ذكى الى درجة أنه يشبه عقل الانسان . واننى لاستحق أن أوصف بالالحاد . كانت هذه الفكرة قوية فى ذهنى فى حوالى الوقت الذى كتبت فيه «أصل الاجناس» حسبما أستطيع أن أتذكر . ومنذ ذلك الوقت أخذ يضعف تدريجيا مع بعض التغييرات . ولكن عندئذ ينشأ الشك : أمن الممكن أن نشق فى عقل الانسان ، الذى كما اعتقد ، متطور عن عقل كعقل أدنى حيوان ، أمن الممكن أن نشق فيه عندما يستنتج مثل هذه النتائج ؟»

عند ذلك رفع داروين يديه وقال :

« لادعى اننى اقيت أقل ضوء على مثل هذه المسائل فلغز نشأة جميع الكائنات مستحيل الحل بواسطتنا ، واننى كفرد ، يجب أن أقنع بأن أبقى من انصار مذهب عدم كفاية العقل البشرى لفهم الوحي» .

تلا كتاب «أصل الاجناس» سبيل من الكتب بقلم داروين السبيل ، تناولت مواضع أكثر تخصصا خططت لتكون ملحقا للتطور بالانتقاء الطبيعى وتكملة وتدعمه ، ذلك التطور الذى قدم بطريقة مفهومة فى كتاب «أصل الاجناس» . فصدر أولا مجلدان صغيران بعنوان «عن شتى الطرق التى تلتحق بهما الإوركيديات بواسطة الحشرات» ، و «طبائع النباتات المتسلقة» . وبعدهما ظهر مؤلفان ضخمان : «تنوع الحيوانات والنباتات بالاستنباس» ، و «انحدار الانسان والانتقاء بالنسبة للجنس» . وتناولت الكتب التالية التعبير عن العواطف فى الانسان والحيوان ، والنباتات آكلة الحشرات ، وآثار الاخصاب بالتهجين ، وقوة الحركة فى النباتات ، وتكون الفطر النباتي .

تعهد داروين في كتاب « أصل الأجناس » أن نخفف من مناقشة موضوع نشأة الانسان ، لانه اعتقد ان أى تأكيد لمرحلة التطور يسبب نكد نظريته كلها . ومع ذلك فقد قدم كمية ضخمة من الأدلة في «انحدار الانسان» ليشرح ان الجنس البشرى هو ايضا ناتج من التطور من صور ادنى .

ومن وجهة نظر الماضى ، كان انطباع داروين لجميع مجالات العلوم العظمى تقريبا ، عميقا ومستمرًا في تعمقه . فقبل علماء الاحياء مذهب التطور العضوى ، وكذلك فعل علماء طبقات الارض والكيميائيون وعلماء الفيزياء ، كما قبله علماء الاجناس البشرية والعلماء النفسانيون والمعلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وحتى علماء التاريخ وعلماء السياسة وفقهاء اللغة . فكتب شارلز الود Charles Ellwood ، يقول :

« عندنا يتأمل المرء في الاثر الضخم لمؤلف داروين على جميع فروع الفكر البشرى ولاسيما على علوم الاحياء والنفس والاجتماع ، يجد نفسه مضطرا الى استنتاج ان ... يجب اعطاء داروين اسمى مقعد شرفى كأعظم مفكر استثمر أفكاره في القرن التاسع عشر ، ليس في انجلترا وحدها وانما في العالم اجمع . وان الاهمية الاجتماعية لتعاليم داروين قد بدأت في الدخول الى الافهام» .

ذكر وست West في كتابته عن «أصل الأجناس» :
« كان الأثر بالغا بحق . فبمجرد تقديم مبدا جديد حركى وليس ساكنا ، قلب كل فرع للدراسة ، من علم الفلك الى التاريخ ، ومن علم الحفريات الى علم النفس ومن علم الاجنة الى الدين» .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك تطبيقات لنظريات داروين؛ لاشك في أنه استاء منها ، مثال ذلك الفاشية التي استخدمت فكرة الانتقاء الطبيعى ، او بقاء الاصلح لتبرر تصفية أجناس

بعينها . وبنفس هذه الطريقة دافع عن الحروب بين الامم ، بأنها وسيلة لإبادة الضعفاء واستمرار بقاء الاقوياء . كذلك حشرت الداروينية بواسطة أنصار الماركسية لتطبيقها على تنازع الطبقات ، كما بررت جماعات الاعمال الوحشية ، بواسطة الداروينية طرق إبادة المجتمعات الصغيرة لنفس الاسباب .

ولما كان داروين دقيق الملاحظة والتجارب بصورة خارقة ، فقد بقي مؤلفه راسخا في معظم أحواله عندما اتسع نطاق المعارف العلمية . ورغم أن نظرياته قد عدلتها اكتشافات العلوم الحديثة ، فإنه نجح في التنبؤ بصورة مدهشة ، بالأراء السائدة الآن في علم الوراثة والحفريات ومجالات عديدة أخرى .

جاء تقدير آخر لمكانة داروين السامية في تاريخ العلوم من عالم أحياء عظيم آخر هو جوليان هوكسلي Julian Huxley حفيد زميل داروين وصديقه والمدافع عنه ، فقال جوليان :

« وضع مؤلف داروين ... عالم الحياة في نطاق القانون الطبيعي . لم يعد من الضروري أو من الممكن أن نتصور أن كل نوع من الحيوان أو النبات قد خلق خلقا خاصا ، ولا أن طرقه الجميلة البارعة في الحصول على غذائه أو الفرار من أعدائه ، قد ذكرت فيها قوة خارقة ولا أن هناك غرضا مقصودا وراء هذه العملية الثورية . فإذا كانت فكرة الانتقاء الطبيعي صحيحة ، فإن الحيوانات والنباتات والإنسان نفسه ، قد صارت الى ما هي عليه الآن بأسباب طبيعية ، عمياء وتلقائية ، كذلك التي تحدث لتشكيل هيئة الجبل ، أو التي تجعل الارض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس في أفلاك اهليلجية . ينتج التنازع الاعمى للبقاء وتنتج عملية الوراثة العمياء تلقائيا لانتقاء أكثر الأنواع ملائمة للبقاء ، ولتطور الاجناس نحو التقدم .

مكننا مؤلف داروين من أن نرى مركز الانسان وحضارتنا الحالية ، في نور حقيقى . ليس الانسان سلعة فرغ من صنعها ، فصار غير قابل للتقدم أكثر من ذلك . ان وراه تاريخا طويلا ، ليس تاريخا نحو التقهقر والهبوط ، وانما هو نحو الصعود . وأمامه امكان التطور التقدّمى أكثر مما هو عليه . وزيادة على ذلك ، ففى ضوء التطور ، علينا أن نتعلم أن نكون أكثر صبورا . بالقياس الى المليون سنة التى عاشها الانسان على الارض ، والالف مليون سنة لتقدم حياته . وبوسعنا أن نتذرع بالصبر عندما يؤكد لنا علماء الفلك أن أماننا على الاقل الف مليون سنة أخرى لتتطور فيها تقدّميا الى صور سامية جديدة .

١٥ - العالم النفساني للاواعى

سيجموند فرويد Sigmund Freud

تفسير الاحلام

اتفق على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى فى انه اكثرها غموضا واعظم لفرز بينها ، وائل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمى . ففى طبيعة الاشياء ، لا مفر من الزواجان وعدم قبول التكهن ، لأن العالم النفسانى يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا . فأية نظرية فى الكيمياء أو فى علم الفيزياء ، يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة أية نظرية فى علم النفس . ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمطلين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما .

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها ، فقد كان لها تأثير منقطع النظر على الفكر الحديث . وحتى أينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلما فعل فرويد . صاغ فرويد أفكارا ومصطلحات فى محيط المناطق

المجهولة من العقل ، صارت جزءاً من حياتنا اليومية . لقد أحس بآثار تعاليمه كل مجال من المعارف - الادب والفن والدين وعلم الاجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ ، وتاريخ حياة الافراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد .

رغم كل ذلك ، هناك بعض الحلاوة والضوء في هذه التعاليم . وقد أبدى أحد النقاد غير الاوفياء ملاحظته قائلاً :

« عندما انتشرت نظريات فرويد ، ظهر امام الرجل العامي كأعظم مفسد للسرور في تاريخ الفكر البشرى ، يحول مزاج الانسان ومرحه الى كبت محزن غريب ، ويجد العداوة في جذور الحب والضعفينة في قلب الرقة ، والزنا بالاقارب في المحبة البنوية ، والاجرام في السخاء وكرهية الاب المكبوتة ، كطبيعة بشرية عادية موروثه» .

ومع هذا ، فبسبب فرويد ، تختلف فكرة الناس ، اليوم ، عن انفسهم . يعتقدون أن افكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوهم ، والاساس الجنسى لاضطراب وظائف الاعصاب ، ووجود الغريزة الجنسية لدى الاطفال وأهميتها ، ووظيفة الاحلام ، وعقدة اوديب ، والكبت والمقاومة وقراءة الافكار ، يعتقدون أن هذه الافكار أمور عادية . ثم ان عيوب الانسان كقلبات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية ، تتخذ أهمية جديدة عند النظر اليها من وجهة نظر فرويد . ومن الصعب الآن ادراك مقدار التعصب الذى كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته ، اذ كان ذلك أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين .

عندما ولد فرويد في فرايبيرج Freiberg إحدى مدن مورافيا Moravia . لم يكن كتاب « أصل الاجناس » قد ظهر بعد .

كان ذلك في سنة ١٨٥٦ . وكان أسلاف فرويد مثل أسلاف كارل ماركس ، حاخامات ، بيد أن فرويد ، على عكس كارل ماركس ، قال : «بقيت يهوديا» . انتقل فرويد وهو في الرابعة من عمره ، مع أسرته ، الى فيينا حيث قضى كل صباه . وتبعاً لأهم كاتب لتاريخ حياته ارنست جونز Ernest Jones يدين لوالده ، تاجر الصوف ، «بارتيا به الحكيم في تقلبات الحياة غير المؤكدة ، وعاداته في ذكر مبدأ أخلاقى برواية قصة يهودية ، وعدم اعتقاده في أمور الدين» . وعاشت والدته فرويد حتى بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، شخصية جمة النشاط وافرقة الحيوية . وكان سيجموند هو مولودها البكر وابنها المحبب . وبعد ذلك كتب يقول : «ان الانسان المتمتع بالحظوة غير المتنازع فيها لدى أمه ، يحس طول حياته بمشاعر القاهر ، وهى الثقة بالنجاح الذى يحث غالباً على النجاح الحقيقى» .

اولع فرويد في اول حياته بنظريات داروين لانه احس بأنها «توحى بأمال في تقدم خارق لمفهومنا عن العالم» . واذ رغب في ان يكون طبيباً ، التحق بجامعة فيينا ليدرس الطب ، ونال البكالوريوس في سنة ١٨٨١ . واذ عين طبيب امتياز مقيماً في المستشفى العام ، استمر في دراسة علم الأعصاب وتشريح المخ . وبعد بضع سنوات ، حدث التغير في حظه الذى انتهى برسوخ شهرته العالمية . صحبه زميل جائل الى باريس ليعمل تحت امرة جان شاركو Jean Charcot ، الذى كان وقتئذ استاذاً فرنسياً واسع الشهرة في علم الامراض واخصائياً في الاعصاب فحظى بالاتصال المباشر بأعمال شاركو في الهستيريا وعلاجه لها بالتنويم الايحائى ، ومما أعجب فرويد برهنة شاركو على «صحة الظواهر الهستيرية ، وكثرة حدوثها للرجال ، واحداث الشلل الهستيرى وانقباض العضلات الهستيرى بالتنويم الايحائى » ، ومشابقتها في مظهرها عموماً بنوبات الهستيريا الحقيقية .

غير انه لما رجع فرويد الى فينا ، لم يستطع اقتناع زملائه الاطباء بأى اساس علمى لعلاج الاضطرابات العصبية بطرق التنويم المغناطيسى . والادهى من ذلك انه عوقب على آرائه المتطرفة باستبعاده من معمل تشريح المخ . ومنذ ذلك الوقت صار شخصيه منعزلة وانسحب من الحياة الاكاديمية ، وانقطع عن حضور اجتماعات جمعيات العلماء . واثناء ممارسته الخاصة للطب ، استمر عدة سنوات يجرى التجارب بالتنويم المغناطيسى، ولكنه هجر ندرجيا اذ لم يخضع لتجاربه غير القليل من الناس، ولان التنويم المغناطيسى نفسه ينتج احيانا آثارا مفعجعة على الشخصية التى ينومها . فاستعاض عن ذلك بتطوير الطرق المعروفة باسم «المشاركة الحرة» التى صارت منذ ذلك الوقت مهنة التحليل النفسى الاصلى .

لاجدال فى أن فرويد هو مؤسس طب الامراض العقلية الحديث . فقبل عصره كان طب الامراض العقلية يتناول اغراض الجنون ، مثل انشقاق الانف ومرض العقل الجنونى الهبوطى ، الذى يحتاج الى العزل فى مستشفى الامراض العقلية . بدأ فرويد عمله الاكلينيكي بعلاج حالات الكبت والتنازع العصبى . وسرعان مااستنتج أن مثل هذه التنازعات ليست قاصرة على مرضى الاعصاب ، بل تصيب أيضا سليمة العقول . وعلاوة على ذلك ، ليست الاضطرابات العصبية امراضا بالمعنى الصحيح ، بل حالات نفسية للعقل . وكانت المشكلة الكبرى هى كيفية علاج هذه الاضطرابات العقلية الواسعة الانتشار . وبناء على ملاحظاته وتجاربه وممارسته علاج كثير من مرضى فيينا ، بنى اساس التحليل النفسى فى اواخر ذلك القرن .

كان فرويد من أعظم كتاب العلوم الكشبرى التصانيف فى عصرنا . فلايمكن أن نجد مجموعة الافكار الجديدة والآراء

السيكولوجية التي خرجت من قلمه ، في اى كتاب فرد او صحيفه واحدة . ومن المحتمل انه كان ينظر الى اول مؤلف له ، وهو المؤلف العظيم «تفسير الاحلام» ، الذى صدر فى سنه ١٩٠٠ كأكثر مؤلف حبيب الى نفسه ، ويضم جميع الملاحظات والآراء الاساسية تقريبا . وفى أحد مؤلفاته الاولى بعنوان «دراسات فى الهستيريا» الذى نشر فى سنة ١٨٩٥ ، ذكر اعتقاده بأن الاضطرابات الجنسية هى «العامل الاساسى واهم اسباب الاضطرابات العصبية والاضطرابات العصبية النفسية» . وهى أحد احجار الزاوية فى نظرية التحليل النفسى . وفى السنوات القليلة التالية ، كتب فرويد آراءه فى المقاومة وانتقال الافكار ومشاكل الجنس فى عهد الطفولة ، والعلاقات بين الذكريات البغيضة والاهام ، وميكانيكية الدفاع والكبت .

يبين ملخص موجز للنظريات الاساسية ، شيئا من تعقيد التحليل النفسى . فأولا ، ليست كلمة الامراض العقلية وكلمة الامراض العقلية النفسية مترادفتين . يمكن اعتبار الامراض العقلية النفسية فرعاً من الامراض العقلية وتطبق عموماً على اشد حالات اضطرابات الشخصية صعوبة . ثم يمكن تعريف التحليل النفسى بأنه فن علاجى لمداواة الاضطرابات العصبية والنفسية . وتبعاً لتقرير حديث ، يوجد مجرد ثلثمائة اخصائى فى التحليل النفسى من بين اربعة آلاف طبيب نفسانى فى الولايات المتحدة الامريكية .

لم يعجب العلاج الفردى فرويد الا نادراً ، واعتبر حالات سوء التكوين النفسى فى الافراد ، كاعراض الخلل الاقتصادى والاجتماعى والثقافى للعالم المعاصر . كان غرضه مهاجمة المرض جذرياً .

يتفق معظم النقاد على أن حق فرويد فى الشهرة الدائرة

يعتمد على اكتشافه وارتياده للعقل غير الواعى . فبقارن عقل الانسان بجبل جليد ثمانية أمتاعه مغمورة تحت السطح فقال أن معظم العقل مختلف داخل اللاواعى . وتوجد تحت السطح دوافع ومشاعر واغراض ، لا يخفيها المرء عن غيره فحسب ، بل وعن نفسه أيضا . ويقول علم النفس الفرويدى ان العقل اللاواعى هو المسيطر ، بينما النشاط الواعى مختصر الى مركز تابع ، واذ نوصلنا الى فهم الاعماق الكبيرة وغير المعروفة للعقل اللاواعى ، عرفنا الطبيعة الداخلية للانسان . فقال فرويد ان معظم تفكيرنا لاواع ، ولا يصير واعيا الا صدفة . والعقل اللاواعى هو مصدر الاضطرابات العصبية لان الفرد يحاول أن يزيج ذكرياته البيضية ورغباته الباطلة الى تلك المنطقة ، ولكنه لا ينجح الا فى حفظها للمتاعب المستقبلية .

قسم فرويد النشاط الذهنى للفرد على انه يحدث على ثلاثة مستويات أطلق عليها : Id (1) الايد ، والذات ego والذات السامية superego . والايد ذات أهمية أولى . ويقول فرويد ان «منطقة عمل الايد هى الجزء المظلم غير الممكن الوصول اليه من شخصيتنا . والقليل الذى عرفناه عنها، عرفناه عن طريق دراسة الاحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية» . والايد هى مركز الفرائز والانفعالات البدائية ، وتمتد الى الوراء ، الى الماضى الحيوانى ، وهى حيوانية وجنسية فى طبيعتها . انها غير واعية . ويستطرد فرويد فيقول : «تحتوى الايد على كل شىء موروث وكل ماهو موجود عند الميلاد وكل ماهو ثابت فى تكوين الشخص» . الايد عمياء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتها وملذاتها دون تقدير للعواقب . وبنفس الفاظ ثوماس

(1) Ia لفظ مختصر من كلمة Idioplasm وهى الوحدة الوراثية أو البلازما الوراثية أو أداة الوراثة فى النواة .

مان Thomas Mann « لا تعرف اية قيم ولا خيرا ولا شرا ولا اخلاقا » .

الطفل الحديث الولادة نموذ الايد . وبالتدرج تنمو الذات من الايد اثناء نمو الطفل . وبدلا من ان تكون الذات منقادا تماما بمبدأ اللذة ، يحكمها مبدأ الحقيقة . تعي الذات العالم حولها مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد ، ان الذات هي الوسيط «بين مطالب الايد الطائشة وتحريم العالم الخارجى» . وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة ان تحاشى العقاب أو حتى صيانة النفس ، قد تعتمد على مثل هذا الكبت . وقد ينتج عن الصراع بين الذات والابد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد .

وأخيرا ، هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية ، وهو الذات السامية superego ، التى يمكن التوسع فى تعريفها بالوعى . وكتب ا.ا. بريل A.A. Brill ، وهو أعظم أنصار فرويد فى أمريكا ، كتب يقول :

« الذات السامية أرقى تطور ذهنى يمكن أن يصل اليه الانسان ، وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التى يطلعها الوالدان فى الطفل والبندائل الابوية . ويتوقف الاحساس بالوعى كلية على نمو الذات السامية» .

وتشبه الذات السامية الايد فى كونها غير واعية ، وكتاهما فى صراع دائم بينما تعمل الذات حكما بينهما . وتكمن المثل الاخلاقية وقواعد السلوك فى الذات السامية .

عندما تكون الايد والذات والذات السامية فى انسجام معقول ، يكون الفرد طيب المزاج سعيدا . أما اذا صرحت الذات للابد بخرق

القوانين ، احدثت الذات السامية قلقا واحساسا بالاثم وغيرها
من مظاهر الوعي . .

هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد . أوجده فرويد ،
وهو نظريته عن الشهوة الجامحة libido ، فيقول ان
جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من «النشاط النفسى»
اصطلح على تسميته libido ، اى الشهوة الجامحة « جوهر
مذهب التحليل النفسى» . ويعتبر جميع مايتعلمه المرء من ثقافة
وقن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة . وبينما
يشار الى هذه الشهوة بأنها نشاط جنسى ، فالواقع ان كلمة
«جنسى» تستعمل فى معنى واسع جدا . فتتضمن فى حالة الاطفال
الحديثى الولادة أعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبرازة
والتبرز . وفى السنين اللاحقة ، قد تنتقل الشهوة الى شخص
آخر عن طريق الزواج ، وتتخذ صورة انحراف جنسى ، أو يعبر
عنها بخلق فنى أو ادبى أو موسيقى - وهذه عملية تعرف باسم
«الاحلال» . والغريزة الجنسية فى رأى فرويد ، هى اعظم مصدر
للمعمل الخلاق .

يقرر فرويد فى أعظم نظريات التحليل النفسى جدلا ، أنه
تحت تأثير الشهوة الجنسية ، تنمو فى الطفل احساسات جنسية
نحو والديه مستدئا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية
بئدى أمه ، فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه ، وعندما تتقدم به
السن ، ولكن فى سن مبكرة ، تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات
جنسية قوية نحو أمه ، بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له .
أما الطفلة الانثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع فى حب
أبيها وتصير الام موضع كراهيتها ومنافسة لها . وبتطبيق هذه
النظرية على الطفل الذكر ، يطلق عليها اسم «عقدة أوديب» التى
أخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة

«أوديب» الذي قتل أباه وتزوج أمه . وقال فرويد ، ان عقدة أوديب مورثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم في ثورات الغيرة . وعندما يصل الشخص الطبيعي الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الاوديبية . اما الافراد الضعاف فقد لاينجحون اطلاقا في قطع الصلة بالابوين ، وبذا ينقادون الى سلسلة من الاضطرابات النفسية .

الواقع ان فرويد قرر يقول : «ان الاضطرابات النفسية ، بدون استثناء ، اضطرابات للوظيفة الجنسية» . وزيادة على هذا، فلايمكن القاء اللوم على الاضطرابات العصبية فيما يختص بالريجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين . بيد انه يمكن ان نعزى كل هذه الى العقد الجنسية للطفولة المبكرة . وبتطبيق نظريه على مجال علم الأجناس البشرية ، استنتج فرويد في كتابه « الشعارات والمنبوذين Totem a Taboo » أن الطبيعة والاساطير الدينية للاسان البدائي نتيجة لعقد الاب والام . وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الاب . وبعد تحاليل مفصلة لمئات الحالات التي جاءت له للعلاج ، رفع الفريزة الجنسية والرغبات الجنسية الى دور بالغ الشأن في تكوين الشخصية ، كما جعلهما السبب الرئيسي في الاضطرابات العصبية . وهذا حكم رفضه بعض مشاهير اخصائى التحليل النفسى ، كما سنبين فيما بعد .

ولما اجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة، فانه يطوى نفسه على كثير من الكبت بطريقة غير واعية . واذا استخدمنا مصطلح فرويد : ينجح وعى المرء في منع «قوى اللاوعى المظلمة» التي كتبت ومنعت من الظهور مرة ثانية . ورغم هذا فان الاشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية ، قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هذه الرقابة . فيقول

فرويد : «ان من وظيفة العلاج بالتحليل النفسى ان يكتشف حالات الكبت ويحل محلها حالات الحكم الصحيح التى قد ينتج عنها اما القبول واما نبذ ماسبق رفضه . وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة ان يحاول المريض منع اكتشاف كبتة . ويطلق فرويد على هذه المجهودات «مقاومات» ويهدف الطبيب الى التغلب عليها .

نعرف الآن تلك الطريقة التى ابتكرها فرويد لتناول حالات الكبت والمقاومات ، تعرف باسم «التسلسل الحر للأفكار» - سيل من حديث العقل الواعى بواسطة مريض راقد على سرير اخصائى التحليل النفسى فى حجرة خافتة الضوء . يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور فى رأسه بينما يتوقف عن اعطاء أى اتجاه وابع لأفكاره» . ويقرر فرويد أن طريقة التسلسل الحر للأفكار هى الطريقة الفعالة الوحيدة لعلاج اضطراب الاعصاب ، وقد حققت ماكان ينتظر منها ، وهو اظهار المادة المكبوتة الى الصورة الواعية، تلك المادة التى احتجزتها المقاومات» وقد وصف بربيل طريقة فرويد مع المرضى بقوله : «حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واع ويستسلموا الى التركيز الهادى ويتبعوا أحداثهم الذهنية التلقائية ، ويفضوا اليه بكل شىء . وبهذه الطريقة حصل اخيرا على تلك الافكار المتسلسلة فى حرية ، التى تقود الى اصل الاعراض» . وهذه المادة المنسية التى يستخرجها المريض من العقل غير الواعى بعد مدة ربما تصل الى شهور من علاج التحليل النفسى، تمثل عادة شيئا مؤلما مقبوتا ومخيفا وذميما من الماضى ، وهى مواد يمقت المريض أن يتذكرها بوعى .

لابد ، فى مثل هذه العملية، أن تحدث تلك الذكريات الهائلة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع . اذن ، يتوقف كل شىء على مقدرة الطبيب على تحليل مادته نفسيا ، تلك المادة التى،

كما اشار مختلف النقاد، يمكن تفسيرها بعدد لانهاى من الطرق .
وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة اخصائى التحليل النفسى على جانب
كبير من الاهمية الاساسية .

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسى اكتشف
ما اطلق عليه اسم «عامل ذى اهمية لا يحلم بها» ، وهو علاقة
عاطفية شديدة بين المريض والطبيب المحلل وهذا يسمى «قراءة
الافكار أو انتقال الافكار» .

لايقنع المريض بالنظر الى الطبيب المحلل النفسانى فى ضوء
الحقيقة كمساعد وناصح . بل على العكس يرى المريض فى طبيعة
النفسانى اعادة شخص على شىء من الاهمية فى طفولته أو ماضيه .
ويعنى بهذه الاعادة « اعادة التجميع » - ونتيجة لهذا ينقل اليه
مشاعر وانفعالات تنطبق بلاشك على هذا النموذج .

«يمكن أن تتفاوت قراءة الافكار بين نهايتين احدهما محبة
عاطفية ذات صفة جنسية كاملة ، والاخرى تعبير منفلت الزمام
من التحدى والكرهية الميريتين» . وفى هذا الموقف يكون الطبيب
النفسانى المحلل «كقاعدة ، فى موضع أحد والذى المريض ، ابيه
أو امه» . ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الافكار «خير أداة للعلاج
النفسى» - بيد أن تناولها يظل أصعب وأهم جزء فى فن التجميل» .
ويقرر فرويد أن المشكلة «تحل باقناع المريض بأنه يستعيد
ممارسة علاقات عاطفية نشأت فى طفولته المبكرة» .

ومن انطرق المثمرة الأخرى ، التى ابتكرها فرويد للوصول
الى الصراعات والعواطف الداخلية ، تحليل الأحلام ، الذى كان
فرويد أول من توصل اليه فقبل عصره اعتبرت الأحلام بدون
معنى أو هدف . كان كتابه «تفسير الأحلام» ، وأل محاولة لدراسة
عملية جديدة لهذه الظاهرة . وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر

ذلك الكتاب بأحدى وثلاثين سنة ، «بأنه يتضمن ، حتى بعد حكمى فى هذا اليوم الحاضر، أعظم الاكتشافات التى ساعده الحظ فى إيجادها ، وأكثرها قيمة . » وتبعاً لفرويد : «يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الانجاز المستمر لرغبة مكتوبه » يمثل كل حلم دراما فى العالم الداخلى « فا لأحلام دائماً نتيجة صراع . وقال فرويد : و «الحلم هو حارس النوم » . ووظيفته مساعدة النوم ، لا ازعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها .

عالم الأحلام ، حسب رأى فرويد ، واقع تحت سيطرة العقل غير الواعى بالوحدة الوراثية (الايد) . والأحلام هامة لاختصاصى التحليل النفسى ، لأنها تقوده الى العقل غير الواعى للمريض . وتكمن ، فى العقل اللاواعى ، جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات السامية . والرغبات البهيمية موجودة دائماً تحت السطح، وتدفع نفسها الى الظهور فى الأحلام ، وحتى فى النوم ، تقف كل من الذات والذات السامية ، فى موقف الحراسة كرقبتين . لهذا السبب كانت معانى الأحلام غير واضحة دائماً ، وانما يكون التعبير عنها فى صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها . وكرموز لايمكن أخذها حرفياً الا ، بالطبع فى الأحلام البسيطة للأطفال . ويحتوى كتاب «تفسير الأحلام» عدة أمثلة حللها فرويد تحليلاً نفسياً .

ومن الاعمال التعبيرية للعقل اللاواعى ، اخطاء التهجمى وزلات اللسان ، وحيل شاردى الذهن . ويقول فرويد «بنفس الطريقة ينتفع اختصاصى التحليل النفسى من تفسير الأحلام ، كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والاطفاء التى يقوم بها الناس - التى يطلق عليها اسم أفعال عارضة» . فى سنة ١٩٠٤ ، فحص فرويد ذلك الموضوع فى كتابه «العلاج النفسى للحياة اليومية» .

يقرر في ذلك المؤلف ، و «ليست هذه الظواهر وليدة الصدفة . .
فلها معنى ويمكن تفسيرها . ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود
انفعالات ونوايا مكبوتة» . فنسيان المرء لاسم ما : معناه أنه يكره
الشخص المسمى بذلك الاسم . وعندما يفوت القطار شخصا
بسبب التباس في جدول المواعيد ، فقد يدل ذلك على أنه لا يرغب
في ركوبه . والزوج الذي يفقد مفتاح بيته أو ينشأه ، قد يكون
غير سعيد في بيته ولا يرغب في العودة إليه . يمكن لدراسة مثل
هذه الهفوات أن تقود اخصائي التحليل النفسى الى متاهات العقل
اللاواعى .

يمكن الحصول على نفس المنطلق من النكات التى سماها
فرويد «خير صمام أمن أنتجه الانسان العصرى» ، اذ من خلالها
نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التى يريدها المجتمع المؤدب أن
نخفيها .

ربما تان بسبب احساس محذر سابق ، او تخلص من
الايهام متزايد ، او منتهى التشاؤم ، ان صار فرويد ، فى اواخر
ايام حياته ، مشغولا «بغريزة الموت» . انتهى به الأمر الى اعتبار
هذه الفكرة على قدم المساواة فى الاهمية مع « الغريزة الجنسية »
فقرر فرويد أن هناك غريزة موت تسوق جميع الموالد الحية الى
العودة الى الحالة غير العضوية التى جاءت منها . وتبعاً لهذا
الرأى تتجاذب المرء باستمرار قوتان : قوة الحث على الحياة وهى
الغريزة الجنسية ، وقوة مضادة اخرى هى الحث على الهلاك او
الابادة ، وهى غريزة الموت . وبطبيعة الحال ، تتغلب فى النهاية
غريزة الموت . وهذه الغريزة هى المسؤولة عن الحرب وعن أنواع
السادية كالتعصب ضد الاجناس والطبقات والمتعة الشديدة فى
المحاكمات الاجرامية ومصارعة الثيران ، والاعدام بدون محاكمة .
وبالاختصار، كل ما سبق ذكره هو النقط الرئيسية فى نظرية

فرويد . وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين او ثلاثة معسكرات متعارضة ، يؤيد البعض فرويد ، ويعارضه بعض آخر . وحتى تلاميذه ، عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته في الخمسين سنة الماضية ، وها هو الفريد ادلر : Alfred Adler ، احد اتباعه الميكرين ، ينشق عن المعسكر الفرويدي لاعتقاده ان فرويد أكد الفرائز الجنسية أكثر من اللازم . وكمذهب بديل ، أخذ ادلر يعلم ان رغبة كل انسان في اثبات تفوقه هي الينبوع الاساسي في السلوك البشرى . وقد انشأ فكرة «مركب النقص» الذى يضطر الفرد الى النضال لابراز نفسه في نشاط ما . ومن مشاهير المنشقين الآخرين : كارل جونغ Karl Jung احد مواطنى مدينة زيورخ ، الذى حاول ايضا ان يقلل من دور الجنس . قسم جونغ البشرية الى نوعين نفسانيين : أحدهما مقلوب من الداخلى الى الخارج ، والثانى مقلوب من الظاهر الى الباطن ، ولو أنه ادرك ان كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد ، أكد جونغ عوامل الوراثة في تكوين الشخصية . وعلى العموم ، فان نقاد فرويد يخالفونه في بعض النقاط ، مثل اصراره على الاهمية الاولى للاضطرابات النفسية في عهد الطفولة ، واتهامه الناس بأن تتحكم فيهم الفرائز البدائية الصارمة ، وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسى في تكوين الشخصية . كذلك يخالفه البعض في اعتقاده أن التسلسل الحر للافكار طريقة لاخطيء لارتياح العقل الباطن ، ميرزين ، بنوع خاص ، صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة .

ومع ذلك ، فكما لاحظ أحد علماء النفس :

«لم تقلل التغيرات ولا التطورات التى حدثت في خلال ستين عاما ، بحال ما ، من مركز فرويد أو نفوذه . لقد فتح مملكة العقل الباطن ، وابان كيف انه يساعد في جعلنا على مانحن عليه ، وكيف

نصل الى ذلك . وكان لابد لكثير من آرائه واستنتاجاته من ان يعدلها من ياتى بعده فى ضوء المزيد من التجارب . ويمكنك ان تقول ان خلفه كانوا يكتبون «عهدا جديدا» فى طب الامراض العقلية ، ولكن سيجموند فرويد كتب «العهد القديم» وسيظل عمله أساسا فى ذلك المجال» .

أنا ندين لفرويد بالكثير من نظرتنا الحديثة الى الجنوب . وهناك ميل متزايد الى تقرير أن « مرضى الاضطرابات العقلية مثلنا ، بل وأكثر من كونهم مثلنا» . وقد أكد ألكسندر رايد مارتين Alexander Reid Martin ، انه : « سواء أعلن أو لم يعلن ، فان جميع مستشفيات الامراض العقلية والامراض النفسية . تستخدم عناصر علم النفس الفرويدى ونظرياته الانسانية . وما كان يعتبر من قبل عالما غير معروف ومخيفا وغامضا وعديم الهدف وبلا معنى ، أصبح عن طريق فرويد عالما نيرا وزاخرا بالمعاني وجذابا وممتعا ومعترفا به ، ليس فى الطب فحسب ، بل وفى جميع العلوم الاجتماعية .

أوحظ اثر الفكر الفرويدى على الادب والفن بنفس القدر . فى عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصور الادبية الاخرى ، ازدهرت آراء فرويد فى السنوات الحديثة . وقد أبدى برنارد دى فوتو Bernard de Voto رايه بقوله : «ما من عالم طبيعى آخر كان له على الادب مثل ذلك الاثر القوى والواسع الانتشار» فلم يكن اثره اقل عمقا على التصوير والنحت وعالم الفن عموما .

من الصعب احصاء ما أسهمت به عبقرية فرويد فى معارفنا من نظريات وآراء متعددة النواحي ، وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعة اكتشافاته المتعددة الاتجاهات . وقد قام

الكاتب الانجيزى روبرت هاملتون Robert Hamilton بمحاولة ،
فاستنتج ماياتى :

« وضع فرويد علم النفس فى الخريطة . كان عالما مكتشفا
عظيما ، ويعزى الكثير من نجاحه الى طرافته واسلوبه الادبى .
ورغم كون طريقته لانتعمد على شىء ملموس ، فما من طريقة خارج
الادب البحت كانت اكثر امتعا وطرافة وذات اسلوب جذاب .
لقد جعل العالم يفكر نفسيا - وهذه ضرورة اساسية لعصرنا :
واجبر الناس على ان يسألوا انفسهم اسئلة حيوية لصالحهم
البشرى . فمن قضايا علم النفس الاكاديمى العقيم للقرن التاسع
عشر ، أنتج النظريات المضادة فى التحليل النفسى بسلبياتها
المظلمة . »

تناول احد مشاهير الطب النفسى الأمريكين، وهو فريدريك
ورثام Frederic Wertham ، من وجهة نظر أخرى ، فكتب يقول :

« يجب على المرء ان يوضح انه زيادة على الكثير من الحقائق
الاكينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد ، فانه أحدث
ثلاثة تغييرات فى التمهيد لدراسة الشخصية والمعالج العقلى .
اولها الكلام عن العمليات السيكلوجية جميعا ، والتفكير فيها
بمنطق العلوم الطبيعية . لم يكن هذا ممكنا الا عندما قدم فرويد
الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه. وثانيها
تقديمه لبعث جديد للعلاج السيكلوجى : الطفولة ، قبل فرويد
مارسوا طب الامراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم -
الذى لم يكن طفلا قط . وثالثها هو افتتاح الفهم النوعى للفريزة
الجنسية . كان الاكتشاف الجديد هنا ، هو انه ليس للاطفال
حياة جنسية وانما للفريزة الجنسية طفولة ، »

أصدر أ . او . تانسلى A.O. Tansley حكما مماثلا
آخر ، فى تقرير عن موت شخص أعد للجمعية الملكية بلندن :

«تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر أنه كان يفحص مجالا لم يرتده أحد قبله اطلاقا ، وهو منطقه من العقل البشرى لم ينفذ اليها احد من قبل ، واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير ، او انها انحرافات فاسدة ، او تجاهلها العلماء لانها تنبع تحت أقوى المحرمات البشرية . ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال - فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لاواعية بالعقل ، ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح في سلسلة الاحداث العقلية الواعية .

وأخيرا فرود وينفريد أوفر هولستر Winfred Overholster انه : « هناك سبب قوى للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن ، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن ، كأحد الرجال الذين فتحوا افقا جديدا من آفاق الفكر . فمن المؤكد انه في عصرنا هذا ، لم يلق أحد ضوءا على أعماق عقل الإنسان ، كما فعل فرويد » .

قضى فرويد آخر شهور حياته في المنفى . فبعد احتلال النازى للنمسا ، اضطر الى مغادرة فينا في سنة ١٩٣٨ ، فمنحته انجلترا حق اللجوء ، ولكن سرطان الفم تسبب في موته في سبتمبر ١٩٣٩ ، بعد ذلك بأكثر قليلا من سنة .

١٦ - شبين العصر الذرى

البرت اينشتين Albert Einstein

النسبية : نظرياتها الخاصة والعامة

كان البرت اينشتين أحد الاشخاص النادرين فى التاريخ ، اذ نجح فى ان يصير أسطورة نسب بطولية ابان حياته . فكلما بدت آراؤه غامضة على العلمانيين من الشعب ، زادت غرابتها وزادت رؤيته يتكلم من علو اوليمبى بعيد . وكما لاحظ برتراند راسل Bertrand Russel بحق : « يعرف كل شخص ان اينشتين قد فعل شيئا مدهشا ، بينما يعرف القليلون بالضبط ذلك الذى فعله » . ولكى نعلم ، ولو بصفة غير دقيقة ، انه قلما يوجد عشرة اشخاص فى العالم كله يفهمون تماما نظريات اينشتين عن الكون، التى تتحدى وتتخذع الالوف ان لم يكن الملايين الذين يحاولون فهم مايقوله ساحر الرياضيات العظيم ذاك .

يبدأ عدم قابلية فهم نظريات اينشتين من الطبيعة المعقدة والخارقة لمجال عمله . وذكرت . ا . بريدجز T.E. Bridges ، ان عالما انجليزيا غير معروف الاسم وصف الموقف كما يلى :

« يتناول مذهب اينشتين هذا ، النسبة بين الاحداث الطبيعية والرياضية ، اذن فلا يمكن شرحها الا بمصطلحات رياضية . ومن المستحيل تقديمها بأية صورة اخرى يمكن ان يفهمها اولئك الذين لا يلعبون بالجبر الماما متقدما » .

ويعبر جورج و . جراى George W. Gray بوجهة نظر مشابهة فيقول :

« بما ان مؤلف النظرية النسبية ، قدمها بلغة رياضية . واذا اردنا الدقة في التعبير ، فلا يمكن التعبير عنها بطريقة غير تلك ، فان هناك زعما معينا في كل محاولة لترجمتها الى اللغة الدارجة ، كما تمكن محاولة ترجمة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن Beethoven على السكسية (Saxophone) .

ومع ذلك ، فربما امكن اقتراح بعض مظاهر معينة من عالم اينشتين دون الاتجاء الى الرموز الرياضية . وياله من عالم خيالى يقرب رأسا على عقب تلك الافكار التى ظلت معترفا بها لعدة قرون ، «وهذا عصيد غريب يطلب من الرجل العامى ان يهضمه» . فمثلا ، يطلب منا ان نعترف بأفكار لا يمكن تصديقها ، مثل : الفضاء مقوس ، وأقرب بعد بين نقطتين ليس خطا مستقيما ، والكون محدود ولكن بغير حدود ، والخطوط المتوازية تتلاقى أخيرا ، والاشعة الضوئية تسير في خطوط منحنية ، والزمن نسبي ولا يمكن قياسه بطريقة واحدة في كل مكان ، وان قياس الاطوال يختلف باختلاف السرعة ، وان الارض اسطوانية الشكل وليست كروية ، والجسم المتحرك نكمش حجما ، ولكن كتلته تزيد ، وان هناك بعدا رابعا هو الزمن ، علاوة على الأبعاد الثلاثة المألوفة وهى الطول والعرض والارتفاع .

رغم أن اينشتين قد أسهم بنظريات لاتحصى في الرياضيات ، فان شهرته تستند أولا وقبل كل شيء على نظرية النسبية . وهذا عمل جعل بانيش هو فمان Banest Hoffman

يستنتج ان له «صفة أثرية وضعت مؤلفه بحق بين عظماء العلماء في جميع العصور، في الصحبة المختارة لاسحق نيوتن وارشميدس. اطلقت هذه النظرية بمتناقضاتها المدهلة ونجاحها الظاهر ، اطلقت مخيلة الجمهور» .

بدأت ثورة اينشتين في سنة ١٩٠٥ ، فظهرت في صحيفة المانية عنوانها «التقويم السنوي لعلم الطبيعة Annalen der Physik في ثلاثين صفحة تحمل العنوان غير المشير « عن الديناميكا الكهربائية للاجسام المتحركة » . وكان اينشتين وقتذاك في السادسة والعشرين من عمره ، يعمل موظفا بسيطا في ادارة تسجيل المخترعات السويسرية . ولد في أسرة يهودية من الطبعة المتوسطة بمدينة اولم Ulm في بافاريا ، سنة ١٨٧٩ . وعندما كان تلميذا ، لم يكن يجيد شيئا من الدروس غير الرياضيات ، ذلك المجال الذي أبدى فيه دليلا مبكرا على النبوغ . ولما ساءت الحالة المالية لاسرته ، اضطر الى أن يعول نفسه بنفسه وهو في الخامسة عشرة ، فهاجر الى سويسرا حيث استطاع الاستمرار في دراسته العلمية باكاديمية الفنون التكنولوجية في زيورخ Zurich وتزوج من زميلة له في الأكاديمية وصار مواطنا سويسريا . ولما ضمن عليه بما كان يصبو اليه وهو أن يكون أستاذا جامعا، ولكي يكسب عيشه استقر في عمل يقوم فيه بعمل التقارير الأولية وتسجيل طلبات المخترعين لتسجيل اختراعاتهم . وكان يشغل وقت فراغه من العمل في دراسة مؤلفات الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات . وسرعان ما استعد لاجراج طوفان من الافكار الطريفة في الفيزياء ، وقدر له أن يلقي ردود فعل بعيدة المدى .

قدم اينشتين في صحيفته لسنة ١٩٠٥ ، النظرية الخاصة للنسبية متحديا أفكار الانسان السائدة من الزمن وعن الفضاء

وعن المادة والطاقة . وضعت أسس هذه النظرية في موضعين أساسيين . الاول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية . وهناك مثل مالوف لهذه النظرية. في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة . فالشخص الجالس في قطار ذى نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة ، وبه قليل من الضوضاء ، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة ، ولا عن اتجاه سير القطار ، وقد لا يشعر اطلاقاً بأن القطار يتحرك . والشخص الموجود في سفينة مغلقة النوافذ ، يكون في نفس الموقف . لانشعر بالحركة الا بمصطلحات نسبية اى بالنسبة لاجسام أخرى . وعلى نطاق أوسع ، فان الحركة الامامية للارض لايمكن الاحساس بها ان لم يكن هناك اجرام سماوية لعمل مقارنة .

أما الفرض الثانى الأينشتين فهو ان سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره . فسرعة الضوء البالغة ١٨٦.٠٠٠ ميل/في الثانية ثابتة دائما في اى مكان على سطح الارض ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه . فمثلا ، في قطار متحرك ، يسير الضوء بنفس السرعة تماما التى يسير بها خارج القطار . ومامن قوة تؤثر عليه فتجعله أسرع أو ابطأ . وزيادة على ذلك ، مامن شىء يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء رغم أن الالكترونات تقترب كثيرا من هذه السرعة . والواقع أن انضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها .

قام العالمان الأمريكان ميتشيلسون Michelson ومورلى Morley في سنة ١٨٨٧ بتجربتهما الشهيرة التى وضعت أساس نظرية اينشتين عن الضوء ، وبنى جهاز بالغ الدقة لقياس سرعة الضوء بدرجة عالية من الدقة . وضعت انبوبتان طول كل منهما ميل ، متعامدتين . احدهما موضوعة في اتجاه دوران الارض حول الشمس ، والثانية في عكس اتجاه حركة

الأرض ووضعت مرآة عند نهاية كل أنبوبة . واطلق شعاع ضوئي في كلتا الأنبوبين في وقت واحد . ولما كان الأثر غير المرئي يملأ كل فضاء لا تشغله أجسام صلبة ، فإن أحد الشعاعين الضوئيين يشبه سباحا يعوم ضد التيار ، بينما يقارن الشعاع الآخر بسباح آخر يعوم في اتجاه التيار . ولدهشة وذهول العالمين ارتد الشعاعان معا في نفس اللحظة . فاعتبرت هذه التجربة فاشلة .

اجابت صحيفة أينشتين في سنة ١٩٠٥ على السؤال الذي حير مينشيلسون ومورلي وزملاءهما من علماء الطبيعة . لم يعمل حساب وجود الأثر ، والواقع أن الأنبوبين قاستا سرعة الضوء قياسا صحيحا ، والنقطة التي استنتجها أينشتين هي أن الضوء يسير دائما بنفس السرعة ، مهما تكن الظروف التي يقاس فيها . ولا تؤثر حركة الأرض بالنسبة الى الشمس ، على سرعة الضوء .

وعلى عكس تعاليم نيوتن ، أكثر أينشتين أنه ليس هناك شيء يسمى «حركة مطلقة» ، وأن فكرة الحركة المطلقة للجسم في الفضاء عديمة المعنى . فالحركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء . لا يوجد في أي مكان على سطح الأرض، أو في الكون شيء ما في حالة سكون تام أو سكون مطلق . فالحركة مستمرة في جميع أنحاء عالمنا غير الساكن ، من الذرة المتناهية في الصغر ، الى أضخم مجرة سماوية . فمثلا ، تدور الأرض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميل/في الثانية . وفي عالم يتحرك فيه كل شيء وليس به نقط ثابتة للمقارنة ، لا توجد أية معايير ثابتة لمقارنة السرعات والطول والحجم والكتلة والزمن الا عندما تقاس بحركاتها النسبية . أما الضوء وحده فهو غير النسبي ، وسرعته ثابتة لا تتغير بغض النظر عن مصدره أو موقع المبرر ، كما اثبتت تجربة ميتشيلسون ومورلي .

ولاشك في ان اضعف افكار اينشتين كلها فهما واكثرها عدم قلب للمعتقدات الموروثة ، هو نسبية الزمن . فيقرر اينشتين ان الاحداث الحاصلة في اماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لمبصر واحد، ليست حادثة في نفس اللحظة لمبصر آخر يتحرك نسبيا للاول . فمثلا ، اذا حكم بان حادثين وقعا معا في وقت واحد لمبصر على الارض وآخر في قطار او في طائرة ، فالحقيقة انهما لم يقعا في نفس اللحظة . فالزمن نسبي لمركز المبصر وسرعته وليس مطلقا . وبتطبيق هذه النظرية على الكون ، فان حادثا وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلا ، وشاهده احد سكان الارض ، فان ذلك الانفجار لم يحدث في نفس الوقت الذي شوهد فيه على الارض ، بل على العكس ، رغم ان سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية فان حدثا وقع على نجم بعيد جدا ، قد يكون حدث قبل وصول خبره الى الارض بسنوات . والنجم الذي يرى اليوم هو بلاشك نفس النجم الذي روى منذ زمن بعيد ، مع انه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد .

اذا امكن ان نتصور انسانا يكتسب سرعة اعظم من سرعة الضوء ، فبحسب نظرية النسبية يمكنه ان يسبق ماضيه ويتم مولده في المستقبل . لكل كوكب نظامه الخاص للزمن ، يختلف عن جداول الزمن الموجودة في كل مكان . فاليوم على كوكبنا هو مجرد فترة دوران الارض حول محورها . ولما كان كوكب المشتري يستغرق وقتا اطول في دورانه حول الشمس عما تستغرقه الارض، فان السنة على سطح المشتري اطول من السنة على سطح الارض عندما تزيد السرعة يبطئ الزمن . لقد تعودنا التفكير في ان كل جسم له ثلاثة ابعاد في الفضاء وأن الفضاء بعد للزمن ولايمكن ان يوجد اى من الزمن والفضاء بدون الآخر ، ولذا فكل منهما معتمد على الآخر . ولما كانت الحركة والتغير مستمرين فاننا نعيش في كون ذى اربعة ابعاد ، البعد الرابع فيه هو الزمن .

وهكذا يكون التمهيدان الأساسيان لنظرية اينشتين كما قدمها منذ نصف قرن قبل ذلك ، هما نسبية جميع الحركات ، وفكرة الضوء على أنه الكمية الوحيدة غير المتغيرة في العالم كله .

لما أخذ اينشتين يطور نظرية نسبية الحركة هدم اعتقادا واسخا تماما . فقبلا ، كان الطول والكتلة معتبرين مطلقين وثابتين تحت كل الظروف الممكن التفكير فيها . فجاء اينشتين يقرر أن كتلة الجسم أو وزنه وطوله يتوقفان على سرعة تحرك الجسم . فمثلا : تخيل قطارا طوله ١٠٠٠ قدم يسير بسرعة تعادل $\frac{1}{3}$ سرعة الضوء ، فالبصر الواقف مكانه وهو يلاحظ القطار فيترأى له طوله ٦٠٠ قدم فحسب ، ولو أنه يظل ١٠٠٠ قدم لراكب فيه . وبالمثل أى جسم مادي يتحرك في الفضاء ينكمش تبعا لسرعته . فاذا قدفت عصا طولها ياردة ، في الفضاء بسرعة ١٦١٠٠٠ ميل/ ثانية ، ينكمش طولها نصف ياردة . فلدوران الأرض ذلك الأثر الغريب في اقلال محيطها بحوالى ثلاث بوصات .

وكذلك الكتلة متغيرة . فبينما تزيد السرعة ، تغدو كتلة الجسم أكبر . ولقد اوضحت التجارب أن جزيئات المادة اذا حركت بسرعة ٨٦٪ من سرعة الضوء تزن ضعف وزنها وهى في حالة السكون . لهذه الحقيقة علاقات كبيرة بتطور الطاقة الذرية .

تعرف نظرية اينشتين الاصلية لسنة ١٩٠٥ بالنظرية الخاصة للنسبية لان استنتاجاتها تقتصر على الحركة المنتظمة في خط مستقيم ولا تختص بالانواع الأخرى للحركة . وفي عالمنا ، قلما تتحرك النجوم والكواكب والاجرام السماوية الأخرى حركة منتظمة في خط مستقيم ، ولذا فان أية نظرية لاتتضمن جميع صور الحركة ، لاتقدم وصفا كاملا للكون . وبناء على ذلك كانت

خطوة اينشتين التالية هي صياغة نظريته العامة للنسبية ، وهى عملية استغرقت عشر سنوات من التطبيق العنيف . درس اينشتاين فى النظرية العامة للنسبية ، تلك القوة الغامضة التى تقود حركات النجوم والمذنبات والشهب والمجرات وكافة الاجسام السماوية الاخرى التى تدور حول الكون الشاسع .

تقدم اينشتين فى نظريته العامة للنسبية التى نشرها عام ١٩١٥ ، بفكرة جديدة عن الجاذبية محدثا تغييرات جوهرية فى فكرتى الجاذبية والضوء اللتين حظيتا بالقبول العام منذ عهد السير اسحق نيوتن . اعتبر نيوتن الجاذبية «قوة» . ولكن اينشتين اثبت ان الفضاء حول كوكب ما او جسم سماوى آخر ، مجال جاذبى يشبه المجال المغناطيسى طول المغناطيس . فالاجسام البالغة الضخامة مثل الشمس والنجوم ، يحيط بها مجال جاذبية بالغة القوة . وهكذا فسرت جاذبية الارض للقمر . كذلك فسرت هذه النظرية الحركات الخطأ لعطارد وهو اقرب الكواكب الى الشمس ، تلك الظاهرة التى حيرت علماء الفلك لعدة قرون ولم يتناولها قانون نيوتن للجاذبية بالدراسة الملائمة . ان المجالات الجاذبية عظيمة القوة لدرجة أنها تحنى اشعة الضوء . وفى سنة ١٩١٩ ، اى بعد بضع سنوات من اعلان النظرية العامة لاينشتاين ، التقط المصورون صورة ضوئية لكسوف كامل للشمس اثبتت بصفة نهائية صحة نظرية اينشتاين القائلة بان اشعة الضوء المخترقة لمجال الجاذبية الشمسية ، تسير فى خطوط منحنية وليس فى خطوط مستقيمة .

نتج عن هذا التمهيد حقيقة تقدم بها اينشتاين ، تقول ان الفضاء مقوس . فالكواكب السيارة تتبع اقصر الطرق الممكنة متأثرة بوجود الشمس ، بنفس الطريقة التى يتبعها النهر فى جريانه نحو البحر متخذاً سيره فى الارض فى اسهل طريق طبيعى . وفى

طريقة حسابنا الارضية للاشياء ، فان السفينة او الطائرة التى تعبر المحيط ، تتبع خطا منحنيا ، اى قوسا من دائرة ، ولاتسير فى خط مستقيم . لذا كان من الجلى أن اقرب مسافة بين القطبين خط منحن وليس الخط المستقيم . وتحكم قاعدة مماثلة حركات الكواكب والاشعة الضوئية .

إذا قبلنا نظرية اينشتين عن الفضاء المنحنى كان الاستنتاج المنطقى هو أن الفضاء محدود . فمثلا ، اذا خرج شعاع ضوئى من نجم ما ، فانه يعود أخيرا ، بعد مئات الملايين من السنين ، الى نفس النقطة التى خرج منها ، مثله فى ذلك مثل السائح الذى يدور حول الارض . لايمتد الكون فى الفضاء الى مالانهاية ، ولكن له حدودا ، ولو أنه لايمكن تحديد تلك الحدود .

من بين جميع الاكتشافات العلمية العظيمة التى قام بها اينشتين ، كان لافكاره عن النظرية الذرية أعظم اثر عميق مباشر على عالم اليوم . فبعد قليل من نشر مقاله الاول عن النسبية ، التى نشرت فى صحيفة «التقويم السنوى للفيزياء» ، حملت نفس الصحيفة مقالا قصيرا لاينشتين يطيل فيه نظريته الى أبعد مما كانت عليه . كان عنوان ذلك المقال «هل يتوقف القصور الذاتى لجسم ما على طاقته؟» أكد اينشتين أنه من الممكن استخدام الطاقة الذرية - ولو نظريا على الاقل . ويمكن اطلاق هذه الطاقة تبعا لقانون صاغه اينشتين ، وهو أشهر معادلة فى التاريخ كله : $E = mc^2$ أى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء . فاذا أمكن استخدام الطاقة الموجودة فى نصف رطل من اية مادة اطلقت ، حسب تقرير اينشتين ، قوة تعادل قوة انفجار سبعة ملايين طن من المادة المتفجرة T.N.T. . وكما أشار أحد المعلقين : «لولا معادلة اينشتين لتعثر العلماء فى تجاربهم على تفتيت اليورانيوم ، ولكن من المشكوك فيه أنهم أدركوا أهميتها فى وحدات الطاقة أو وحدات من القنابل» .

برهن أينشتين في معادلته الشهيرة $E = mc^2$ على أن الطاقة والكتلة . هما نفس الشيء ولا يختلفان الا في الحاله فقط .
 والواقع أن الكتلة طاقة مركزة وكتب بارنيت Barnett في تقدير وليد الذكاء ، كتب يقول : «تجيب هذه المعادلة على كثير من الغاز علم الفيزياء التي ظلت غامضة منذ امد بعيد . فهي تفسر كيف تستطيع المواد المشعة كالراديوم واليورانيوم ، اطلاق ذرات ذوات سرعة هائلة ، وتستمر في اطلاقها لملايين السنين . وهذا يفسر ، بدوره ، كيف أن الشمس وجميع النجوم تستطيع ارسال الضوء والحرارة لبلايين السنين ، لانه اذا فنيت شمسنا بعمليات الاحتراق العادية لمانت الارض متجمدة بردا وظلاما منذ آمام بعيدة . انها تكشف مقدار الطاقة الكامنة في نواة الخلية ، وتبين عدد جرامات مادة اليورانيوم اللازم وجودها في قنبلة لكي يصبح في مقدورها أن تدمر مدينة » .

ظلت معادلة أينشتين نظرية حتى سنة ١٩٣٩ ، اذ غدا مؤلفها مواطنا في الولايات المتحدة الامريكية اذ طرده النازيون من أوروبا .
 واذا علم أينشتين أن الالمان يستوردون اليورانيوم ويقومون بأبحاث لصنع قنبلة ذرية ، كتب خطابا بالغ السرية للرئيس روزفلت
 Roosevelt

« وصلتني نسخ خطية عن أبحاث حديثة يقوم بها كل من
 ا . فيرمي E. Fermi ول . سزيلارد L. Szilard تجعلني
 اتوقع أن عنصر اليورانيوم يمكن أن يتحول الى مصدر
 جديد هام للطاقة في المستقبل القريب العاجل . . . كما تؤدي
 هذه الظاهرة الجديدة الى صنع القنابل ، ومن المفهوم . . . أن
 . . . قنبلة واحدة من هذا النوع ، اذا حملتها سفينة وفجرتها
 في ميناء ، أمكنها تدمير ذلك الميناء كله ومعه بعض الاراضي المحيطة
 به » .

كانت النتيجة المباشرة لخطاب أينشتين الى روزفلت ، ان بدأ مشروع صنع قنبلة مالهاتان Manhattan الذرية . وبعد ذلك بحوالى خمس سنوات فجرت أول قنبلة الماجوردو Almagordo بولاية نيو مكسيكو New Mexico . وبعدها بمدة وجيزة حدث التدمير الذريع الذى أحدثته قنبلة ذرية أسقطت فوق هيروشيما Hiroshima ، وكانت السبب فى سرعة انهاء الحرب مع اليابان .

رغم ان القنبلة الذرية كانت أبرز التطبيقات العملية لنظريات أينشتين ، فان الذى وطمد شهرته ، هو انجاز شهير آخر . فمع نظريته الخاصة عن النسبية لسنة ١٩٠٥ ، كان هناك قانونه الضوئى الكهبرى photo electric ، الذى يفسر الأثر الضوئى الكهبرى الغامض الذى مهد الطريق لمجىء التليفزيون والسينما الناطقة و «العين الكهربية» المعروفة بالعين السحرية التى لقيت استعمالا شتى فى كثير من المجالات . وبسبب هذه الاكتشاف منح أينشتين جائزة نوبل فى الفيزياء لسنة ١٩٢٢ .

دأب أينشتين فى أواخر سنى حياته على العمل بجهد وبغير كلل لتأليف النظرية المعروفة بنظرية المجال الموحد ، محاولا البرهنة على انسجام وانتظام الطبيعة . وتبعاً لرايه ، يجب تطبيق القوانين الطبيعية للدرة الدقيقة على الاجسام السماوية الضخمة ، فان نظرية المجال الموحد تدمج كافة الظواهر الطبيعية فى قاعدة واحدة . فالجاذبية والكهرباء والمغناطيسية والطاقة الذرية كلها قوى تشملها نظرية واحدة . وفى سنة ١٩٥٠ ، بعد أبحاث دامت أكثر من جيل ، قدم أينشتين هذه النظرية للعالم ، وعبر عن اعتقاده بأن مفتاح الكون فى هذه النظرية . اذ تجمع فى فكرة واحدة بين لا نهائية الصفر ، وعالم الدرة الدوار ، واتساع مدى الفضاء الملىء بالنجوم . وبسبب الصعوبات الرياضية ، لم تختبر هذه النظرية تماماً تبعاً

للحقائق الثابتة في علم الفيزياء . ومع ذلك ، فقد كان لدى أينشتين اعتقاد راسخ بأن نظريته عن المجال الموحد ستقدم في وقت ما تفسيرا «للصفة الذرية للطاقة» وتبرهن على وجود عالم جيد التنظيم .

شرح أينشتين الفلسفة التي أوحى اليه وقادته خلال عشرات السنين من المجهود الذهني العنيف ، وماتج عن ذلك من نتائج اثابته على كل هذه الجهود . شرح تلك الفلسفة في محاضرة عن أسس النظرية العامة للنسبية . القاها في جامعة جلاسجو سنة ١٩٣٣ ، قال فيها :

« تكاد النتائج الأخيرة تبدو بسيطة ، فان أى طالب جامعى ذكى يستطيع فهمها دون عناء كبير . ولكن سنوات البحث في الظلام عن حنيقة نشعر بها الانسان ولايمكنه التعبير عنها ، والرغبة الشديدة وتبادل الثقة والشك حتى يشق المرء طريقه الى الوضوح الفهم ، لايعرف كل هذه ، الا من مارسها بنفسه» .

وفي مناسبة اخرى ، قدم أينشتين الدليل على الناحية الروحية العميقة لطبيعته بهذا القول :

« ان أجمل وأعمق عاطفة أو انفعال يمكن ان يتأبنا هو الاحساس بدافع خفى نحو وجود شيء غامض . انه الذى يبدو بذور جميع العلوم الحقيقية . ومن كان هذا الانفعال غريبا عليه . فمعرفة ان ما لا يمكننا التغل في غوامضه ، موجود فعلا ومعبر عن وجوده كاسمى حكمة وكاعظم جمال يتألق لاستطيع مواهبنا الخاملة على فهمه الا في صورتها المتناهية البدئية - هذه المعرفة وهذا الاحساس كامنان في وسط التدين الحقيقى» .

اعترف بمدد لا يحصى من العلماء بفضل أينشتين . وتبرهن

بعض نصوص استعراضاته الحديثة عن مستقبله ، على سيطرته
الفريدة على دنيا العلوم . فكتب بول اويهزر Paul Oehser يقول :

« السيطرة كلمة ضعيفة لتوصف بها أعمال البرت اينشتين .
فالنظريات التي قدمها نظريات ثورية . ولد فيها العصر الذري
ولانعرف الى أية ناحية تقود الجنس البشرى . ولكننا نعلم علم
اليقين أن هذا هو أعظم عالم وفيلسوف في القرن العشرين ، كاد
أن يكون قديسا في نظرنا ، وقد حققت أعماله ثقتنا في العقل
البشرى ، وهى رمز للطموح الابدى للانسان وطلبه الوصول الى
النجوم .

وقال العالم بانش هو فمان Banesh Hoffman

« لاتكمن اهمية آراء اينشتين العلمية في نجاحها العظيم
فحسب ، فان أثرها السييكولوجى قوى بنفس الدرجة وفي حقبة
ناقدة في تاريخ العلوم ، برهن اينشتين على أن الافكار التى ظلت
مقبولة منذ أمد بعيد ، ليست مقدسة . وكان هذا أكثر من أى
شئ آخر هو ما حرر مخيلة الناس أمثال بوهر Bohr ،
ودى بروجلى de Broglie وأوحى الى انتصاراتهم الجريئة
في مملكة الجملة . فأينما أدونا بصرنا ، فان فيزياء القرن العشرين
تحمل الطابع الذى لا يطمس لعبقرية اينشتين .